رياض نجيب الريّس

صحافي ومدينتان

رحلة إلى سمرقند وزنجبار





RIAD EL-RAYYES
BOOKS
رياض الريّس للكتب والنشر




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



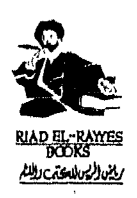
صحافي ومدينتـــان



رياض نجيب الريّس

صحافي ومدينتان

رحلة إلى سمرقند وزنجبار



A JOURNALIST AND TWO CITIES

A JOURNEY TO SAMARKAND AND ZANZIBAR

BY

RIAD N. EL-RAYYES

First Published in 1997

BEIRUT- LEBANON

British Library Cataloguing in Publication Data available

ISBN 1 85513 260 5

الغلاف: تصميم محمد حمادة

الطبعة الأولى: أيلول/سبتمبر ١٩٩٧

إلى «فاتيما» السمرقندية التي سألتني:
أين تقع «شام شريف»؟
وإلى «فطومة» الزنجبارية التي سألتني:
هل صحيح أن لا بحر في بيروت»؟
شكراً لصحبتهما!



هذا الكتاب هو حصيلة رحلة قام بها المؤلف إلى
آسيا الوسطى وأوزبكستان في خريف ١٩٩٢.
ورحلة أخرى قام بها إلى شرق أفريقيا وزنجبار
في شتاء ١٩٩٧.



المحتويات

آخر مراكز «اللعبة الكبرى»:

قاموس بدائي:

II ـ شرق أفريقيا

... في وصف زنجبار

الصورة البشعة لأفريقيا الجميلة

حكاية زنجبار التاريخية

حكاية زنجبار الحضارية

حكاية زنجبار السياسية

مدخل

حمولة التاريخ

هذه رحلة في الحاضر، وليست رحلة في الماضي. لكن الصحافي العربي القادم إلى آسيا الوسطى أو شرق أفريقيا لا يستطيع الهرب من التاريخ. فلا يمكن فهم أو تفسير كل ما يقع اليوم من أحداث في هاتين القارتين، إذا لم يتم ربطه مباشرة بالتاريخ.

وليس هناك لمنطقة في العالم، ما لآسيا الوسطى أو لشرق أفريقيا (ما عدا ربما الشرق الأوسط) من ارتباط عضوي متصل وعميق بالتاريخ. فكل حدث فيهما، كبُرَ أم صَغُر، مردود باستمرار إليه. وكل حجر فيهما إذا قلبته، له حكاية. وكل وجه إذا حاكيته له رسم. حتى الرياح التي حملت إليهما التجارة، حملت معها التاريخ. فلا إمكانية للكتابة عن شرق أفريقيا اليوم، إذا كنت لا تعرف كيف تعرّج على الأمس. ولا فكاك للكاتب العربي الزائر من السباحة في بحرين: بحر العرب وبحر الإسلام.

ولا بد للصحافي العربي إلا وأن يمر بسلسلة من المتعرجات، أكانت

حكايات اجتماعية أو قصصاً طريفة أو أحداثاً سياسية أو ظروفاً اقتصادية أو نزاعات محلية أو روايات شخصية أو حروباً قبلية. فالبحر الحضاري العربي ـ الإسلامي مازال يهدر حول آسيا الوسطى وشرق أفريقيا قاذفاً على سواحلهما بحمولته التاريخية.

بهذه الحمولة تبدأ رحلة هذا الصحافي إلى آسيا الوسطى وشرق أفريقيا، في خريف ١٩٩٢ وشتاء ١٩٩٧. الأولى إلى سمرقند وبخارى وخوارزم، والثانية إلى نيروبي عاصمة كينيا ومنها إلى مومباسا وضواحيها على الساحل الشرقي من البلاد. ومن هناك إلى زنجبار. بعد زنجبار كان المسير إلى دار السلام عاصمة تنزانيا، وبعدها أروشا في الداخل الغربي لتنزانيا وبعد ذلك نحو سفوح جبل كليمينجارو ومنها إلى نيروبي طريقاً للعودة.

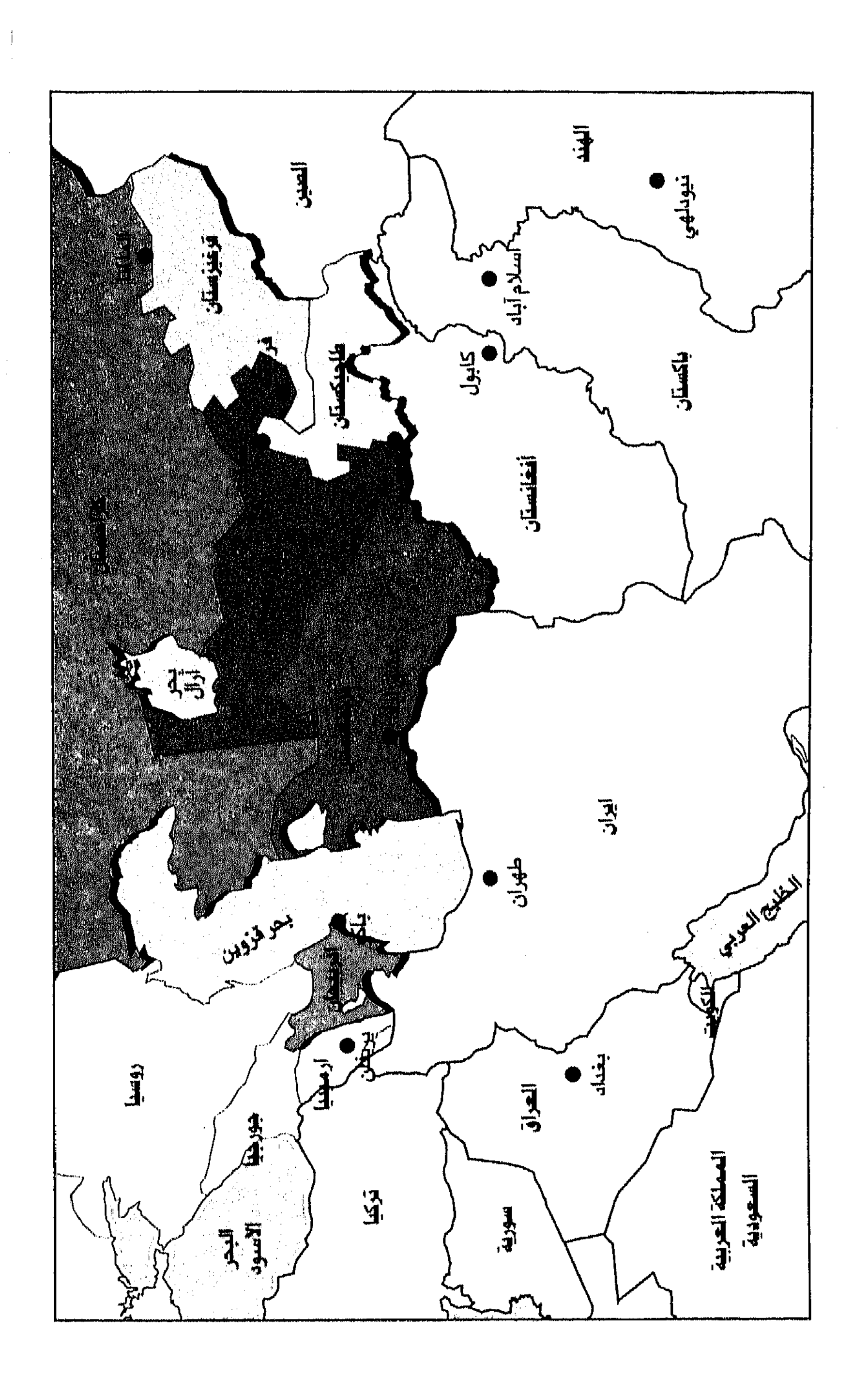
بالنسبة إلى هذا الكتاب، سيقتصر الحديث عن سمرقند وبخارى في آسيا الوسطى. وبالنسبة إلى شرق أفريقيا سيقتصر الحديث عن مكان واحد أساسي في هذه الرحلة، وذي ارتباط مباشر بهدير البحر العربي ـ الإسلامي وتدفقاته التاريخية هو زنجبار. وستتداخل الفصول المنشورة هذه في سياق بعضها البعض، ولكن دائماً من خلال ـ الحديث عن آسيا الوسطى وشرق أفريقيا كوحدة تماس حضاري ـ تاريخي واحد. وهي رواية عن شبه أندلس عربية انقرضت وإسلام منسي فقد عروبته وعربيته. مع التأكيد أنه ليس في هذه الرواية التي نتجت عن هذه الرحلة، صور زاهية كثيرة في عيون السكان عن الدور العربي (ماضياً وحاضراً) أو عن الإسلام كما هو اليوم.

الصور في مجملها قاتمة، وإن كانت جميلة ومحرّضة، وفي أحيان كثيرة، حزينة. كما لا يوجد في هذه الرواية الصحافية لرحلة كاتب عربي أي بطل. وإذا كان لا بد من بطل، فشعوب آسيا الوسطى وشرق أفريقيا سواءً

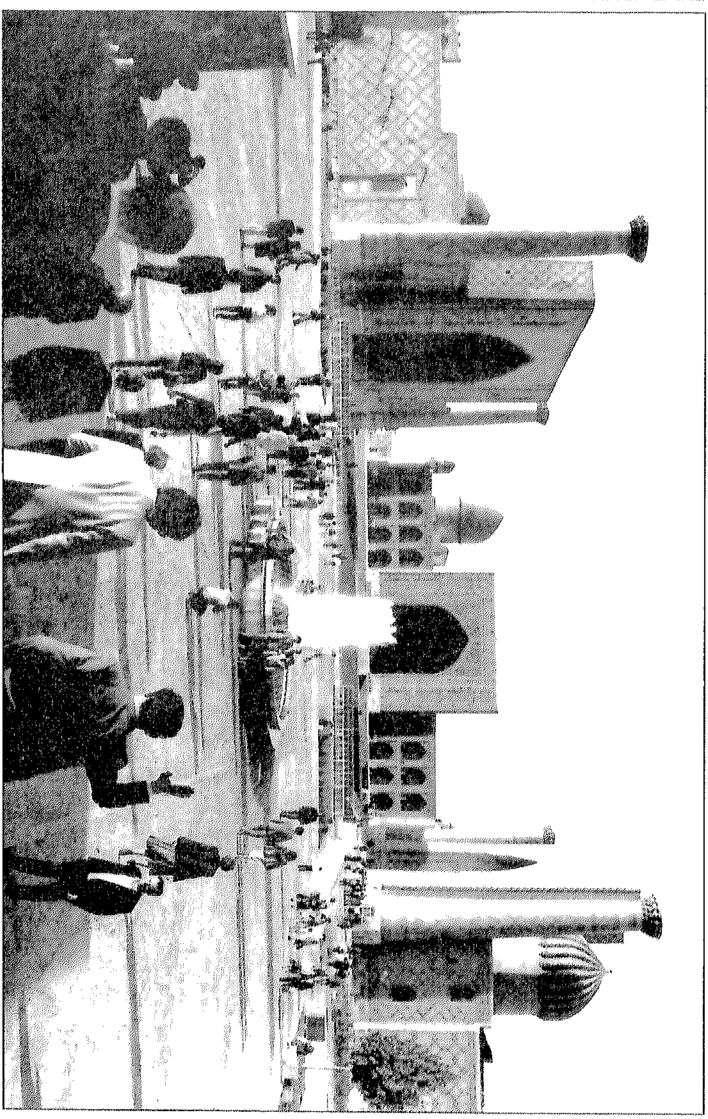
بالعرب الذين جاؤوا إليهم أو الخليط العجيب الذي نتج عن تزاوج الوافدين بالسكان الأصليين، هي البطل. ومن المؤسف أن البطل الآسيوي/ الأفريقي مازال يصرخ مطالباً بالحرية، أكان أبيض أو أصفر أو أسود أو خلاسياً بين بين.

رياض نجيب الريّس

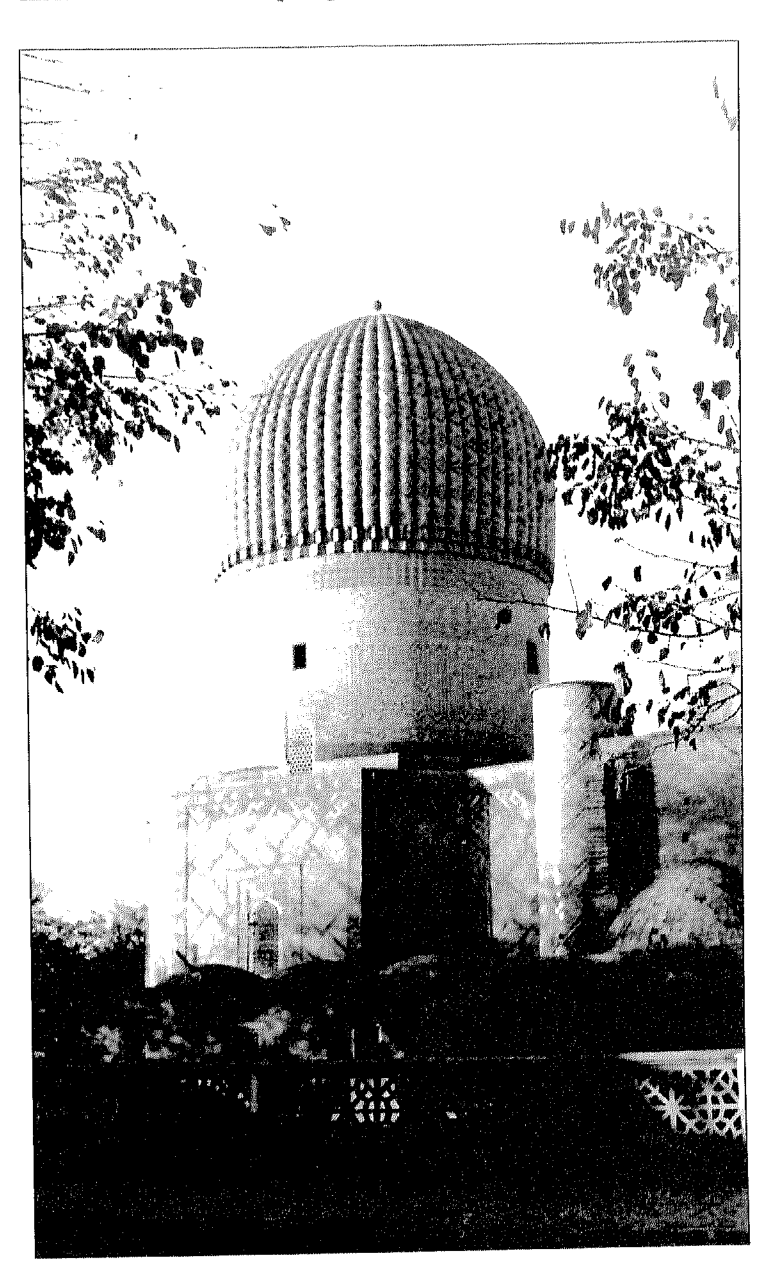
بيروت - صيف ١٩٩٧


روسيا
جورجيا
البحر الأسود
تركيا
أرمينيا
أذربيجان
بحر قزوين
طهران
إيران
العراق
بغداد
سورية
المملكة العربية السعودية
الكويت
الخليج العربي
أفغانستان
كابول
باكستان
إسلام آباد
الهند
نيودلهي
الصين
قرغيزستان
طاجيكستان
كازاخستان
بحر آرال

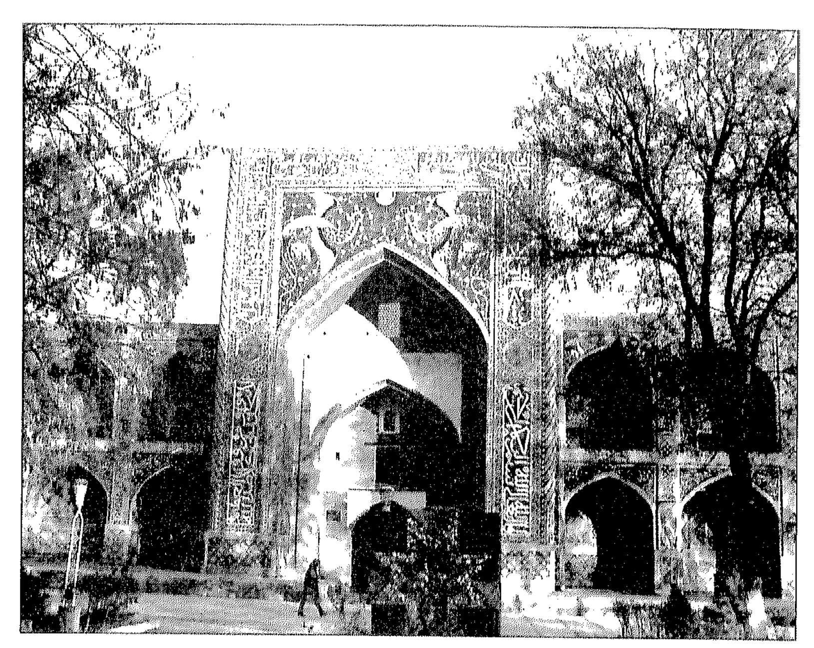
مشاهد من سمرقند



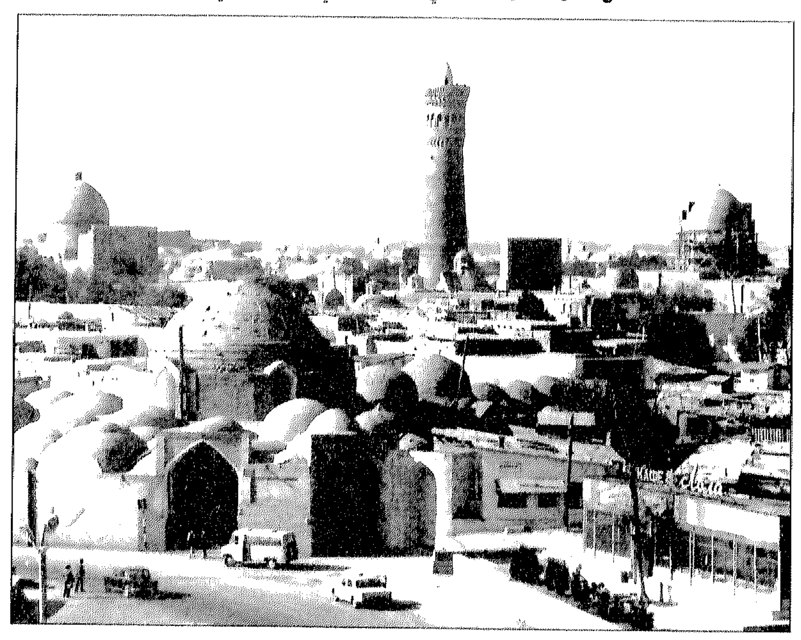
ساحة «راغستان» في سمرقند



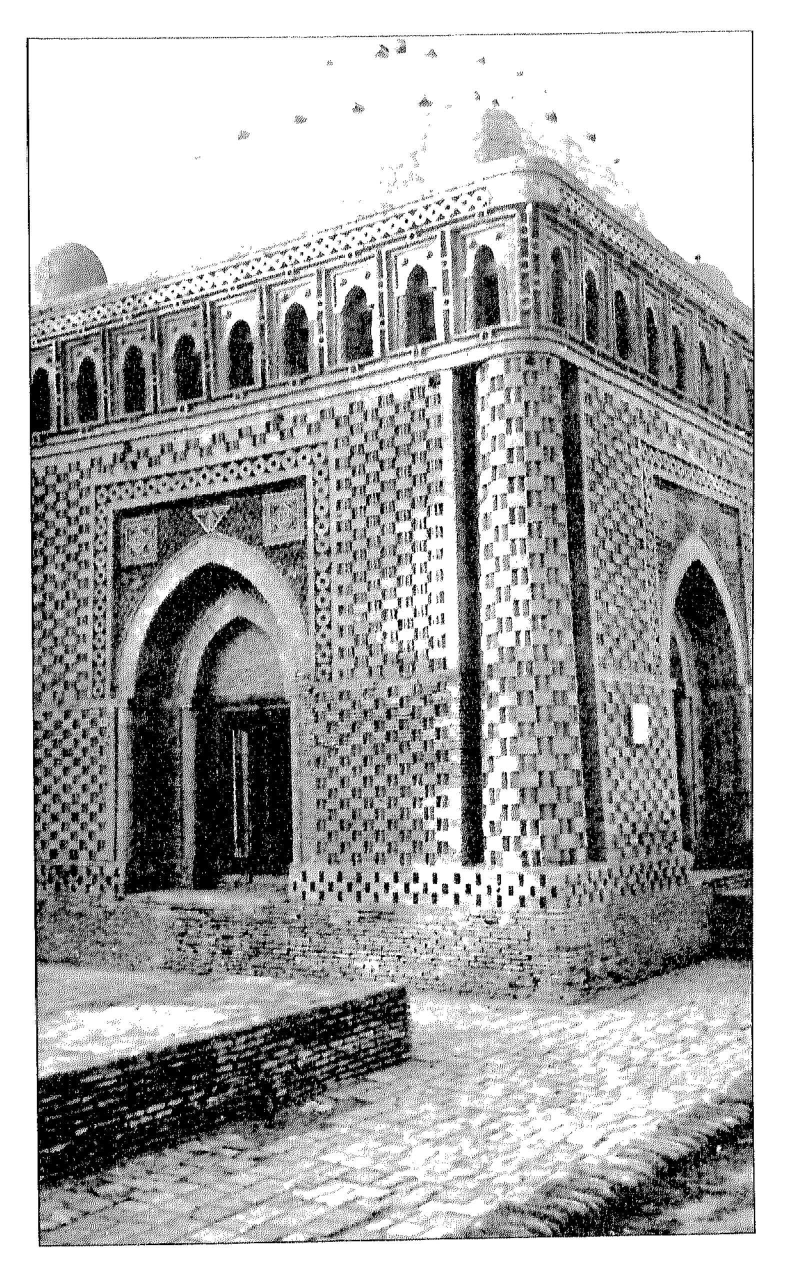
ضريح «شاهي زندا» في سمرقند



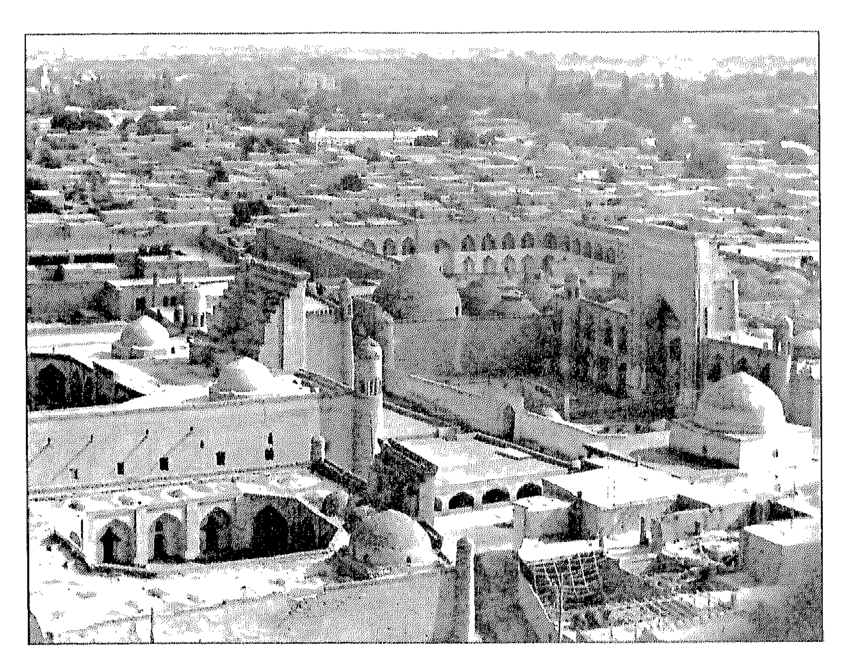
مدخل مدرسة قوقلداش في ساحة «ليابي حاووظ» في بخارى



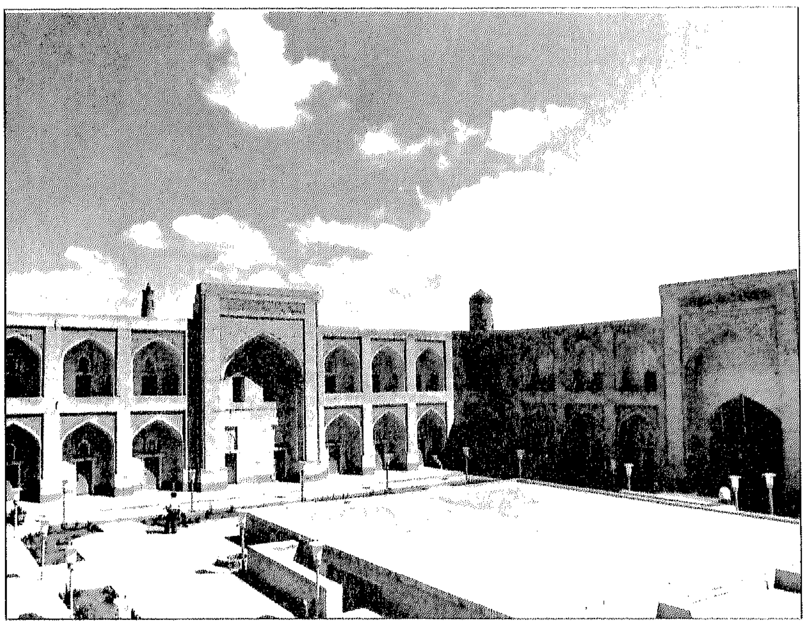
مشهد عام لمدينة بخارى



ضريح الأسرة السامانية في بخارى



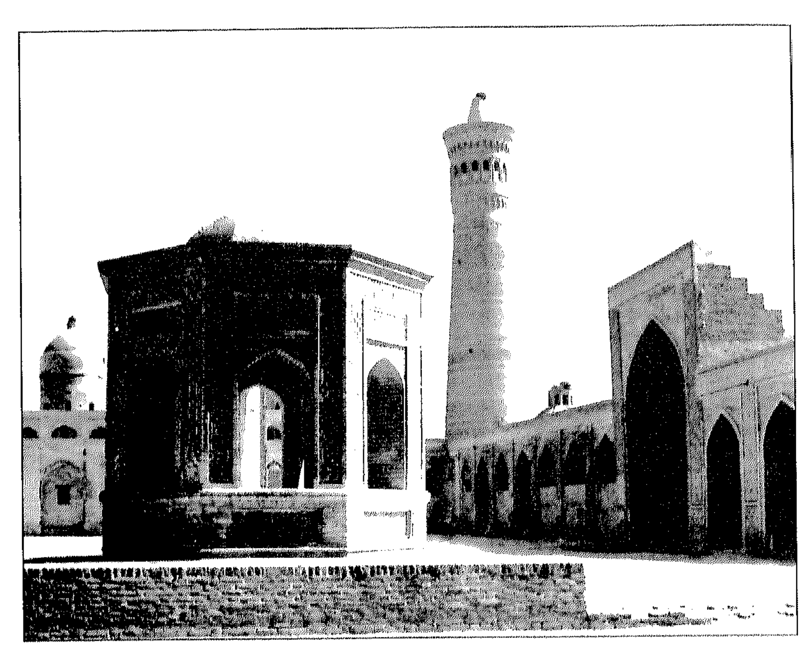
مشهد عام لمدينة سمرقند



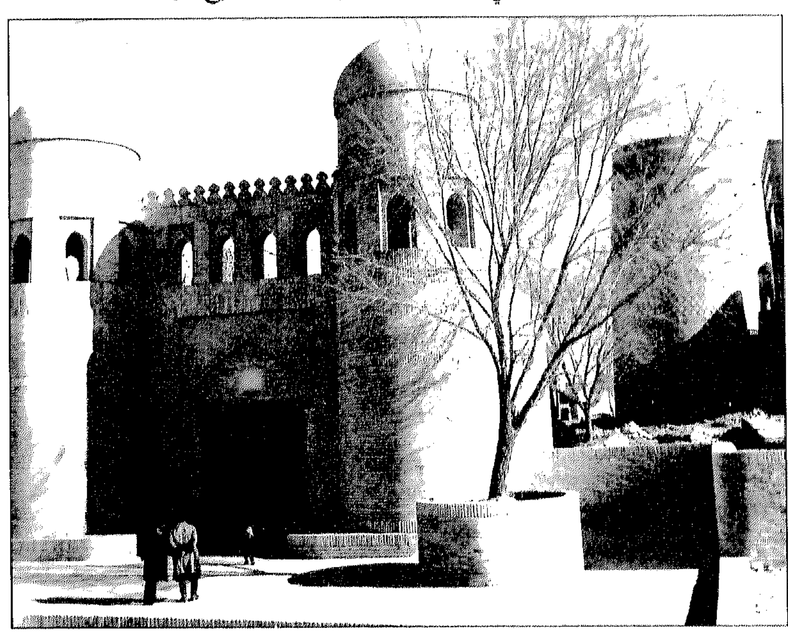
صحن مدرسة أولوغ بك في سمرقند



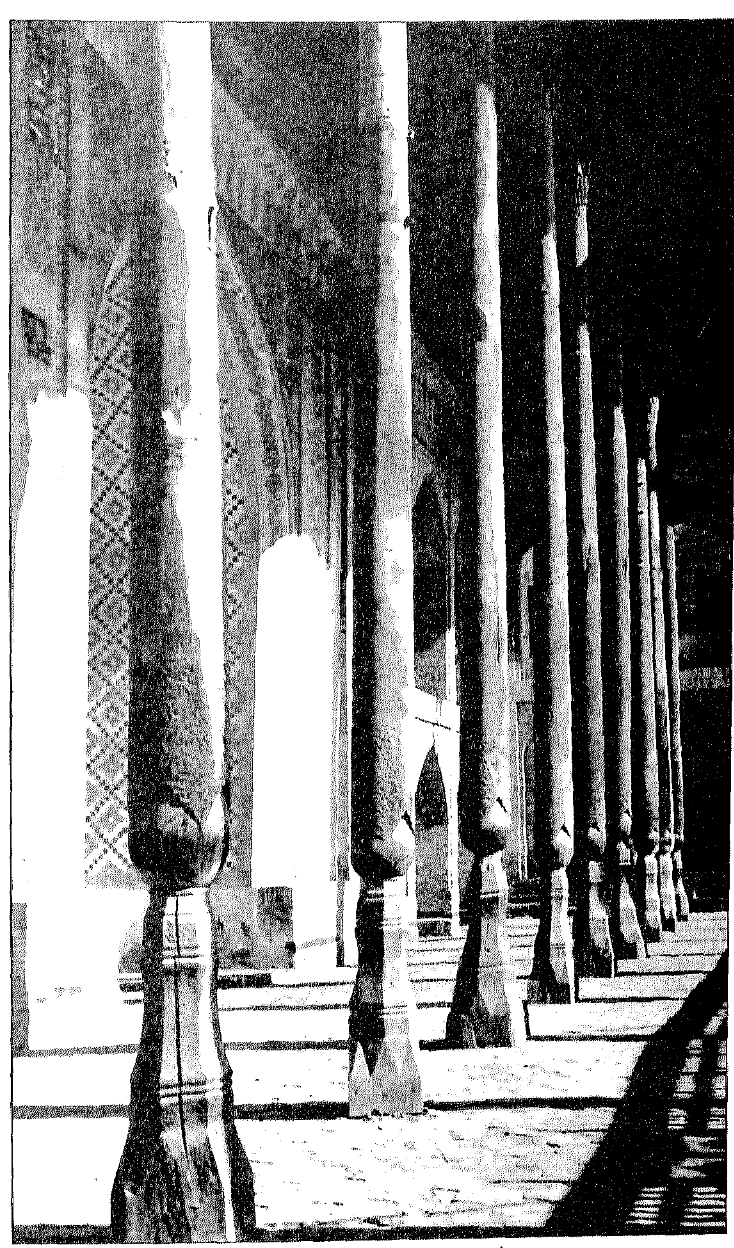
ضريح أبو الريحان البيروني في بخارى



ساحة «القلعة» في بخارى وتبدو منارة قاليان أو «برج الموت»



السور الطيني لمدينة «خيوا» القديمة في خوارزم



رواق من الأعمدة الخشبية في مسجد الجمعة في خوارزم

I

آسيا الوسطى


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

استعادة
الذاكرة التاريخية



١

الصراع على الحروف

عندما قدّمت نفسي كصحافي من الشرق الأوسط، من دون أن أحدد من أي بلد من بلدانه أنا، ظناً مني أن في التعميم فائدة تقيني متاعب الشرح الطويل لتفاصيل كلانا في غنى عنها في ذينك الزمان والمكان، ابتسم محدثي فيروز أشرفي مدير الثقافة والتراث في أوزبكستان، وقال: وأنا من الشرق الأوسط أيضاً.

وقبل أن يتلمس حيرتي من جوابه أضاف قائلاً: لقد كبرت منطقتنا خلال سنة واحدة وتغيّر مفهوم المصطلح الذي استعملته الآن، على الأقل بالنسبة إلينا نحن سكان آسيا الوسطى الإسلامية. وعليكم أنتم سكان الشرق الأوسط القديم، بعربه وبربره وأكراده وفُرْسِهِ وأتراكه وعبرييه أن تعوه، فالمتغيرات المقبلة لأكبر من أن تمر دون التوقف عندها. دعني أشرح لك رؤيتنا نتيجة للأحداث الجسام التي مررنا بها في العامين ١٩٩١ و١٩٩٢، وفي سرعة كانت أكبر من قدرتنا على اللحاق بها.

ولما لم يعد هناك داعٍ لمزيد من التعريف بنفسي، تركت لمحدثي أن يسهب في شرح رؤيته. قال:

لقد كانت نهاية الحرب الباردة مؤشراً إلى إعادة تحديد المفهوم الجغرافي لمنطقة الشرق الأوسط كما نعرفها اليوم، وبالتالي فإن انهيار الاتحاد السوفياتي لا بد أن يفرض علينا إعادة النظر في حدوده الجنوبية، التي هي الحدود الفاصلة بين ما كان معروفاً بالاتحاد السوفياتي وما هو معروف اليوم بالشرق الأوسط. هذه الحدود التي لم تعد موجودة اليوم، والتي كانت في الأصل حدوداً وهمية أقامها التوسع الاستعماري الروسي في أوائل القرن التاسع عشر ومنتصفه، حيث ضمت روسيا القيصرية إلى أمبراطوريتها القوقاز وآسيا الوسطى، التي تشكل وحدة ثقافية وعرقية ودينية، والتي كانت جزءاً من العالم الإسلامي الشرق أوسطي في حينه.

وبتفكك آخر الأمبراطوريات الأوروبية، كان لا بد للجمهوريات الإسلامية السوفياتية من أن تستعيد دورها التاريخي القديم الذي لا بد من أن يغير من مقاييس الشرق الأوسط التقليدية السائدة، ومفاهيم العالم الإسلامي ما قبل الانهيار السوفياتي. فهذه الجمهوريات الست وجيوب الأقليات الإسلامية الموزعة في باقي جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابقة، والتي تتكلم لغات إسلامية إما ذات أصول تركية أو فارسية تليان العربية أهمية، وتملك حدوداً مشتركة مع أربع دول إسلامية، هي تركيا وإيران وأفغانستان وباكستان، وصلات دينية وحضارية وثقافية ولغوية مع كل هذه البلدان، ستجد نفسها ـ إن لم تكن فعلاً قد أصبحت ـ وسط معركة استقطاب كبيرة من قبل هؤلاء الجيران، ستدفعها إلى استعادة ذاكرتها التاريخية المشتركة. هذه الذاكرة تحديداً ستجعلها تطمح إلى لعب دور أساسي في الشرق الأوسط الجديد.

سكت محدثي قليلاً ثم تابع حديثه بنفس واحد وكأنه وجد فيَّ المستمع المثالي وقال: أنت تعرف أن سمرقند وبخارى هما بأهمية دمشق وأصفهان وإسطنبول والقاهرة، إسلامياً. وأنت تعرف أن ابن سينا الطبيب والفارابي الفيلسوف والبيروني الفلكي والخوارزمي الرياضي ونظامي الشاعر والبخاري صاحب الصحيح من الأحاديث كلهم كانوا من عندنا، وكلهم جزء من الذاكرة الإسلامية التي يعج بها التاريخ، وإن انقطعت مرحلياً كما انقطع غيرها في المشرق العربي، عن تيارات الإسلام المتجاذبة.

ولن يكون من الصعب علينا كثيراً نفض الغبار السوفياتي المتراكم في عقد واحد من الزمن. صحيح أن هذه الدول والشعوب الإسلامية الآسيوية التي تملك تصورات مختلفة عن خلفيات الإسلام العربي في المشرق والمغرب، ستجد أن التهافت على كسب ودها على أشده بين مختلف التكتلات والنماذج الإسلامية في العالم اليوم. إلاّ أنها مصممة على اقتطاع جزء من الشرق الأوسط الجديد لنفسها، وعلى لعب دور أساسي فيه. إن في استعادة الذاكرة التاريخية المفقودة استعادة للدور.

عندما كنت قد قدّمت نفسي كصحافي من الشرق الأوسط، لم يكن مدير الثقافة والتراث في أوزبكستان وحده، فقد كان معه مجموعة من الكتّاب والمسرحيين والشعراء والفنانين، جاؤوا ليتناقشوا ويتحدثوا عن بلادهم مع زائر عربي. وكان قد سبق أن عرّفني مرافقي ومترجمي شوكت بأنني كاتب أعمل في حقلي الثقافة والنشر، عندما دعاهم إلى تلك الجلسة في بار حديقة فندق «أنتوريست» في سمرقند. وعلى الرغم من تواضع الفندق وفقر خدماته إلى أبعد الحدود، إلاّ أن الحلقة التي جمعتنا ذات مساء من أمسيات أيلول الخريفية الرائعة، كانت مغرية لأي صحافي بأن يعب

من الأسئلة ولا يشبع من الأجوبة. إلى درجة أن استهلاكنا لعدد غير قليل من زجاجات كونياك وفودكا «سمرقند» الشهيرة فاق عدد الجالسين.

□ □ □

ولم أشأ أن أقطع حبل تفكير محدثي طويلاً، حتى لا أفقد طرف الحديث الذي بدأه، قلت لجمع الحاضرين: ولكن متى تبدأ استعادة هذه الذاكرة؟

رفيق ناشاتوف، السكرتير الأول السابق للجنة المركزية للحزب الشيوعي في أوزبكستان ردّ قائلاً: ليس قبل أن تستكمل جمهوريات آسيا الوسطى استدارتها نحو جيرانها في العالم الإسلامي أولاً، وتهيىء نفسها لاستقطاب أي من الدول المحيطة بها. فهناك ثلاثة محاور إسلامية أساسية تتصارع فيما بينها علينا. إلى جانب عدد من المحاور الجانبية.

المحاور الأساسية هي:

□ **أولاً:** تركيا، ممثلة الإسلام السني المذهب، العلماني الاتجاه، الديموقراطي النزعة، المقبول أوروبياً وغربياً.

□ **ثانياً:** إيران، ممثلة الإسلام الشيعي المذهب، التوسعي النزعة، الثوري الاتجاه، المعادي للغرب بكل قيمه.

□ **ثالثاً:** السعودية، ممثلة الإسلام السني المذهب، الوهابي العقيدة والتفسير، المحافظ والمتزمت الاتجاه، غير الممثل للإسلام العربي الواسع، المقبول غربياً ما دام أتباعه في السلطة، وما دام يشكل منافساً لتوسع الإسلام الإيراني.

□ □ □

لنبدأ الحديث عن تركيا، فعلى المسرح الدولي هي الدولة المهيأة لأن تلعب دوراً إقليمياً في الجمهوريات الإسلامية التي كانت منتمية إلى الاتحاد السوفياتي السابق، ما عدا طاجكستان. فكل هذه الجمهوريات تتكلم لغة هي تركية الأصل والتركيب، وتنتمي عرقياً وتاريخياً، بشكل أو بآخر، إلى الثقافة التركية. طاجكستان وحدها تتكلم لغة فارسية الأصل والتركيب، على الرغم من أنها تمتلك أكثرية سنية. لذلك ترى هذه الجمهوريات ـ بما فيها طاجكستان ـ أن «النموذج التركي» هو الأقرب لأن يحتذى، لما يمثله من مزيج من إسلام ذي حداثة علمانية وتوجه غربي، المتطلع نحو أوروبا والطامح إلى أن ينضم مستقبلاً إلى الجماعة الأوروبية، والعضو العامل والفعّال في حلف الأطلسي من ثلث قرن، والمالك لمؤسسات دستورية ديموقراطية ذات طابع غربي. وكل واحد في أوزبكستان يعرف مدى قلق الغرب، (عبر زيارة عشرات الرسميين الغربيين من سياسيين واقتصاديين طوال العامين ١٩٩١ ـ ١٩٩٢) من أن تختار الجمهوريات الإسلامية نموذجاً غير النموذج التركي. فإلى جانب القربى التاريخية والصلات الثقافية والحضارية واللغوية التي لتركيا مع هذه البلدان، فإن الدول الأوروبية والولايات المتحدة تكادان تدفعان هذه الدول دفعاً إلى أحضان «النموذج التركي». وقد يكون هذا الخيار هو الثمن الذي يطلبه الغرب لقاء مساعداته وعلاقاته معنا، إلى درجة أن هذا الدفع الغربي الذي يصاحبه دائماً إنذار مبطن، ورّط كبير علماء طاجكستان، الشيعية التأثر والفارسية اللغة التي قطعت أشواطاً بعيدة في تطوير علاقاتها السياسية والاقتصادية والثقافية مع إيران، في الدعوة علناً خلال العام ١٩٩١، إلى تبني «النموذج التركي» كنموذج عام للنظام السياسي

المقبل لأنه في رأيه، أجدى للتطور الاجتماعي والسياسي في البلاد.

هذا الدافع الغربي أضفى على الدور التركي أهمية كبيرة، مما غيّر كلياً من موقع تركيا الأوروبي. فبعد سنوات من إدارة أوروبا الغربية ظهرها للمطلب التركي بالانضمام إلى السوق الأوروبية، بفرضها شروطاً تعجيزية، بدأت بروكسل، عاصمة المجموعة، تظهر مؤخراً ليونة وتفهماً للرغبة التركية في الانتماء رسمياً إلى أوروبا واعدة بتقديم موعد النظر في طلبها للانضمام إلى المجموعة. فالقلق الغربي الواضح من أن تقع جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية، بما فيها قزاخستان التي تملك أسلحة نووية، في معسكر المتطرفين الإسلاميين، وتحديداً إيران اليوم، وأفغانستان لاحقاً، قد دفع أوروبا الغربية والولايات المتحدة إلى دعم العملة التركية تحديداً، في محاولة لإدخالها سوق العملات العالمية، وبالتالي جعل «النموذج التركي» أكثر إغراءً لدول آسيا الوسطى الإسلامية.

ودعماً لدورها بدأت تركيا في ٢٧ نيسان ١٩٩١، ببث برامجها التليفزيونية إلى جمهوريات آسيا الوسطى الخمس، والذي تزامن مع بداية زيارة رئيس وزرائها سليمان ديميريل إلى هذه الجمهوريات. فالبرامج التليفزيونية الموجهة كلها باللغة التركية مع ترجمة لها باللغات المحلية، ظهرت مكتوبة على الشاشة بالحرف اللاتيني غير المستعمل في هذه الجمهوريات، للإيعاز باختيار الألف باء اللاتينية مستقبلاً للغاتها.

ووقّع رئيس الوزراء التركي خلال هذه الزيارة التي قام بها إلى الجمهوريات الخمس، اتفاقات اقتصادية لقروض تركية بلغ مجموعها مليار دولار أميركي، نصفها مع أوزبكستان وقرغيستان (أو قرغيزيا) اللتين عانى اقتصادهما من تدهور كبير العام الماضي،

فاق التدهور الاقتصادي في الجمهوريات الأخرى. بالإضافة إلى وعود بقروض وتسهيلات ائتمانية لاستيراد القمح والسكر التركيين. كل هذا على الرغم من اقتصاد تركيا المُتعَب. في الوقت نفسه أعاد ديميريل تنشيط دور بلاده في النزاع القائم بين أذربيجان وأرمينيا، وخاصة بعد فشل الوساطة الإيرانية في هذا الموضوع.

□ □ □

والتقط طرف الحديث دولت فودونازاروف، رئيس اتحاد السينمائيين السوفيات، وهو شاعر من طاجكستان ليتحدث عن الدور الإيراني، فقال:

دور إيران لا يبدو مغرياً كثيراً لسكان آسيا الوسطى الإسلامية، على الأقل في هذه المرحلة. فالتجمع الشيعي هو في أغلبه في طاجكستان وأذربيجان. وهو بحد ذاته يشكل أقلية داخل أكثرية معظمها سني المذهب. والإسلام الشيعي كما يمثله النظام الإيراني اليوم، وهو الإسلام الثوري المقاتل، لا يجد صدى كبيراً في نفوس مسلمي الاتحاد السوفياتي سابقاً. والسبب أن سبعين سنة من الماركسية قد «دجنت» حتى لا أقول قد «علمنت» أغلبهم، فهم لا يجدون فيه الحل لمشاكلهم. لذلك لجأت إيران إلى التعاطي في شأنين:

الأول شأن سياسي، وهو محاولة التوسط بين أذربيجان وأرمينيا حول حربهما على نغورني كراباخ، مما يعطيها حجماً إقليمياً مؤثراً. وهذا ما دفع، علي أكبر ولايتي وزير خارجية إيران إلى زيارة عواصم الجمهوريات الإسلامية الخمس في مطلع العام ١٩٩٢، طارحاً بلاده كمرجعية دينية وسياسية واقتصادية لهذه البلدان.

ولكن محاولة التوسط في النزاع الأذربيجاني ـ الأرمني قد مرت من غير نجاح، وخاصة بعد فشل اتفاق طهران الذي كان قد توصل إلى هدنة بين الفريقين.

أما **الثاني** فشأن ثقافي، وهو محاولة الضغط على هذه الدول لاختيار الحرف العربي المستعمل في الفارسية للغاتها. وهذا موضوع نزاع كبير بين هذه الجمهوريات تتجاذبه أطراف عديدة ـ ليس العرب من بينها ـ أهمها تركيا وإيران. والقرارات اللغوية المرتقبة لهذه الدول تلخص رمزياً موقفها السياسي. فقبل الثورة الروسية وقيام الاتحاد السوفياتي، كانت اللغات المتعددة لهذه البلدان تكتب كلها بالحرف العربي حتى جاء الحكم السوفياتي، ففرض الروس عليها استعمال الألف باء الروسية التي تعرف بـ «السيريليك»، ما عدا فترة قصيرة بين بداية الثورة البلشفية وتولي ستالين الحكم، حين كتبت بعض هذه البلدان لغاتها بالحرف اللاتيني. وظلت الألف باء الروسية مفروضة على لغات شعوب الاتحاد السوفياتي قاطبة.

□ □ □

والنزاع اللغوي يدور اليوم بين ثلاثة اتجاهات:

- **واحد** يدعو إلى الإبقاء على الألف باء الروسية (السيريليك)، بحجة أن استعمالها استمر أكثر من سبعين سنة، وهناك أجيال لا تعرف غيرها، وتغييرها يحتاج إلى وقت طويل مما يضعضع نظام التعليم في البلاد، إلى جانب ضرورة الحفاظ على استمرارية العلاقة مع روسيا، التي ما زال ارتباط هذه البلدان بها كبيراً، وسيستمر لزمن طويل قادم. وأكثر دعاة هذا الاتجاه هم الشيوعيون السابقون وخريجو المعاهد السوفياتية.
- **وثانٍ** يدعو إلى العودة إلى الألف باء العربية، لأنها هي الأصل

في تراثهم وحضارتهم الإسلاميين، فالعودة إلى الحرف العربي تعيد الصلة المقطوعة مع العالم الإسلامي، بقدر ما تعيد لهذه الشعوب هويتها الثقافية. وإيران تحديداً، ومعها باكستان، تدعم هذا الاتجاه وتعتبره انتصاراً سياسياً وإسلامياً لها في حال التوصل إليه. وأصحاب هذا الرأي هم من المسلمين المحافظين أو من المتطرفين الوطنيين أو من المؤيدين للسياسة الإيرانية بحكم انتمائهم المذهبي أو الجغرافي للمناطق المجاورة لإيران وأفغانستان.

- **ثالث** يدعو إلى تبني الألف باء اللاتينية، كما هي مستعملة في اللغة التركية اليوم، على اعتبار أن الحرف اللاتيني هو الحرف العالمي المقروء. وأصحاب هذا الرأي هم من المثقفين الغربيي الاتجاه، وأكثرهم ذو انتماء تركي، عرقياً وقبلياً. وأهمية هذا الاتجاه الذي تدعمه تركيا بكل قواها وتحرض عليه بكل الوسائل الإعلامية والسياسية التي تمكلها، أنه في رأي الكثيرين مدخل إلى «الحلم التركي» مستقبلاً، يعيد الصلة بين تركيا وجيرانها على حدودها الشرقية، في دولة علمانية ومجتمع مفتوح واقتصاد حر وديموقراطية ليبيرالية وتوجه غربي وحرف لاتيني.

وما زال الانقسام واضحاً حتى الآن في أي اتجاه من هذه الاتجاهات الثلاثة ستمضي الجمهوريات الخمس، فتركمانستان قد أعلنت اختيارها للحرف اللاتيني، من دون قرار رسمي ونهائي في هذا الموضوع. كذلك أعلنت طاجكستان اختيارها للحرف العربي، على أن يكون الانتقال إليه تدريجياً من الآن حتى العام ١٩٩٥. وتقول الأوساط الداعية إلى تبني الحرف العربي، أن ذلك لا يعني

تنامي النفوذ الإسلامي الأصولي. فالحرف العربي ـ الذي يسمونه فارسياً ـ كان دائماً في صلب الإرث التاريخي لطاجكستان، «فالشعب الذي لا يعرف ماضيه ـ على حد قول شدمون يسوبوف زعيم الحزب الديموقراطي المعارض ـ شعب ميؤوس منه». وما زالت الجمهوريات الأخرى تنتظر.

ولم يتمالك محدثي عن أن يختصر هذا الموضوع بقوله: إن الصراع على أي حرف تكتب به هذه الشعوب ما هو إلاّ صراع بين «الكمالية» و «الخمينية».

□ □ □

عند هذا المنعطف من الجلسة، تناول شاعر من بخارى، وخريج مدرسة «مير عرب» فيها، اسمه عبد القاسم هاشيموف المحور الإسلامي الثالث، وهو دور السعودية بين مسلمي آسيا الوسطى. قال:

المشكلة من وجهة نظرنا، أن السعودية تطمح أن تكون ممثلة للإسلام العربي لدينا، لولا أن مصر من ناحية، وسورية من ناحية أخرى، إلى جانب دول شمال أفريقيا الإسلامية البعيدة، تقول لنا، تلميحاً وتصريحاً، أن هذا الطموح ليس له ما يسوغه سوى المال الذي يمكن أن تنفقه المملكة في هذا المجال، والمساعدات الاقتصادية التي يمكن أن تقدمها إلى هذه الجمهوريات، والتي لا تستطيع هذه الدول المنافسة أن تباريها فيها. إلى جانب أن الإسلام السعودي، بوهابيته المتزمتة، لا يمكن أن يمثل الإسلام العربي بتياره السني ومدارسه الفقهية الأساسية: المالكية والحنفية والشافعية.

فبينما تقوم السعودية بصرف الأموال الطائلة في محاولة تركيز

مفهومها الوهابي المحافظ للإسلام، واقتطاع شيء من النفوذ السياسي مقابله في هذه البلدان، تحاول إيران من ناحيتها، بما تملكه من صلات جوار وثقافة ولغة مشتركة لا تملكها السعودية، وبمال أقل وحماسة أشد وتفان أكبر، أن تدعو إلى مفهومها الإسلامي، الراديكالي والثوري المعادي للغرب. ولعل من المؤسف أن سياسة السعودية الإسلامية في هذه الجمهوريات، قد سهّلت من مهمة إيران.

فالمسلمون المتعلمون في الجامعات السوفياتية، أغلبهم علمانيو الاتجاه، عصريو الفكر، وبالتالي معادون بالسليقة لنمط التفكير الإسلامي الإيراني، وهم يملكون الحصانة الكافية حيال المفهوم الأصولي للإسلام الذي تبشر به إيران بينما باقي المسلمين خريجي المدارس الإسلامية التقليدية، هم الأكثر تجاوباً وانفتاحاً والأقرب إلى التبشير الإسلامي لإيران. لذلك تجد أن السعودية، بتبشيرها بالمفهوم الوهابي المحافظ للإسلام، من دون تقديم أية حلول سياسية أو اقتصادية غير قادرة على استقطاب لا المثقفين أو المتعلمين من المسلمين، ولا الناس العاديين أصحاب العلم التقليدي، فهي توفر عن غير قصد، مجموعة «مدارس ابتدائية» في الإسلام، ينتقل منها المسلمون الجدد إلى «جامعات» التبشير الإيراني، فيتخرجون فيها أساتذة.

حتى على الصعيد العملي الاقتصادي، (وهو السلاح الذي يجب أن يكون الأمضى في يد السعودية لقدراتها المالية الضخمة) لم تقدم حتى الآن أي شيء يذكر على الإطلاق، ففي نيسان ١٩٩٢، قام رئيس أوزبكستان إسلام كريموف بزيارة إلى السعودية للبحث مع المسؤولين هناك في مساعدات لتطوير الصناعات النفطية في

أوزبكستان، وتحويل عدد من المشاريع الاقتصادية والتنموية. وعاد كريموف من زيارته إلى المملكة محمّلاً بمجموعة كبيرة من المصاحف!

بعد عودة الرئيس الأوزبكي من الرياض بفترة قصيرة، زارت مجموعة من رجال الأعمال السعوديين، من بينهم عدد من مدراء البنوك الإسلامية، طشقند، لدراسة إمكانيات الاستثمار الاقتصادي في البلاد. وفوجىء المسؤولون في أوزبكستان بأن السعوديين عرضوا عليهم تمويل بناء عدد من المساجد، شرط أن تعيّن السعودية أئمة هذه المساجد. ومع ترحيب الحكومة الأوزبكية ببناء مساجد جديدة فيها - وهي التي تملك أكبر عدد منها في كل آسيا الوسطى - إلاّ أنها اعتذرت عن قبول العرض السعودي، لأن بناء المساجد لا يدخل ضمن الأولويات الاقتصادية لديها، ولا حتى الأولويات الدينية أو السياسية أو الثقافية. وما كان اعتذار أوزبكستان، في الواقع، إلاّ تلافياً لتعيين أئمة سعوديين في مراكزها الدينية.

□ □ □

كان لا بد من أن تتطرق الجلسة إلى دور الجار الآخر والأساسي وغير الإسلامي، الذي لا بد أن يتجاذب دول آسيا الوسطى، والذي يحسب ألف حساب لنمو انتمائها الإسلامي إلى مرحلة قد تهدد استقرار أقاليمه. هذا الجار هو الصين. هنا تولى دفة الحديث عثمان جان صادقوف، وهو مسرحي من طشقند سبق أن زار الصين مع فرقة مسرحية من أوزبكستان وطاف يمثل في مدنها الكبرى لمدة تزيد على الثلاثة أشهر. قال:

الصراع على النفوذ في جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية ليس

محصوراً فقط في دول الجوار الإسلامية، فهناك دور اقتصادي وسياسي هام جداً للصين يجب ألا يغيب عن بال أي مراقب، لا بد من أن تلعبه نتيجة لسقوط الاتحاد السوفياتي وانهياره، فالتفكك السوفياتي يقلق بكين ويشكل خطراً على كيانها، لأنه أثبت أن من الممكن لنظام أمبريالي شيوعي مهما كبر أو عظم أن ينهار، إذا تناوبت عليه ضغوط الشعوب التي يتألف منها والمطالبة بحرية تقرير مصيرها السياسي والاقتصادي، فالذي حدث في الجمهوريات الآسيوية السوفياتية السابقة له دلالاته الخطرة على مقاطعة تسينيانغ الصينية المجاورة والتي تتداخل فيها مجموعات إثنية كالأوزبك والطاجيك والقوزاق، وغيرها، والتي تجد في تحرر هذه الجمهوريات من الاتحاد السوفياتي سابقة مشجعة ومثالاً يحتذى. فبكين ـ أو بيجينغ كما يسمونها هناك ـ تخشى أن يصبح المواطنون المسلمون في جمهورية الصين الشعبية الاشتراكية، قنوات، بل أدوات، لنفوذ تركيا أو إيران أو حتى باكستان في هذه المقاطعة الصينية.

لذلك في محاولة لدرء هذا الخطر، تحركت الصين في اتجاه آسيا الوسطى والشرق الأوسط، معتمدة سياسة نشطة، فقد اعترفت بالجمهوريات الإسلامية السوفياتية السابقة، ودعت إلى تعزيز العلاقات الاقتصادية معها، ونشطت من جديد علاقاتها الاقتصادية والعسكرية مع إيران وباكستان، واتخذت مواقف حيادية، وفي أحيان كثيرة مخالفة لسياسة دول مجلس الأمن الخمس، ومؤيدة لبلدان الشرق الأوسط العربية، وخاصة منذ حرب الخليج إلى اليوم. ولكن الاتجاه السائد حتى الآن، أن الصين لا تريد أن تقحم نفسها في تنافس شديد مع غيرها من الدول في آسيا الوسطى السوفياتية،

بقدر ما تريد أن تثبت حضورها، منعاً لوصول أي تيار انفصالي أو إسلامي إلى مقاطعة تسينيانغ أو وقوع مسلمي الصين تحت تأثيره.

□ □ □

توقف محدثي المسرحي الطشقندي، وهو يصب آخر ما في زجاجة الكونياك في كأسه ليقول لي: ولا تنسَ أيها الصحافي العربي القادم من الشرق الأوسط أن إسرائيل بدأت تبدي اهتماماً بنا. صحيح أن عدداً قليلاً من رجال الأعمال الإسرائيليين زارونا في السنتين الماضيتين (١٩٩١ ـ ١٩٩٢) في محاولة للإيحاء بأن ليس هناك ما نخافه من دولتهم، إنما بدأوا بالتلميح إلى عروض للمساعدة في تجهيز وتدريب قواتنا المسلحة الوطنية، إلى جانب تقديم العديد من الخبرات في حقول الزراعة والصناعات الخفيفة المتفرعة عنها.

ولما رأى صادقوف أنني أبديت اهتماماً غير عادي بالموضوع الإسرائيلي، ابتسم بخبث، وأضاف:

هل تعرف أن سفير إسرائيل في موسكو أريل ليفين كان جالساً على المقعد الذي أنت جالس عليه، وفي هذا الفندق بالذات قبل حوالى خمسة أشهر، يفرك يديه بفرح بعد توقيعه أول اتفاق ديبلوماسي مع أوزبكستان، وهي أول دولة من دول آسيا الوسطى السوفياتية السابقة التي توقع اتفاقاً كهذا؟ وهل تعرف ماذا كان يقول السفير الإسرائيلي لنا ولغيرنا؟ كان يقول إن انهيار الاتحاد السوفياتي قد ترك دولنا في فضاء جيو ـ سياسي: هل هي جزء من أوروبا، ومن حقها أن ترث تركة الاتحاد السوفياتي؟ هل هي مجموعة ناس هم «مواطنو شرف» في الدولة «الطورانية ـ التركية» الكبرى، وامتداد للجسر بين أوروبا وآسيا؟ أم هي جزء من الشرق الأوسط تعود إليه بعد نفي طويل؟

نحن الأوزبكيين ـ وغيرنا من مسلمي آسيا الوسطى ـ لا نعرف جواباً عن هذه الأسئلة حتى الآن. بعضنا يعتقد بصحة المقولة الأخيرة كما ذكر لك زميلي في بداية الحديث. ولا تقع تحت تأثير ظنون أن لإسرائيل تأثيراً علينا. كل ما تريده إسرائيل من علاقتها معنا أن لا نكون ضدها. فليس هناك من تقاطع طرق بين أوزبكستان وإسرائيل حتى الآن. لكنني أعرف أن أكثر ما يشد عواطفنا هو إحساسنا بأننا جزء من العالم الإسلامي الممتد من تركيا إلى بنغلاديش. بينما تدفعنا مصالحنا إلى الادعاء بأننا أوروبيون لأن الغرب يريد أن نكون شركاء معه، ونحن نريد استثماراته.

أما أنتم العرب فلا تعرفون كيف تنافسون إسرائيل إلاّ في تمويل رحلات الحج السنوية إلى مكة، التي تدفعها عادة السعودية وليبيا. وقد انضمت إيران إلى هذه القافلة مؤخراً. إننا لم نعد في حاجة إلى هذا النوع من المساعدات. إئتوا برؤوس أموالكم وتعالوا، وسنفتح لكم مساجدنا ومدارسنا وقلوبنا.

□ □ □

ولما كنت مستمعاً، ولم أكن معلقاً، وكان ليل سمرقند قد أصبح بارداً وسمار الحلقة قد بدأوا ينفضّون، ودعت رفاق السهرة إلى ليل يوم آخر.



الاستقلال
والهوية الإسلامية



٢

القطن والذهب والنفط

وكان صباح يوم آخر، حملت فيه سؤالاً بسيطاً ظل يشغل بالي طوال فترة وجودي في أوزبكستان: ما الفارق بين بدايات العام ١٩٩١، يوم كان الاتحاد السوفياتي على شفا الانهيار، من دون أن تواجه جمهورياته خيار الانفصال أو البقاء، وبين الأول من كانون الثاني ١٩٩٢، يوم أعلن رسمياً حلّ الاتحاد السوفياتي، فواجهت هذه الجمهوريات خيار الانفصال عنوة، تحت راية الاستقلال وبحدود رسمها ستالين قبل حوالى سبعين سنة؟ هل كانت ترغب جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية في أن تستقل فعلاً عن الاتحاد السوفياتي؟

حملت سؤالي البسيط هذا وأنا أتنقل من طشقند العاصمة إلى سمرقند إلى بخارى، في حلقات مجموعة من المثقفين، من كتّاب ومسرحيين وشعراء ومترجمين، أكثرهم حزبيون سابقون وحاليون معاً. سابقون في حزب كان اسمه الحزب الشيوعي، وحاليون في حزب اسمه الحزب الديموقراطي، هو الحزب القديم نفسه مع تغيير فقط في الاسم واليافطة التي استبدلت على المبنى نفسه الذي ما

زال يديره الأشخاص أنفسهم بالأدوات نفسها والقوانين عينها مع تعديلات طفيفة في الشكل فقط، وليس في المضمون.

يكاد الجواب يكون واحداً. فلأسباب عدة، يصعب حصرها ووسط فوضى فكرية وسياسية عارمة، أهمها أن الزعماء الشيوعيين المحليين القابضين على زمام الحكم في كل من الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى، لاعتمادهم الاقتصادي الكبير على دعم الاتحاد السوفياتي، لم تظهر هذه الجمهوريات أية حماسة لفكرة الاستقلال عن موسكو، حتى أن رئيس جمهورية قزاخستان، نصر سلطان نزاربايف، كان الحليف الأول لميخائيل غورباتشوف الذي يعتمد عليه، في محاولة منه لوقف انهيار الاتحاد السوفياتي ومنع تفككه. لكن مع سقوط الاتحاد السوفياتي نهائياً، وجدت جمهوريات آسيا الوسطى ـ ربما للمرة الأولى في التاريخ ـ أن الاستقلال يُعطى ولا يؤخذ. يُعطى للذين لا يطالبون به ولا يريدونه ولا يعرفون التصرف فيه. وبحل الاتحاد السوفياتي رسمياً في مطلع العام ١٩٩٢، سطع فجر كاذب في هذه الجمهوريات الآسيوية الخمس معلناً بدء مرحلة ما بعد الاستعمار، ومتيحاً فرصاً لا سابق لها، حبلى دائماً بالمفاجآت.

أما الجواب الفوري فكان أن هذه الجمهوريات لا تستطيع أن تذهب بعيداً، ووحدها، في المنظور القريب، لأنها ما زالت مرتبطة عضوياً ومتداخلة في بنية الاقتصاد السوفياتي إلى حد كبير، فالتبادل التجاري وحده مع مجموعة بلدان الاتحاد السوفياتي السابق ما زال أكبر حجماً من التبادل التجاري مع أية دولة خارجية أخرى. والبنك المركزي في موسكو، ما زال هو الذي يتحكم في السياسة النقدية لهذه البلدان حتى اليوم. فهو الذي يمنح القروض

ويفتح الاعتمادات المصرفية بالعملة الصعبة، ويؤمن التسهيلات المالية. وبالتالي هو القيّم الحقيقي على الوضع الاقتصادي لكل جمهورية. ولا يُصرف روبل واحد من غير إذنه. بالإضافة إلى أن هذه الجمهوريات ما زالت تبحث عن صيغة سياسية بديلة من الحكم، غير الصيغة الشيوعية والحزب الواحد اللذين ورثتهما عن الثورة البلشفية والاستعمار السوفياتي. والصيغة السياسية التي يجدي البحث عنها، لا بد من أن تكون مرتبطة بالنظام الاقتصادي الذي سيجري العمل به، بحيث سيكون منسجماً مع اقتصاديات السوق الحرة حسب مواصفات النظام العالمي الجديد. هذه المواصفات التي لا بد من الالتزام بها إذا أرادت هذه الجمهوريات أن تنفتح على العالم وتستقطب الاستثمارات العالمية الجديدة.

□ □ □

لذلك ليس هناك من يفترض بأن هذه الجمهوريات ـ وهي الأكثر تخلفاً اقتصادياً بين كل جمهوريات الاتحاد السوفاتي السابق ـ قادرة (أو تريد حتى الإسراع) على التخلي عن النظام الاقتصادي الذي ورثته عن موسكو. لذلك، انضمت مرغمة جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية كافة إلى «كومنولث الدول المستقلة» الوريث الشرعي للاتحاد السوفياتي القديم، على الرغم من تحفظ معظمها على الطريقة السرية والسريعة التي تمّ فيها قيام هذا الترتيب، واستهجانها لمدلولاته البعيدة، حيث إنه، في المفهوم الحقيقي له، ما هو في النهاية إلاّ تجمع للشعوب السلافية.

وعلى الرغم من أهمية استمرارية هذه العلاقة، فإن هذه الجمهوريات هي اليوم على مفترق طرق أساسي. أولاً أنها لا بد أن

تتخلص تدريجياً من إرث الاستعمارين الروسي والسوفياتي. وستكون تباشير ملامح هذا التخلص إعادة الهوية الإسلامية إلى البلاد والتمسّك بالتراث الديني الإسلامي الذي لم تتركه هذه الجمهوريات أصلاً، وكان على مدار أكثر من قرن - بدءاً بالاستعمار الروسي ونهاية بالاستعمار السوفياتي - مصدر توتر بين شعوب هذه الجمهوريات وحكّامها في موسكو. ثانياً، أن هذا الاتجاه لن يقفز بها إلى تبني الأصولية الإسلامية على الطريقة الإيرانية، كنظام للحكم. فالأفكار في هذا الموضوع ما زالت فجّة تنتظر وقت النضج، وخاصة أن استدارة هذه البلدان نحو العالم الإسلامي المجاور لها لم تكتمل بعد.

ولتطويق هذا الإغراء، دعيت هذه الجمهوريات المستقلة حديثاً، في كانون الثاني ١٩٩٢ إلى الانضمام إلى مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبي، كما عرض عليها حلف الأطلسي (الناتو) الانضمام إلى عضوية مجلس التعاون التابع له. وهو مجلس كان قد أسس حديثاً كصلة وصل بين دول حلف الأطلسي والدول الشيوعية السابقة، لكن الخطوة الأولى التي اتخذت لدعم استقلالها وتطويره نحو الاقتصاد الحر، كانت قبولها في عضوية صندوق النقد الدولي. كل هذا جعل جمهوريات آسيا الوسطى السوفياتية السابقة، وهي في وضع اقتصادي صعب، متفكك وضاغط، تتجه الاتجاه الغربي، وبالتالي لا خيار لها إلاّ «النموذج التركي». فلا أوهام لدى المثقفين والسياسيين في هذه الجمهوريات، من أن الغرب وحده هو القادر على تقديم التمويل اللازم والتكنولوجيا المطلوبة لعملية بناء اقتصادي وتطوير اجتماعي لبناء دولة ما بعد الشيوعية. في الوقت نفسه تبقي ارتباطها الاقتصادي مع روسيا ودول الكومنولث، لأن

روسيا نفسها ستبقى على الأقل اقتصادياً ضمن دائرة النفوذ الغربي. وبالتالي لا تناقض بين الاتجاهين.

لعله من قبيل التبسيط الشديد، تفسير تطور جمهوريات آسيا الوسطى السوفياتية السابقة، على أساس صراع بين الإسلام الأصولي والإسلام العلماني، فتطور ما بعد الشيوعية الحاصل في هذه البلدان الحديثة الاستقلال، هو نتيجة أوضاع سياسية واقتصادية محلية محددة، متوارثة عن أيام الاتحاد السوفياتي. من هنا يجب النظر إلى المعطيات الخارجية على أنها العامل المساعد وليست **العامل المباشر**، فعودة الروح إلى الإسلام في هذه الجمهوريات، ليست إلاّ من قبيل إعادة التوازن الطبيعي، في بلدان قُمع فيها الدين وحورب الإسلام لقرون خلت. وبالتالي هي ردة فعل وطنية طبيعية وليست تحريضاً من الخارج.

لذلك فالاتجاه السائد على صعيد التطور السياسي المحلي، هو أن يتم انتقال السلطة في هذه الجمهوريات إلى نخبة جديدة غير مدموغة ـ أو مدموغة قليلاً ـ بالحكم الشيوعي السابق وغير متورطة في التعاون مع النظام السوفياتي في موسكو، وخاصة بين الفترة البريجنيفية والفترة الغورباتشوفية. ولا شك في أنه سيكون للصحوة الإسلامية دور في هذا الاتجاه، ولكنه لن يكون الدور الوحيد، فدور النخبة العلمانية المتأثرة بالاتجاهات الغربية سيكون كبيراً، وبالتالي فإن المرحلة الانتقالية من الشيوعية إلى البعث الإسلامي، ستبقى مرحلة صراع سياسي صحي ستكون وسيلته الأساليب الديموقراطية، التي بسببها لن تكون الغلبة فيه، في النهاية، لأي اتجاه معادٍ للغرب.

□ □ □

مع بداية ظهور جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية على المسرح السياسي، لم يكن هناك ضغوطات تذكر من الاتحاد السوفياتي تدفع هذه الجمهوريات إلى الاستقلال، على الرغم من أن أربع جمهوريات ـ أوزبكستان، قرقيزستان، طاجكستان، وتركمانستان ـ كانت قد أعلنت استقلالها قبل حل الاتحاد السوفياتي. وظهرت على المسرح العالمي في أواخر العام ١٩٩١. فخلال المناقشات بين العامين ١٩٩١ و١٩٩٢ حول تركيبة الاتحاد السوفاتي المستقبلية، حاول زعماء آسيا الوسطى دفع الموضوع في اتجاه قيام كونفيديرالية تسمح لكل من أعضائها بأكبر قدر من السيطرة على اقتصادها ومصادرها الطبيعية وتطورها الثقافي ونموها الاجتماعي، بينما تبقى السلطة المركزية هي المسؤولة عن التنسيق بين الأعضاء. ولأن اقتصاد هذه الجمهوريات كان متداخلاً إلى أقصى الحدود مع باقي بلدان الاتحاد السوفياتي ويعتمد على دعم موسكو ومساعدتها الدائمين، فقد كان زعماء آسيا الوسطى مقتنعين بأن جمهورياتهم لا يمكن أن تقوم وحدها.

أما الرجل الذي لعب دوراً أساسياً في هذه المناقشات، فقد كان نصر سلطان نزارباييف رئيس جمهورية قزاخستان، الذي كان يدعو إلى سيادة كبيرة لكل من هذه الجمهوريات، مع الإبقاء على سلطة مركزية قوية داخل الكونفيديرالية المقترحة، تستطيع التنسيق وتملك قوة فرض الاتفاقات. وكان شعاره «مركز قوي، جمهوريات قوية». لكن كل هذا تغيّر بعد الأول من آب ١٩٩١، حيث فشل الانقلاب الذي قام به المعارضون لسياسة غورباتشوف. فقد شعر زعماء هذه الجمهوريات، ما عدا نزارباييف، أن الاستقلال الرسمي التام لجمهورياتهم هو الأفضل،

لأنه يعطيهم حرية التحرك في وجه قيام كيان الاتحاد الروسي الكبير. حتى إن بعض المحافظين التقليديين منهم، أقروا علناً أن الاستقلال التام يعطيهم فرصة وإمكانية الحدّ من الموجة الليبيرالية والأفكار الديموقراطية القادمة من روسيا.

وعندما اجتمع رؤساء روسيا وأوكرانيا وبلاروسيا في كانون الأول ١٩٩١، لإقامة الاتحاد الروسي، كان السؤال الذي واجه رؤساء جمهوريات آسيا الوسطى، هو: هل ننضم إلى اتحاد هذه الدول السلافية؟ أم نقيم اتحاداً منفصلاً لدول آسيا الوسطى؟

وكانت الخطوة الأولى نحو إقامة اتحاد لدول آسيا الوسطى، قد اتخذت في اجتماع لرؤساء الجمهوريات الخمس في حزيران ١٩٩٠، وفي آب ١٩٩١، من دون أية نتيجة تذكر، ولكن عند اجتماع رؤساء هذه الجمهوريات الخمس في عشق آباد، عاصمة تركمانستان في كانون الأول ١٩٩١، لتقرير انضمامهم إلى الاتحاد السلافي، قرروا الاستقلال والعودة إلى إحياء مجلس استشاري كانوا قد قرروا قيامه في آب ١٩٩١ لتنسيق السياسة الاقتصادية بينهم، من دون أن يكون لهذا المجلس أي دور يذكر حتى الآن.

هنا رأت أوزبكستان نفسها أنها الزعيمة الطبيعية لأي تكتل لدول آسيا الوسطى، فهي تملك أكبر عدد من السكان، وتعتبر نفسها الوريث الطبيعي لدولة تركستان التي كانت قائمة قبل الثورة البلشفية. ولم يخفِ الرئيس الأوزبكي إسلام كريموف طموحاته في مؤتمر صحافي عقده في شباط ١٩٩٢، بقوله إنه إذا جمعت دول آسيا الوسطى إمكاناتها الغنية يمكن أن تصبح قوة إقليمية يحسب حسابها. غير أن هذا الكلام لم يلقَ قبولاً تاماً من باقي

الجمهوريات الآسيوية، مما جعلها تتردد حتى الآن في تنسيق سياساتها الخارجية. ولم تجدِ أي محاولة منذ الاستقلال في هذا الصدد.

لكن محاولات التعاون الإقليمي استمرت بين الجمهوريات الآسيوية الخمس، وكان أهمها في ٢٢ و٢٣ نيسان ١٩٩٢، في بشكيك عاصمة قرغيزستان، حيث وضعت اتفاقات حول الحدود غير المتفق عليها، ولتأسيس صندوق استثمار إقليمي. غير أنه تمّ تأجيل توقيع أي اتفاق يؤسس سياسة للتعاون الاقتصادي. مما دفع رئيس قزاخستان إلى القول إن غياب التعاون الإقليمي قد بدأ يضعف الكومنولث. لكن هذا لم يمنع نزارباييف من أن يظهر أكثر تعطشاً إلى وأد الكومنولث عندما رفض في أيار ١٩٩٢ توقيع اتفاق دفاع مشترك في قمة طشقند، التي حضرها أعضاء الكومنولث كلهم، ووقعت أربع جمهوريات آسيوية من أصل خمس، الاتفاق الذي كانت قزاخستان الوحيدة الخارجة فيه على الإجماع. مع ذلك لم يجمع هذا الاتفاق أمر الكومنولث على سياسة دفاعية أو غير دفاعية واحدة، وظلت الجمهوريات الإسلامية تخطو كل منها في طريقها الخاص.

□ □ □

ومع فقدان بريق الاستقلال وازدياد صعوباته، تمت محاولة ثانية في بشكيك في الأسبوع الأول من تشرين الأول ١٩٩٢، بشكل قمة لوزراء خارجية «كومنولث الدول المستقلة»، سعى المشاركون فيها لإحياء عظام التعاون (وهي رميم) بين دول الاتحاد السوفياتي السابق. ففي هذه القمة اقترحت روسيا اتفاقاً لتعاون اقتصادي أوثق. واقترحت قزاخستان اتحاداً نقدياً وسياسة مالية مشتركة.

وطالبت أوزبكستان بضمانة روسيا لحدودها الخارجية. وكرر الرئيس القزاخستاني نزاربابيف دعوته إلى مزيد من التكامل الاقتصادي والسياسي بين هذه الجمهوريات، معتبراً الكومنولث وسيلة «للطلاق الحضاري» من الاتحاد السوفياتي السابق، لا منبراً للانتقام التاريخي والروابط غير المتكافئة بين دوله.

وقد ساد اعتقاد بين هذه الجمهوريات، أن الاتحاد السوفياتي القديم قد دفن على عجل وفي لحظة غضب من الانقلابيين الشيوعيين في صيف ١٩٩١. لذلك لقي اقتراح الشيوعي القديم نزاربابيف، إقامة مجلس اقتصادي مشترك بين روسيا والجمهوريات الأخرى، والاحتفاظ بالروبل كعملة واحدة للجميع، هوىً في النفوس، بعد أن وهن إغراء الاستقلال كما تصورته هذه الجمهوريات. بالإضافة إلى مجلس برلماني للتعاون. ويؤكد نزاربابيف أنه لا يحاول بعث الاتحاد السوفياتي بمقترحاته، بقدر ما يحاول اللحاق بمحاولات أوروبا الغربية وسوقها المشتركة في عصر لا يحتمل التشرذم.

أما روسيا فترى في هذه المقترحات محور التفاف حولها من جديد. كما ترى في محاولة التقارب معها، مناسبة تساعدها على الحد من العصبيات القومية داخلها. كما ترى جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية فيها، فرصة لتعزز سدودها الداخلية في وجه تنامي الزحف الأصولي الإسلامي.

وكان رئيس جمهورية تركمانستان سبار مراد نيازوف قد نظّم اجتماع قمة في ٩ و١٠ أيار ١٩٩٢، التي حضرها رؤساء جمهوريات آسيا الوسطى كلها ما عدا طاجكستان، مع سليمان ديميريل رئيس وزراء تركيا وعلي أكبر رفسنجاني رئيس جمهورية إيران ونواز شريف رئيس وزراء باكستان للبحث في تنسيق

المشاريع الاقتصادية للمساعدة في حل مشاكل المنطقة الإقليمية المشتركة. ولم تسفر هذه القمة التي هي الأولى من نوعها، إلاّ عن اتفاق لبناء خط أنابيب غاز من تركمانستان إلى غرب أوروبا، يمر بالأراضي الإيرانية والتركية. وتشكيل لجان تنسيق للتخطيط لبناء طرق برية وخطوط سكك حديد، بما في ذلك سكة حديد تربط بين الصين وتركيا. إلاّ أن الأهم من ذلك أن هذه القمة بمجرد انعقادها وحضور دول الجوار الثلاث قد أسفرت عن التأكيد على أن هذه الدول هي صاحبة المصالح الشرعية في آسيا الوسطى، وصاحبة القرار أيضاً. وليس بينها دولة عربية واحدة، فالغياب العربي كان كاملاً.

إلاّ أن أوزبكستان، ما زالت إلى اليوم في قبضة الحزب الشيوعي السابق، بأجهزته وقياداته وعناصره. كل ما حصل أن الرئيس الأوزبكي إسلام كريموف، وجد فرصته السانحة يوم المحاولة الانقلابية في موسكو في الأول من آب ١٩٩١، وأعلن انفصال الحزب الشيوعي الأوزبكي عن الحزب الشيوعي السوفياتي. وكانت الخطوة الأولى نحو الاستقلال الذي أعلن فيما بعد. والرئيس كريموف لا يتردد في أن يعلن في كل مناسبة رسمية تتاح له، أن الحزب الشيوعي هو المؤسسة السياسية الوحيدة التي تملك الخبرة لإدارة البلاد وضمان الاستقرار. لذلك كان كل ما فعله هو أنه في تشرين الأول ١٩٩١ أعلن تغيير اسم الحزب إلى «حزب الشعب الديموقراطي لأوزبكستان»، وأعلن انضمامه إلى الحزب «الجديد»، ومعه انضم الكادر القديم، وأنزلت اليافطة «الشيوعية» عن مبنى الحزب ومكاتبه وارتفعت يافطة «الديموقراطية». واكتسب كريموف سمعة الرجل المحافظ من الحرس القديم الرافض للتغيير

السياسي داخل أوزبكستان والمماطل في تطوير مؤسساتها نحو الديموقراطية. وأكثر ما يروج لهذه السمعة هي صحافة موسكو الموالية لبوريس يلتسين. وقد أكسبته هذه السمعة عطف المثقفين الأوزبكيين من أصحاب الاتجاه الديموقراطي والذين لا يلتقون معه عادة في أغلب الطروحات السياسية، والسبب أن كلاً من كريموف والأنتلجنسيا الأوزبكية مستاء كثيراً من عقدة العظمة التي يمارسها عليهما اليوم العديد من «الليبيراليين الروس» الجدد والتي كان قد مارسها بالأمس الماركسيون القدامى، في دعوتهما الملحة إلى ممارسة «الفضيلة الديموقراطية». ولا يكتم هؤلاء المثقفون غيظهم من تعالي الروس عليهم في موضوع التطوير السياسي تحديداً، ولم يخفِ الرئيس كريموف امتعاضه علناً في أكثر من خطاب من موقف المبشرين السياسيين من الليبيراليين الروس.

لذلك يحض كريموف اليوم على فكرة تشكيل جيش وطني خاص بأوزبكستان، ليتخلص في أسرع وقت من وجود القوات الروسية (السوفياتية) في بلاده، إذ يعتقد أنه سيكون استمرار بقائها على الأراضي الأوزبكية عاملاً معوقاً للإصلاحات السياسية على طريقته. كما أن المعارضين لحكمه ـ من إسلاميين وديموقراطيين ـ سيستغلون وجودها إما للتحريض عليه، أو لاستقطابها ضده.

□ □ □

صحيح أن كريموف لم يظهر حتى الآن حماسة واضحة لتغيير سياسي في العمق، لكن الغضب الذي تشعر به أوزبكستان من موسكو، يمكن إعادة أصوله إلى «حادثة القطن» العام ١٩٨٤، والسنين التي تلتها، حيث أرسل مكتب المدعي العام السوفياتي في موسكو مجموعة من المحققين إلى أوزبكستان معتقلاً عدداً كبيراً

من الموظفين والإداريين في حينه بتهمة الفساد في زراعة القطن وصناعته. وقد أغضب هذا العمل مجمل الأوزبكيين، بمختلف اتجاهاتهم وولاءاتهم السياسية، لاختيار موسكو في عهد بريجنيف، وهو العهد الذي كان مشهوراً بفساده، أوزبكستان دون باقي الجمهوريات السوفياتية، لإقامة تحقيق في الفساد، في محاولة تغطية صفقات فاسدة في أماكن أخرى أبطالها من العهد البريجنيفي، والتي كشفت كلها فيما بعد. وحولت «حادثة القطن» مجمل مسيرة العلاقة بين طشقند وموسكو. وبدأ الأوزبكيون يعيدون النظر في علاقاتهم مع السلطة في الاتحاد السوفياتي منذ قيامه قبل سبعين سنة وإلى اليوم. وللمرة الأولى بالمقاييس الشيوعية، سمحت السلطات الأوزبكية لصحافتها بتوجيه النقد إلى موسكو لفرضها «ثقافة المنتوج الواحد» ـ القطن ـ الذي خرّب البيئة في البلاد وجعل اقتصادها يعتمد اعتماداً كلياً على القطن الذي تزرعه أوزبكستان وتبيعه إلى الاتحاد السوفياتي. وتفاعلت «حادثة القطن» سنوات طويلة مسممة العلاقة بين الأطراف والعاصمة. لذلك التقى الشيوعيون والديموقراطيون من دون أدنى خلاف بينهما، في الترحيب بالانفصال عن موسكو، يوم جاءت فرصة إعلان الاستقلال.

وكان قد بلغ من شبق موسكو إلى زراعة القطن، كما قال لي أحد الصحافيين في طشقند: «أننا صرنا نزرعه حتى حدود أبوابنا وعلى شرفات منازلنا». كل ذلك على حساب المنتوجات الزراعية الأخرى كالحبوب والفاكهة والخضار. إلى درجة نقص فيها إنتاج الألبان والزبدة، بقدر ما نقص عدد الأبقار والماشية. وكأن لم يعد هناك ما يؤكل في أوزبكستان سوى القطن. ووصل جنون القطن

لدى السوفيات، أنهم حولوا خمسين بالمائة من مياه بحر الأورال على حدود أوزبكستان الشمالية (وهو رابع أكبر بحيرة في العالم، إذ حولوا مياه نهرَي آمو ـ داريا وسير ـ داريا اللذين يصبّان فيها) إلى ري زراعة القطن. مما أسفر عن وقوع كارثتين:

الأولى: إن تدفق مياه الري قد وصل إلى حدود آثار مدينتي سمرقند وبخارى المجاورة للأراضي الزراعية فيهما، بحيث هدد ويهدّد حتى الآن أسس هذه الأبنية التاريخية بالتداعي السريع.

والثانية: إنه بتحويل مجربي النهرين عن هذه البحيرة الكبيرة، لم يعد يصل إليها من مياه إلاّ ما هو ملوث بالمواد الكيماوية، إلى درجة أن ٣٠ ألف كيلومتر مربع من أرض البحيرة كلها مزروعة بالكيماويات، مما يشكل كارثة صحية للمحيط المجاور لهذا البحر العظيم، وأزمة بيئية لا أحد يعرف حداً لها حتى الآن.

ولما كان القطن هو الزراعة الأساسية في أوزبكستان، فقد أعلنت في نهاية العام ١٩٩١، بأنها لن تبيعه إلى روسيا إلاّ بالعملة الصعبة، وهي التي تعتمد بالدرجة الأولى على تصديره إلى الاتحاد السوفياتي، ولما رفضت موسكو، واجهت أوزبكستان مشكلة إلى مَن تبيعه. إلى أن وقّعت في آذار ١٩٩٢ معاهدة صداقة مع روسيا. وكان أهم ما في هذه المعاهدة أنها سوّت موضوع القطن الشائك تاريخياً مع موسكو. فقد رفعت أوزبكستان السعر الذي تتقاضاه ثمناً لقطنها من روسيا، إلى مستوى السعر العالمي للقطن، مع غيره من المواد الزراعية، بعد أن كانت تبيعه للاتحاد السوفياتي من قبل بسعر يكاد كون تشجيعياً ولا علاقة له ببورصة القطن العالمية. لكن هذا الاتفاق هدد مصانع النسيج الضخمة في «إيفانوفو» في روسيا، التي تصنع القطن الأوزبكي بشكل رئيسي، بالتوقف. لذلك عمد

البلدان إلى اتفاق مقايضة، تعطي فيه روسيا النفط لأوزبكستان مقابل القطن، إنما بالسعر العالمي للمنتوجين.

□ □ □

وعلى الرغم من أن الشيوعيين ما زالوا يمسكون بزمام السلطة، إلاّ أن أوزبكستان استطاعت أن تكوّن خلال فترة زمنية قصيرة، حركة معارضة كبيرة باسم «برليك» (أي الوحدة) أو «جبهة الأوزبك الشعبية» التي تدعي أن عضويتها تصل إلى الملايين. و «برليك» تدعو إلى الاستقلال الوطني، وأسلوب الديموقراطية الغربية، والعودة إلى التراث الوطني الأوزبكي بقيمه وثقافته الإسلاميتين. إلاّ أنها لا تؤيد قيام دولة إسلامية أو نظام إسلامي. غير أن الرئيس إسلام كريموف، ومعه الحرس الشيوعي القديم، ينظر بشيء من الريبة والشك إلى «برليك» منذ تأسيسها. لذلك سمح لها أن تسجل وتعمل كحركة سياسية لا كحزب سياسي. ولكونها حركة وليست حزباً، لم تستطع أن تتقدم بترشيح شخص معارض لكريموف في انتخابات الرئاسة المباشرة التي تمّت في كانون الأول ١٩٩١. لكنها تبقى الأهم في حركات المعارضة وتكتلاتها في أوزبكستان اليوم.

بيد أن كريموف سمح بتسجيل حزب معارض هو «أرك» (أي الإرادة) الذي يرأسه الشاعر والسياسي المعروف والنائب في البرلمان محمد صالح، الذي نافس كريموف في انتخابات الرئاسة من دون نجاح. وتقول مصادر حيادية إن تعداد أعضاء حزب «أرك» يصل إلى حدود خمسة آلاف شخص، أكثرهم من المثقفين الديموقراطيين والكتّاب وصغار موظفي الدولة. وبرنامجه السياسي شبيه جداً ببرنامج «برليك»، ولكنه أكثر توجهاً نحو الغرب، وأكثر أعضائه

من سكان المدن ونفوذه محصور في الطبقة المتوسطة المتعلمة. وهذا ما يفسر أن محمد صالح لم ينل أكثر من ١٢ بالمئة من الأصوات في انتخابات الرئاسة. بينما تجد أن قواعد «برليك» أوسع انتشاراً في أوساط الريف الأكثر شعبية وفي المدينة معاً، لدعوتها إلى القومية الأوزبكية وأصولها الإسلامية.

ومحمد صالح من الدعاة إلى الحرف اللاتيني، الذي يقول عنه إنه عامل توحيد لكل الشعوب التركية في المنطقة، بالإضافة إلى أنه أصبح حرفاً دولياً. إلاّ أن هذا لم يمنعه من أن يعلّم أولاده القرآن. ولكنه ضد الأحزاب الدينية، وقد صوّت في البرلمان الأوزبكي ضد قرار السماح للأحزاب الدينية بالعمل في السياسة.

هناك حزب آخر مرخّص له في أوزبكستان هو «حزب النهضة الإسلامي»، الذي هو في الأساس فرع لحزب تأسس في الاتحاد الروسي العام ١٩٩٠، لحماية مصالح المسلمين في أنحاء الاتحاد السوفياتي كافة. وقد قُبِلَ هذا الحزب في حينه كجزء من محاولات التغيير الديموقراطي داخل «الاتحاد الروسي»، إلاّ أنه منع من تأسيس فرع له في أوزبكستان تحت ستار أن قانون حرية الأديان المعمول به، يمنع قيام أحزاب على أساس الولاء الديني. لكن السبب الأساسي لمنعه يعود في الحقيقة إلى خوف الشيوعيين الأوزبكيين من قيام حزب إسلامي يشكّل منافسة قوية لهم وتهديداً لسلطتهم.

ولعل من أهم التطورات التي سيكون لها تأثير كبير على حرية العمل السياسي وحركته، هو القانون الذي أصدره الرئيس كريموف في أواخر نيسان ١٩٩٢ المتعلق بالصحافة ووسائل الإعلام. والذي خصص بموجبه ١٠٠ مليون روبل من موازنة الدولة، تمنح

كمساعدات وقروض للصحافة والإذاعات ومحطات التلفزيون وغيرها من وسائل الإعلام، مع إعفاء من الضرائب، وتسهيلات بالعملة الصعبة، وتخفيض في إيجار العقارات لتتمكن وسائل الإعلام من شراء معدات حديثة وتطور نفسها لتماشي متطلبات التقنية الإعلامية الحديثة، فتواكب العصر، بعد قرن من التخلف في هذا المضمار.

□ □ □

لكن في المظهر، وعلى المدى الطويل، يبدو الوضع الاقتصادي في أوزبكستان مريحاً بل مشجعاً. ولعل أهم حدث في حياة أوزبكستان الاقتصادية وقع في آذار ١٩٩٢ عندما تمّ اكتشاف حقل نفط أساسي في موقع اسمه مينبولاق في وادي فرغانة. وقد دلّت الدراسات المبدئية المعلنة، أن الحقل النفطي المكتشف هو من الضخامة بحيث يكفل كامل احتياجات أوزبكستان من الطاقة، ويسمح لها بالتصدير لتمويل عمليات التصنيع في البلاد. وقد وقع حريق كبير في هذا الحقل عند اكتشافه، مما استدعى استقدام خبراء من الولايات المتحدة لإطفائه.

لكن يبقى الذهب هو العماد الأساسي لمستقبل أوزبكستان الاقتصادي. فقد تحكمت للمرة الأولى في تاريخها بذهبها وأصدرت أولى السبائك الممهورة باسمها وختمها. ويقدر أن أوزبكستان تنتج حالياً ثلث مجموع إنتاج الذهب في الاتحاد السوفياتي السابق. وترفض الحكومة حتى الآن أن تعطي أي أرقام لإنتاج الذهب في أراضيها. إلاّ أنه منذ الاستقلال بدأت أوزبكستان في توضيح مشاريعها الاقتصادية التي تتجه في مجملها إلى جعل صناعة تعدين الذهب القاعدة الأساسية لنهضتها

الاقتصادية المقبلة. ومن الواضح أن الذهب هو أهم مصادر الثروة الاقتصادية في البلاد والذي يتمتع بميزة سهولة تصديره إلى الخارج، وهو أمر كبير الأهمية وشديد الحساسية نتيجة لسوء البنية التحتية لطرق المواصلات في البلاد وتخلف وسائل النقل في كافة بلدان الاتحاد السوفياتي السابق.

وقد تمّ مؤخراً اكتشاف مناجم جديدة للذهب، يعتقد الخبراء الأوزبكيون أنه إذا أحسن التنقيب عنه واستخراجه بوسائل التقنية الحديثة، يمكن لأوزبكستان أن تصبح واحدة من أكبر مصدري الذهب في العالم. وقد بدىء البحث عن شركاء غربيين للدخول في عمليات التنقيب. ففي آذار ١٩٩٢، تمّ توقيع اتفاق مع شركة تعدين أميركية «نيومونت ماينينغ كوربورايشن»، وقدّرت الشركة أنها ستنتج بعد عام من توقيع الاتفاق عشرة أطنان من الذهب. أما قوانين الاستثمارات الأجنبية التي صدرت مؤخراً فقد قدمت إغراءات كثيرة للمستثمر الأجنبي، أهمها الإعفاء من الضريبة لمدة سنتين، وحرية تحويل العملة الصعبة من البلاد وإليها.

□ □ □

وإذا بأوزبكستان التي تملك هذه الثروة الكبيرة المؤلفة من الذهب الأبيض والذهب الأصفر والذهب الأسود لا تملك حلاً لمشاكلها الاقتصادية الصعبة. والعالم إذا كان يستطيع الانتظار ليحدّد أي لون من ألوان الذهب يريد أن يشتري وبأي شروط أو أسعار، فإن أوزبكستان لا تستطيع أن تنتظر. وهنا يكمن المأزق.



الخوف
من الديموقراطية



٣

طلاق وزواج وغزل

عندما وصلت إلى سمرقند في أيلول ١٩٩٢، كانت التأشيرة الأوزبكية تخولني البقاء لمدة أسبوعين فقط. وكان عليَّ أن أزور خلال هذين الأسبوعين أربعة بلدان هي: سمرقند ـ حيث أمضيت الوقت الأطول ـ وبخارى وخيوا وطشقند العاصمة. وكانت رغبتي أن أسافر بعد ذلك من طشقند إلى دوشنبيه مباشرة، لزيارة طاجكستان. ولنقص فادح في المعلومات، قالت لي السفارة الروسية في لندن، أن سفري ممكن من هناك وأن لا مشكلة في التأشيرة.

ولما بدأت مساعيّ لترتيب زيارة طاجكستان، اكتشفت أمرين في غاية الأهمية.

الأول: إنه في الوقت الذي كنت فيه في سمرقند، سقط نظام رحمن نبييف الشيوعي في طاجكستان بعد أن أطاحت به «ثورة إسلامية» معينة وهرب على أثرها إلى شمالي البلاد. ولأن الإسلاميين الجدد لم يستلموا السلطة بعد، لم يكن هناك سلطة تمنح تأشيرة دخول لصحافي عربي قادم من الطرف الآخر من العالم.

والثاني: إن العلاقات بين أوزبكستان وطاجكستان سيئة للغاية، وإن أوزبكستان قد أغلقت الحدود بينها وبين جارتها لمنع تدفق اللاجئين إلى أراضيها، وإنها تدعم جماعة نبييف ضد الإسلاميين، وتستقبل عدداً كبيراً من الهاربين منهم داخل حدودها. وليس في العاصمة طشقند تمثيل قنصلي للانقلابيين الجدد.

عندها أسقط في يدي، واتضح لي أن إمكانية السفر إلى طاجكستان أصبحت معدومة، ولم يبقَ من تأشيرتي الأوزبكية إلاّ يومان، فسعيت للوصول إلى بعض السياسيين الطاجكيين المتواجدين - من مهجَّرين ومهاجرين ولاجئين - في مدن أوزبكستان المختلفة، لعلني أكوّن صورة ما عن الوضع في تلك الجمهورية التي تعصف بها حرب أهلية خطيرة، يخاف النظام في طشقند أن تندلق عليه، وهو أصلاً ليس طرفاً محايداً فيها.

واستطاع الزملاء الأوزبكيون، ترتيب لقاء لي مع عدد من الأنتلجنسيا الطاجكية التي صدف أنها عادت تواً من سمرقند بعد أن حضرت الاحتفال بجائزة العمارة الإسلامية التي تنظمها مؤسسة الآغا خان للثقافة في جنيف، في بلد إسلامي كل ثلاث سنوات مرة، وتمنحها لعدد من مشاريع العمارة في العالم الإسلامي التي تؤدي غرضاً اجتماعياً ما، أو تحافظ على أثر إسلامي هام أو ترممه.

وهكذا كان. واتسعت الحلقة لتضم في سهرة واحدة كلاًّ من: أصيل الدين صبحينوف (من الديموقراطيين) وأصلان عارفوف (من الإسلاميين) وأحمد يوسوبوف (من الشيوعيين السابقين) وأكبر ترودجان (من الأصوليين) ونور علي موربانوف (من اتحاد الكتّاب)

إلى جانب مجموعة من المثقفين الأوزبكيين الذين سبق أن شاركوا في جلسات سابقة، وكانوا نِعْم الرفيق لصحافي عربي في رحلة لا تنسى.

واستهللت الحديث بإعلان جهلي المطبق بكل ما يجري في طاجكستان، مبدياً رغبتي في أن نبدأ الرواية من أولها. وكانت قد امتدت أمامنا مائدة أوزبكية شهية، شبيهة إلى حد كبير بالمائدة اللبنانية، لما فيها من خضار وأجبان وشواء وفاكهة، إلى جانب المشروبات السمرقندية الشهيرة. ويبدو لي أن الجميع كانوا تلك الليلة في حاجة إلى شيء يبل الريق، ويملأ المعدة، فقد تجاهل الجميع محاولتي للدخول في الموضوع مباشرة. وشطح الكلام بنا إلى الحديث عن الشعر (لا أحد يعرف شيئاً عن الشعر العربي قديمه وجديده، بينما يعرفون الكثير عن الشعر الفارسي من الخيام إلى حافظ إلى الشيرازي، وعن الشعر التركي ويؤلهون ناظم حكمت) والرواية (لم يسمع أحد بنجيب محفوظ) والأدب عامة (سمعوا بطه حسين كأزهري متمرد ولم يقرأوا له). إلى أن أطيح بنصف المائدة، فافتتح أصلان عارفوف الكلام.

□ □ □

تبدأ أحداث طاجكستان بالتظاهرات التي استمرت شهرين ونظّمتها أحزاب المعارضة في العاصمة دوشنبيه، وقّع على أثرها رئيس الجمهورية رحمن نبييف في ١١ أيار ١٩٩٢، اتفاقاً يقضي بتشكيل حكومة ائتلافية يتولى زعماء المعارضة ثلث مقاعدها، بما في ذلك وزارتا الدفاع والداخلية، لقاء احتفاظ نبييف بمنصب رئاسة الجمهورية. وقد تمّ ذلك على الرغم من أن مطلب المعارضين الأساسي كان استقالة نبييف. واستمرت التظاهرات، دون انقطاع

من ٢٨ آذار إلى ١١ أيار ١٩٩٢، مما أدى إلى شلل الحيا الاقتصادية كلياً في العاصمة الطاجكية. كذلك تمّ الاتفاق على استمرار المجلس التشريعي حتى الانتخابات في كانون الأول ١٩٩٢. وكانت أحزاب المعارضة قد طالبت أيضاً بإلغاء مجلس السوفيات الأعلى الشيوعي الحاكم في طاجكستان.

وكان رأي أكثر المراقبين أن الاتفاق الذي تمّ التوصل إليه، سيؤدي إلى تحويل طاجكستان إلى دولة إسلامية، نظراً إلى دور مؤيدي حزب النهضة الإسلامي البارز والفعّال في تظاهرات دوشنبيه. هكذا نجد أن واقع الأمر، أبقى الأمور السياسية والاقتصادية بمجملها في أيدي الحزب الشيوعي الحاكم.

ورفضت قيادة كل من مقاطعة كولياب في جنوب طاجكستان ومقاطعة لينين آباد في الشمال والمجاورة لأوزبكستان اتفاق دوشنبيه الائتلافي، وهددتا بالانفصال عن الدولة. فلينين آباد، التي هي منطقة نبييف والتي تقطنها أكثرية كبيرة من الأوزبكيين، بدأت تدعو للانضمام إلى أوزبكستان. وهي الدعوة التي بدأت تهدد بحرب أهلية في طاجكستان، والتي كان يسعى كل زعماء الأحزاب المعارضة في العاصمة، إلى تفاديها.

وكان الاتفاق بين الحكومة الطاجكية والأحزاب المعارضة يشمل مخططاً لنزع سلاح الميليشيات غير المرخص به، والذي يعني تحديداً الحرس الوطني الذي شكله نبييف لقمع التظاهرات المعادية له ولحكومته في دوشنبيه. ورفض الحرس الوطني، الذي أعلن نبييف حله بعد أسابيع قليلة من تشكيله، تسليم سلاحه. وبالمقابل رفضت ميليشيات المعارضة تسليم سلاحها ما دامت القوى الموالية

للحكومة تملك سلاحاً. وكان موعد تنفيذ هذا الاتفاق ٢٠ أيار ١٩٩٢. إلاّ أنه لم ينفذ، لأن الحكومة ظلت مترددة في تطبيقه خوفاً من استقواء المعارضة عليها.

في هذا الوقت كانت حكومة نجيب الله الشيوعية في كابول قد سقطت، مما شجّع رجال المعارضة على التسلل عبر الحدود المجاورة إلى أفغانستان طلباً للسلاح من الجماعات والأحزاب الإسلامية التي استولت على الحكم هناك، وأهمها الحزب الإسلامي الأفغاني بزعامة قلب الدين حكمتيار، الذي زوّد المعارضين الطاجيك بكميات كبيرة من السلاح والعتاد. وعلى الرغم من ذلك، ظل حزب النهضة الإسلامي، أكبر أحزاب المعارضة وأهمها في طاجكستان، يعلن تأييده رسمياً وإلى اليوم، لدولة علمانية، لا دولة إسلامية، داعماً قوله بأن مطالب المعارضة في المشاركة في الحكم كان سابقاً على انتصار المجاهدين في أفغانستان.

كذلك انضمت إلى المعارضة مجموعة من الطاجيك الأفغان، من أصحاب الخبرة في الحرب الأفغانية ضد القوات السوفياتية. والطاجيك في أفغانستان يشكلون مجموعة إثنية كبيرة، ترى في الحرب الأهلية في طاجكستان فرصة لها للخروج على سلطة الباتان في كابول، التي لم يرتاحوا إليها قط. إلاّ أنهم فضلوا في الماضي أن يبقوا تحت سيطرة الباتان على أن يصبحوا تحت سيطرة موسكو. أما اليوم، وقد انهار الاتحاد السوفياتي وجلت قواته عن أفغانستان، فإنهم يرون في الفوضى السياسية والعسكرية في أفغانستان ـ ونظام الحكم فيها لم يتضح بعد ـ فرصة لإعادة تشكيل وحدة الشعب الطاجيكي في بلد جديد يقتطع أراضي من كل من طاجكستان وأفغانستان، مما قد يؤدي إلى تفكيك بلد متعدد القوميات

(طاجكستان) وينهي كياناً سياسياً (أفغانستان) قائماً منذ القرن الثامن عشر. وهنا تكمن الخطورة.

□ □ □

وفي السابع من أيلول ١٩٩٢، استطاعت المعارضة الإسلامية ـ الديموقراطية المشتركة، وبسهولة كبيرة، الإطاحة بالرئيس الشيوعي رحمن نبييف، الذي يعود عهده إلى أيام بريجنيف، بعد أن حاصرته في مطار دوشنبيه سامحة له بالفرار إلى مقاطعة لينين آباد في شمالي البلد. وكان غورباتشوف قد أقصاه في عهده، إلاّ أنه سرعان ما عاد إلى السلطة بعد سقوط الزعيم السوفياتي. وخلت دوشنبيه من أي حرس جمهوري أو جيش وطني أو حتى حكومة. واندلعت في طاجكستان الحرب الأهلية المستمرة فصولاً.

وأقحم الروس في هذه الحرب من حيث يدرون أو لا يدرون، باتهام «الحكومة الإسلامية الوطنية» التي استولت على السلطة في العاصمة، القوات الروسية الموجودة في البلاد، بدعم «الثوار» المؤيدين لنبييف، وإعلان الحرب على الإسلاميين، مطالبة بانسحابهم وداعية المواطنين الطاجيكيين إلى الانضمام إلى الجيش الوطني. ولا أحد ينكر في أوزبكستان أن الروس معادون لأي شيء مسلم، وأنهم يساعدون جماعة نبييف لأنهم «اشتراكيون يرفعون العلم السوفياتي الأحمر فوق المواقع والمدن التي يحتلونها». والكل يقر أن القتال الذي دار حول ثكنات القوات الروسية في دوشنبيه، يعود في الدرجة الأولى إلى تعاطف الروس مع «الثوار» ضد «الاتحاد الإسلامي الديموقراطي» المعارض، الذي أرغم نبييف على الفرار بعد رفضه أن يتقاسم السلطة معهم. وفي الواقع أن الروس أقحموا أيضاً عندما هجمت ميليشيات

المعارضة على الثكنات للاستيلاء على السلاح، على دبابات ومدافع مضادة للدروع وذخيرة وسواها. وهنا ضاعت أهداف المعارضة بعد أن اختلفت بينها هل تسرق السلاح أم تسرق الحكم.

وزاد من فوضى الدور الروسي في الحرب الطاجكية إعلان الرئيس الروسي بوريس يلتسين أنه سيسحب القوات الروسية من مواقع القتال. بينما سيرسل قوات إضافية لتغطية انسحابها. وهذا ما حصل، عندما أرسل في الأسبوع الأخير من أيلول ١٩٩٢ قوة إضافية مؤلفة من ٨٠٠ مظلي لحماية قوات تبلغ ١٠ آلاف عسكري. وكانت حجة يلتسين أن إرسال القوات الروسية هو لحماية المواطنين الروس المقيمين في طاجكستان والذين يبلغون عشرة بالمائة من السكان. وفي الواقع أن عدداً كبيراً من الطاجيك يفضلون القوات الروسية، على تشكيل جيش وطني لا أحد يعرف من أي عناصر سيتكون، وإلى أي ولاء ينتمي. لكن هذا لم يمنع من أن يبرق أكبر شاه إسكندروف، القائم بأعمال رئيس الجمهورية، إلى يلتسين بعد أن احتل مظليوه مطار دوشنبيه، وإلى رؤساء «كومنولث الدول المستقلة» مطالباً بالتدخل لوقف الحرب، معلناً عجزه وعجز حكومته عن حسم القتال، منبهاً أن استمرار الحرب يعني امتدادها إلى بلدان أخرى مجاورة.

ومع تصعيد الحرب الأهلية في طاجكستان، واضطرابات دوشنبيه الأصلية، بدأ السكان الروس بالنزوح من البلاد، مما هدّد الخدمات الصحية والتعليمية بالتوقف كلياً بالإضافة إلى الصناعات والأعمال الحكومية ذات الطابع الإداري أو التقني. والروس هم الممسكون بزمام هذه الأعمال. وهم يمثلون النخب التقنية والاقتصادية والعسكرية، إلى جانب نفوذهم السياسي. وأسباب النزوح الروسي

من طاجكستان إلى أنحاء أخرى من بلدان الاتحاد السوفياتي القديم، تعود إلى خوف الروس من تصاعد موجة الأحزاب الأصولية الإسلامية، الرافضة للنفوذ الأجنبي الروسي. وقد التقت الحكومة والمعارضة معاً، حين التقى وفد مشترك من الطرفين في أيار ١٩٩٢، ممثلين عن الجالية الروسية لتطمينها وإقناعها بالبقاء في البلاد. لكن كما يبدو فإن التطمينات التي أعطيت لم تكن كافية.

□ □ □

ومع استمرار الحرب الأهلية، التي أسفرت عن ألفي قتيل حتى الآن، والتورط الروسي فيها، لم يجد محدثي الآخر أصيل الدين صبحينوف وصفاً لها إلاّ قوله: «إن طاجكستان كزوجة مهجورة تبحث عن زوج جديد». فالزوج الروسي القديم هجرها، من دون أن يتركها لمصيرها، والزوج الإيراني الجديد، لم يعرف حتى الآن كيف يستنبط طريقة لطلب يدها، بينما هي مشتتة العواطف بين القبول به أو رفضه. وهناك في الزاوية يقف الطامح التركي إلى الزواج، ينتظر هرب الزوج الروسي وفشل الزوج الإيراني، عارضاً كل التسهيلات لفرار الأول. وكل المغريات للتخلي عن الثاني. وبطبيعة الحال ليس هناك زوج عربي ليُرى ولو على بعد آلاف الأميال.

وقد رسخت الحرب الأهلية هذه، صعوبة سيطرة الإسلاميين على الحكم. وكما قال لي أصيل الدين صبحينوف: «من الأسهل أن تحول أميركا إلى دولة شيوعية، من أن تخلق جمهورية إسلامية في طاجكستان». في الوقت نفسه تركت هذه الحرب فراغاً في البلاد، لا أحد في العالم يملك القدرة ـ ولو أراد ـ أن يمنع إيران من ملئه بالطريقة التي تريدها. فالنظام الاجتماعي في طاجكستان ما زال نظاماً إقطاعياً. في الماضي اعتاد الناس أن يطيعوا أوامر الزعيم

الإقطاعي المحلي، بعد ذلك رئيس المزرعة التعاونية، بعد ذلك، سكرتير الحزب الشيوعي. والآن يطيعون الرجل الذي يحمل السلاح. وفي المستقبل سيطيعون إيران، وخاصة إذا حملت العصا والجزرة معاً.

عند هذا المنعطف من الحديث تدخل أحمد يوسوبوف، ليضع الصورة التي رسمت حتى الآن، في إطارها السياسي الصحيح. قال:

على عكس أوزبكستان، التي غيّرت اسم الحزب الشيوعي فيها، إلى الحزب الديموقراطي، تراجعت طاجكستان عن قرار مماثل، وأعادت في كانون الثاني ١٩٩٢، اسم الحزب الشيوعي بعد أن ألغته مسوغة العودة إلى الاسم القديم بأنه حزب جديد بدستور جديد، وبالتالي لا يشمله قانون حل الأحزاب القديمة الصادر بعد المحاولة الانقلابية الفاشلة في موسكو في آب ١٩٩١. واللافت للنظر في الأمر، أن هذا الحزب القديم ـ الجديد ربح انتخابات تشرين الثاني ١٩٩١، بلعب الورقة المعادية للإسلام. وكان نجاح الحزب الشيوعي في طاجكستان في الانتخابات مؤشراً ضد صعود الموجة الإسلامية في آسيا الوسطى، التي حاولت ملء فراغ انهيار الاتحاد السوفياتي. وظلت طاجكستان الجمهورية الإسلامية الوحيدة في آسيا الوسطى، التي يحكمها حزب شيوعي رسمي، على الرغم من أنها أقوى موقع للأصوليين الإسلاميين بحكم لغتها الفارسية وعلاقاتها التاريخية مع إيران وحدودها المشتركة مع أفغانستان.

ويعود النجاح المرحلي للحزب الشيوعي في طاجكستان، إلى استغلال مخاوف بورجوازيي المدن من متطرفي حزب النهضة الإسلامي، متهمين الديموقراطيين المعادين للشيوعية منهم، بأنهم أداة في يد الإسلاميين. ومأزق هؤلاء الديموقراطيين أنهم من دعاة تبني

الحرف العربي/ الفارسي، وتعزيز الصلة التاريخية مع إيران، والذين يقولون في أدبياتهم السياسية أن «قدرهم مرتبط بها إذا أعجب أميركا وأوزبكستان أو لم يعجبهما». لكن كون الطاجيك من السُّنة يجعل علاقاتهم مع النظام الديني في إيران صعبة وحرجة. فهم ليسوا طلاب وحدة مع إيران، إنما طلاب علاقات وثيقة. لذلك فهم يرفضون الحرف اللاتيني الذي يقولون أنه سيقودهم إلى كونفيدرالية مع تركيا سيخسرون فيها شخصيتهم المميزة وخاصة أن لهم تاريخاً مريراً من المذابح على يد الأتراك. وهم يفضلون لو أن النظام الإيراني ما زال نظام الشاه أو شبيهاً به، لكنهم يعترفون بأنهم لا يمكن أن يعيشوا في عزلة عن إيران، ولو كان سجل حقوق الإنسان فيها، سجلاً يحتاج إلى تحسين كبير.

□ □ □

وعلى الرغم من الجبهة المعادية للشيوعيين (المؤلفة من تحالف حزب النهضة الإسلامي والحزب الديموقراطي الطاجيكي) فقد ربحوا ٤٢ بالمائة من الأصوات في انتخابات اتهمت بالتزوير، إلاّ أن الديموقراطيين منهم لا يطعنون في نتائجها. فهم يخشون أن يسيطر الأصوليون الإسلاميون على مفاصل الحياة السياسية في البلاد، كما حدث في الجزائر ومصر وإيران الشاه، قبل الثورة الإسلامية، بعد ٢٥ سنة من بداية التحديث والتغريب. فمن الشعارات التي يرددونها أنهم لا يريدون أن يعودوا إلى عصر الحجاب.

في المقابل يعترف الإسلاميون، أن الوقت لم يحِنْ بعد حتى تخترق الفكرة الإسلامية روح الشعب، على الرغم من انهيار الشيوعية كفكرة يوتوبية وفشلها الذريع على امتداد سبعة عقود. لكنهم يعتقدون أن الوقت لصالحهم، على الرغم من أن الناس غير مهيّئين

بعد لتطبيق قوانين الشريعة الإسلامية. وهم يريدون تفادي تكرار التجربة الجزائرية في بلادهم، حيث تفوز الجبهة الإسلامية في انتخابات ديموقراطية، ثم يأتي ديكتاتور ما ويقمعها. ولا يعتقدون أن الفراغ الناتج عن سقوط الفكر الشيوعي أو الماركسي، يُملأ بالانفتاح الاقتصادي كما حدث في مصر السادات بالأمس أو بتبني اقتصاد السوق الحر كما تمارسه روسيا يلتسين اليوم. فلا بد أن يكون الإسلام ـ في رأيهم ـ هو الحل. وهم يؤمنون أن الزمان لصالحهم، وأنهم وحدهم يملكون مفاتيح الحلول لمشاكل بلادهم الاقتصادية والاجتماعية والروحية والسياسية.

كل هذه «الثقة بالنفس» لم تحُل دون بقاء الإسلاميين، على مختلف تنظيماتهم، خارج السلطة في جمهوريات آسيا الوسطى السوفياتية، كما لم تحُل دون بقاء الشيوعيين القدامى، بملابس جديدة، في السلطة، وفي الحكم. وفي اعتقاد الكثيرين أن جمهوريات آسيا الوسطى، ستبقى ولزمن طويل قادم، تحكم بواسطة الأجهزة القديمة التي كانت تحكمها بالنيابة عن موسكو، مهما غُلّف نظام الحكم الجديد بالديموقراطية أو الانتخابات. وأحد أهم أسباب ذلك، عدم وجود أنتلجنسيا سياسية بديلة من خريجي مدرسة الحكم الماركسية ـ السوفياتية، ولعدم وجود تقاليد في تاريخ البلاد، إلاّ لحكم الفرد أو العشيرة.

وقاطع نور علي موربانوف زميله، ليلفت النظر إلى أنه نتيجة للحرب الأهلية الدائرة في طاجكستان منذ مطلع شهر أيلول ١٩٩٢، إنقسمت البلاد، إلى أربع مقاطعات (كانتونات): الرئيس المخلوع رحمن نبييف في مقاطعة لينين آباد الغنية في الشمال، حيث ما زال يدعي شرعية السلطة. مقاطعة بامير الفقيرة شرقاً، حيث

بدأت نواة دولة إسماعيلية تتشكل. في الجنوب ما زالت الحرب دائرة بين الشيوعيين السابقين الموالين لروسيا وبين أنصار الحلف الإسلامي ـ الديموقراطي. إلى الغرب، حيث خطوط التماس، يعنف القتال بين مجموعة من الإسلاميين الأصوليين وعصابات المافيا القديمة التي نشطت مع بدايات الحرب الأفغانية ويقودها مجرم شهير اسمه سنجق، قضى في السجن ٢٣ سنة، ولم يفرج عنه إلاّ في حزيران ١٩٩٢. وهذه العصابات تزرع الأفيون وتهربه. ومع هؤلاء وأولئك شراذم من قبائل مختلفة تتحالف يوماً مع فريق وتحارب يوماً ثانياً مع فريق آخر. وعلى الرغم من ضآلة أعداد المتقاتلين، فقد استطاعوا تهجير حوالى مائة ألف لاجىء إلى مقاطعة كُليب وحدها، مما دفع نور علي موربانوف إلى أن يؤكد أن كلاً من هذه الأطراف سيخسر هذه الحرب، لأنها في نهاية المطاف ما هي إلاّ حرب بين أشخاص متعطشين إلى السلطة فقط.

□ □ □

ولما لفتت نظري حكاية الدولة الإسماعيلية، تطوع أكبر ترودجان أن يشرح لي خلفيتها، فقال:

من مخلفات التقسيمات الإدارية للاتحاد السوفياتي، أن فيه ثماني مناطق مستقلة ذاتياً وعشر دوائر قومية، كما جاء في نص الدستور السوفياتي الصادر في ٧ تشرين الأول ١٩٧٧. من بينها واحدة في طاجكستان هي جمهورية غورنو ـ بدخشن المستقلة ذاتياً. والاستقلال الذاتي يقتصر على استخدام السكان لغتهم القومية في الإدارة والتعليم، إلى جانب الروسية طبعاً.

وتقع غورنو ـ بدخشن في منطقة حوض بامير، التي أعطيت الاستقلال الذاتي العام ١٩٢٥، وعاصمتها خوروغ، ويقطنها

الطاجيك الأصليون، مع مجموعات عرقية عديدة تتكلم لغات فارسية الأصل، تختلف كثيراً عن اللغة الطاجيكية، التي هي أقرب إلى الفارسية المتداولة في إيران اليوم. وأغلب شعوب بامير هم إسماعيليون من المذهب النزاري من أتباع الآغا خان، الذي هداهم إليه الشاعر الإسماعيلي ناصر خسرو (١٠٠٤ ـ ١٠٧٤) في القرن الحادي عشر. وهم يختلفون عن أكثرية الطاجيك السُّنة، ولا يندمجون في مجتمعاتهم، ويسمون «الطاجيك الجبليين»، وعددهم غير معروف بالضبط، إلاّ أنه يقدر بحوالى مائة ألف نسمة. ولم يكن للإسماعيليين بنية دينية إدارية معترف بها في التنظيمات السوفياتية التي أنشأها ستالين وتوارثها خلفاؤه من بعده داخل الاتحاد السوفياتي.

وكان ستالين، أثناء الحرب العالمية الثانية، قد منح الإسلام الرسمي إدارة خاصة، لتُبقي الإسلام والمسلمين، تحت الرقابة المشددة من جانب الحكومة السوفياتية. وكانت هذه الإدارة تعنى بالمسلمين السُّنة والشيعة الاثني عشرية فقط. وكانت العلاقة بين المؤسسة الدينية الإسلامية وبين الحكومة السوفياتية تتأمن عن طريق مجلس الشؤون الدينية الإسلامية لدى مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي.

ولأن مقاطعة غورنو ـ بدخشن هي الأفقر والأكثر تخلفاً في كل طاجكستان، وتشكل مجموعة إثنية ودينية مختلفة، أخذت تطالب منذ استقلال الجمهوريات الإسلامية عن الاتحاد السوفياتي، باهتمام أكبر ومساعدات اقتصادية أكثر من العاصمة دوشنبيه. ولما لم يستجب نظام رحمن نبييف الشيوعي لمطالب البامير، دعا نواب المقاطعة في ١١ نيسان ١٩٩٢، إلى إعلان الاستقلال من طرف واحد. وكان سكان خوروغ العاصمة قد بدأوا بإعلان العصيان

المدني والتظاهر منذ كانون الأول ١٩٩١، مطالبين بتغيير الوضع الإداري ورفع التمثيل السياسي بين منطقتهم والعاصمة المركزية. ولما تجاهل مجلس السوفيات الأعلى لطاجكستان في اجتماعاته المتعددة هذه الدعوة، صعّد الأهالي تظاهراتهم إلى حرب أهلية. ويبدو أنه من الصعب وخاصة في ظل تدهور اقتصادي في عموم الجمهورية، أن تحقق غورنو ـ بدخشن من خلالها أياً من مطالبها. غير أن هذا لم يمنع أن هناك أصواتاً داخل خوروغ، بدأت ترتفع داعية إلى قيام دولة إسماعيلية في الشرق من طاجكستان، هي الأولى منذ قيام الدولة الفاطمية، تكون النواة لدولة أكبر تلتحم مستقبلاً مع إسماعيليي حوض البامير الجنوبي في أفغانستان، الذين قويت شوكتهم في الحرب الأفغانية وأصبحوا يشكلون ثقلاً سياسياً وعسكرياً في التركيبة الأفغانية الحالية، التي تحكم كابول اليوم.

□ □ □

وخَفَتَ الحديث. وشعرت بأن الرحلة الذهبية إلى ذلك العالم القديم، البعيد والمنسي قد شارفت على نهايتها. وعندما قدم لي رفاق السهرة زجاجة كونياك من البورسلان على شكل جامع ذي قبة فيروزية ومئذنة زرقاء، على طراز آثار سمرقند الكثيرة، هدية للذكرى والتاريخ، تذكرت وأنا أودعهم شاكراً، مقولة الروائي الإنكليزي الشهير د .هـ. لورانس مؤلف رواية «عشيق الليدي تشترلي»: ثق دائماً بالراوي، لا بالرواية». وكانت ثقتي برواة تلك الأمسية كبيرة. أو هكذا أردت أن أعتقد.

إسلام
الزخرفة والعلم


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤

تيمورلنك الأسطورة والشعر

في يوم من أيام شهر أيلول ١٩٩٢، تذكرت فجأة زميلي السابق في «النهار» الروائي أمين معلوف، عندما حطّت بي الطائرة الأوزبكية في مطار سمرقند قادمة من إسطنبول، ولم تكن الطائرة بالفعل سوى طائرة سوفياتية من طراز «أنطونوف» ما زال شعار الاتحاد السوفياتي مرسوماً على جوانبها، واسم «أيروفلوت» مكتوباً على أجنحتها.

خطر في بالي أمين معلوف وأنا أطأ أرض مطار المدينة، لأنني كنت على شبه يقين بأن الأبطال الذين سأسعى إلى لقائهم في هذا البلد السحري، لا علاقة لهم بأبطال روايته «سمرقند» وبالتالي فإن التنافس سيكون على أشده بين معارفي ومعارفه. فأبطالي قائمون في حقيقة التاريخ، وأبطاله وهميون حتى في هامش التاريخ، لكن ما العمل إذا كان أبطاله أكثر شهرة من أبطالي؟

هو روائي، وأنا صحافي.

لذلك شعرت بشيء من خيبة الأمل، عندما لم أجد في استقبالي لا

أمين معلوف مؤلف الرواية ولا أحداً من أبطاله: لا صاحب الرباعيات عمر الخيام، ولا زعيم الحشاشين حسن الصباح، ولا قاضي القضاة أبو طاهر. تذكرت أمين معلوف لأن موظف أمن المطار الأوزبكي ـ السوفياتي المظهر، الماركسي التدريب ـ أعطاني مجموعة من البيانات لأجاوب عن كل سؤال فيها ما عدا السؤال عن مخطوطة رباعيات الخيام التي ضاعت ثم وجدها أمين معلوف في روايته. وعندما سألني الموظف باستحياء عما إذا كنت «مسلمان» ـ أي مسلماً ـ وهززت رأسي بالإيجاب، تضاءل فجأة عدد الأوراق التي بين يدي إلى ورقتين ليستا سوى مجرد إقرار جمركي بالعملة الصعبة التي أحملها، وارتسمت ابتسامة ترحيب ودي على وجهه المغولي الملامح، وختم جوازي بختم الاتحاد السوفياتي المنقرض لا بختم جمهورية أوزبكستان المستقلة حديثاً. وقال لي بالأوزبكية ـ ما ترجم لي فيما بعد ـ: «مرحباً بك في سمرقند».

أي سمرقند يا ترى؟ سمرقند الفنتازيا أم سمرقند الواقع؟

وتأهبت لدخول المدينة الذهبية!

وعندما اقتادتني صبية حسناء تتكلم الإنكليزية بطلاقة وتعمل دليلة سياحية في شركة «أنتوريست» السوفياتية السابقة، إلى الباص السياحي الذي كان ينتظرنا خارج مبنى المطار، سألتني: من أين أنت؟

أجبتها: أنا عربي من سورية، مقيم في ثلاثة بلدان دفعة واحدة، جوال آفاق، أعمل في الصحافة والكتابة والنشر. فقالت وكأنها تريد أن تطمئن أكثر: هل أنت «مُسلمان»؟

قلت لها: نعم والحمد لله.

ويبدو أن جملة «الحمد لله» أعجبتها أكثر من تأكيدي لها بنعم، فكشفت عن أسنانها التي اختفت بينها سنان ذهبيتان بابتسامة وقالت: وأنا.. الحمد لله.

قلت للسمراء الأوزبكية ذات الشعر الكستنائي: ما اسمك؟ وأين تعلمت الإنكليزية؟

قالت: إسمي فاطمة (ولفظتها فاتيما): دَرَسْتُ التاريخ في جامعة طشقند وتعلمت الإنكليزية فيها على يد أستاذ إنكليزي علمنا لمدة ثلاثة أشهر، وأجيد إلى جانب الأوزبكية الطاجكية والروسية، وأفهم الفارسية لأن أمي طاجكية من أصل فارسي، وأبي أوزبكي، وجامعتي سوفياتية. ولغة التعليم عندنا هي الأوزبكية والروسية التي هي لغة الدولة الرسمية إلى جانب اللغة المحلية لكل جمهورية.

واعتقدت فاطمة الأوزبكية أنها عرّفت بنفسها قدر المطلوب. وكان الباص السياحي قد أقلع بنا نحو المدينة، والنهار يميل إلى الغسق، وبدأت معالم مدينة رمادية هرمة ذات لون واحد تتراءى لي عبر شوارع عريضة يقطعها خط ترولي - باص كهربائي يمر من أمام مجموعة أبنية متشابهة هي مساكن شعبية قديمة، غسيل سكانها منشور على شرفاتها كأنه أعلام تذكرك بالوجود السوفياتي الذي بناها خلال السبعين سنة الأخيرة. وإذا حاولت أن تنظر إلى ما وراء هذه الأبنية، فلن ترى سوى دخان مصنع ما يحجب الرؤية إلى ما هو أبعد من أول شجرة صفراء تقف بحياء على زاوية رصيف ضيق.

□ □ □

وشعرت بشيء من خيبة الأمل وأنا أرى دخان التلوث يهدد «مرآة العالم» و «الجنة الرابعة» و «صديقة الروح» - وكلها ألقاب أغدقها

المؤرخون والرحالون عبر العصور على سمرقند، فانتفضت جالساً، وسألت دليلتي فاطمة بشيء من الحدة:

أهذه هي عاصمة تيمورلنك؟ أين اختفت قصوره ومساجده ومدارسه؟ هل دمرها الزلزال أم سرقها اللصوص أم عصفت بها الرياح فأعادتها إلى الصحراء؟

ابتسمت الأوزبكية الحسناء ابتسامة واسعة أسفرت بوضوح أكثر عن السنين الذهبيتين اللتين ترصعان فمها، وقالت ببرود يعادل حدتي، وكأنها اعتادت دائماً سؤالاً كسؤالي: هناك خيبة أمل يصاب بها رحالو اليوم عندما يزورون مدناً معينة، فيصدمون عندما يجدون أنها ليست كما تصوروها أو قرأوا عنها. وسمرقند مثال صارخ على ذلك، فأنت تزورها اليوم وهي في قمة انحدارها بعد سبعة عقود من حكم روسيا لها واضطهاد موسكو لشخصيتها وتفتيت السوفيات لوحدتها الدينية والثقافية، فقد تخلت عن دورها كعاصمة لأوزبكستان لمدينة حديثة اسمها طشقند، بقدر ما فقدت زهوها وبريقها كأجمل وأهم مدائن آسيا الوسطى، لكنك عندما تصل إلى ساحة «راغستان» حيث يجري الآن ترميمها لإعادتها إلى بهائها ورونقها القديمين، أو تمر أمام مسجد «بيبي خانم»، الذي بُني ليكون أعظم جامع في ديار الإسلام، أو تسبح بعينيك في بحر من الزرقة وأنت تتطلع إلى أضرحة «شاهي زندا»، التي ما زالت تبهر النظر بعد ستة قرون، تدرك أن بقاء هذه المعالم الرائعة ما زال دليلاً على إصرار الشعب الأوزبكي على الحفاظ على تاريخه الحضاري وتراثه المعماري، واعتزازه بهما.

وكأن مرافقتي خشيت من أن أعتبر أن ردها جاء «وطنياً» أكثر مما ينبغي، فأردفت قائلة:

هل ترى هذه المنازل المعلبة التي نمر عليها؟ إنها منازل يسكنها الروس الذين يديرون المصانع. أما نحن الأوزبك فنسكن التاريخ. وضحكت.

كان الباص قد وصل إلى مشارف سمرقند ـ المدينة، عندما بدأت معالم التاريخ تظهر على جانبي الطريق. كل ما كنت تتصوره وما تشاهده في الكتب قد أصبح حياً. وفي لحظة تنسى العلب الرمادية التي يسكنها الروس والتي مررت عليها قبل دقائق، ودخان التلوث الذي استنشقته قبل أمتار والترولي ـ باص المحمّل بأكداس من البشر (ملابسها بألوان قوس قزح تشكيلاتها الإثنية) والذي كان قد سد عليك تقاطع الشوارع الرئيسية. فجأة تتقابل أنت والتاريخ وجهاً لوجه، وتغرق في اللحظة التي أنت فيها، وفي اللحظة التي تريد أن تكونها. لقد وصلت إلى سمرقند.

□ □ □

ليس هناك اسم في سيرة المدن المستمرة في التاريخ يحمل سحراً كسحر اسم سمرقند. وليست هناك مدينة توحي بالبعد وتعيش هاجس التاريخ كسمرقند. وليس هناك مكان يغري الرحالة بالسفر كسمرقند. وكل رحلة إلى آسيا الوسطى لا تمر بسمرقند هي رحلة ناقصة في الواقع وفي الخيال، فأنت تحس بشذا التاريخ لحظة تقع عيناك على أول قبة تركوازية أو مئذنة فيروزية، وتنهار مقاومتك لمنطق العصر وتطوره وأنت تقف أمام ثلاثة آلاف سنة من تاريخ حضارة حيّة ومستمرة. وعندما تبسط نظرك على سمرقند المدينة، تتكشف لك أنها واحة مهددة بأن تعيدها لحظة تخلٍ في أي وقت إلى الصحراء، وكأنها تعيش على الدوام تحت رحمة ريح رملية. فهي وبخارى تقعان على طرفي وادي نهر زرَفْشان بين ما هو

معروف بالجبال السماوية أو «تيان شان» إلى الشرق وصحراء الرمال السوداء أو «قره قم» إلى الغرب، فضفتا أكبر الأنهار آمو ـ داريا (أو «أوكسس» كما كان يسميه الإغريق القدماء أو «جيحون» كما كان يسميه العرب الفاتحون) بعيدتان آلاف الفراسخ عنها. وكأن قدر سمرقند هو أن تدفع رمال الصحراء ورمال النسيان دون الطغيان عليها من غير أن تستجدي ذلك النهر البعيد.

قليلة هي المدن التي شغلت مخيلات الرجال مثلما شغلتها مدن القوافل في آسيا الوسطى. وقليلة هي الأماكن التي استحوذت على عقول الناس مثلما استحوذت عليها معالم طريق الحرير، قبل أن يلغيه البحر وتختصره السفن العابرة من الغرب إلى الشرق بحثاً عن التوابل والحرير. أربعمائة سنة كاملة ومدن آسيا الوسطى الثلاث الأساسية ـ سمرقند، بخارى وخيوا ـ مقفلة في وجه الدنيا، وكأن الزمان توقف بمرور آخر قافلة من شواطىء البحر المتوسط إلى الصين، من غير رجعة. وقليلة هي الأمصار التي شحذت قريحة الشعراء والكتّاب والفنانين في الغرب مثلما فعلت سمرقند تحديداً بمخيلة هؤلاء الرومانسيين، من دون أن يزوروها أو حتى يعرفوا تحديداً مكانها على الخريطة.

□ □ □

الأسماء كثيرة، لكن أشهرها على الإطلاق كان بالنسبة إليَّ الشاعر الإنكليزي جيمس إلروي فليكر (١٨٨٤ ـ ١٩١٥) الذي لم يسافر في حياته إلى أبعد من بيروت. وكان فليكر قد درس اللغات الشرقية في جامعة كيمبردج ودخل السلك القنصلي البريطاني، فخدم أولاً في إسطنبول ثم عيّن نائباً للقنصل البريطاني في بيروت في مطلع هذا القرن. وكان فليكر أول من أثار مخيلة الناس حول

سمرقند في الأدب الإنكليزي الرومانسي بمسرحيته الشعرية «حسن: قصة حسن البغدادي وكيف قام برحلته الذهبية إلى سمرقند»، التي كتبها العام ١٩١٣ في بيروت قبل وفاته شاباً بحوالى سنتين، ولم تُمثل حتى العام ١٩٢٣، وصدرت في طبعة محدودة مع رسوم ملونة في كتاب العام ١٩٢٤، والتي اشتهرت فيما بعد فقط باسم «الرحلة الذهبية إلى سمرقند».

ولعلني أول ما سمعت باسم «سمرقند» عندما كنت تلميذاً في مدرسة برمانا العالية في الخمسينيات حيث درسنا هذه المسرحية الشعرية بحماسة لأن أستاذ الأدب الإنكليزي قال لنا إن فليكر كان يزور برمانا والمدرسة بين حين وآخر، وهو قنصل في بيروت. ومنذ ذلك التاريخ بقي سحر الاسم ورومانسيته عالقين بذهني، من قبل أن أعرف شيئاً عن تاريخه.

قبل هؤلاء كلهم كان ماركو بولو الإيطالي أول رحالة غربي وصل إلى آسيا الوسطى في القرن الثالث عشر في طريقه إلى الصين، ووصف بخارى بأنها «من أنبل المدن وأوسعها»، ووصف سمرقند بأنها «مدينة كبيرة وبديعة». بعده بقرنين جاء الأوروبي الآخر دون روي غونزاليس دو كاليفو مبعوث هنري الثالث ملك قشتالة الأسباني إلى تيمورلنك في سمرقند في القرن الخامس عشر، ووصف دو كاليفو سمرقند «أنها أكبر من إشبيلية (...) وبين بساتينها الكثير من القصور والمنتزهات الجميلة». وحتى العام ١٨٥٠ لم ينجح سوى أوروبيين في الوصول إلى سمرقند، إلى أن دخل الروس إليها العام ١٨٦٢، حيث حرّموا على غير المسلمين والأجانب الوصول إلى آسيا الوسطى التي كانت تحت الحكم الروسي. حتى لورد كورزون وزير خارجية بريطانيا الذي زار

سمرقند في ظل السيطرة الروسية في القرن التاسع عشر، ونزل في ضيافة الحاكم الروسي للمدينة، وصف ساحة راغستان بأنها «ساحة عريقة وضخمة»، وأن بخارى على الرغم من تدهورها «من أمتع المدن وأكثرها تشويقاً في العالم».

وظلت سمرقند وبخارى تثيران فضول الرحالين والمغامرين وتشعلان خيال الناس البعيدين، فهما من المدن المحرمة التي لا يستطيعون الوصول إليها، فمنهم مَن حاول ومات في الطريق، ومنهم مَنْ لم يحاول، فبنى في خياله صورة معينة عن روعتهما، وقضى العمر في تلفيق الأساطير حولهما، ومات حسرة من دون أن يصل إليهما، فقد كانت سمرقند وبخارى من أهم مراكز آسيا التجارية وطريق القوافل من سيبيريا إلى الهند، ومن الصين إلى أوروبا، حاملة الحرير من الشرق، والفراء والعنبر من الشمال، والأحجار الثمينة والتوابل من الجنوب، والعطور والعاج من الغرب. كان كل شيء يُشتهى يباع ويقايض ويتاجر به في أسواقهما وبازاراتهما. كانتا واحتين من الرخاء والترف ومركزين للعلوم والثقافة والفنون. من خلالهما انتقلت الأفكار والمعلومات مع التجار وبضائعهم إلى مختلف أصقاع العالم، ومعهما تكنولوجيا ذلك العصر. فأول مصنع للورق خارج سور الصين العظيم كان في سمرقند في القرن الثامن، وأكبر مكتبة وأغناها في شرق العالم الإسلامي والتي حوت ٤٥ ألف كتاب كانت في بخارى في القرن العاشر.

□ □ □

حاولت أن أرى سمرقند وبخارى بعينين عربيتين، فقيل لي إن العرب لم يتركوا أي أثر في هاتين المدينتين سوى الإسلام، وأن

الإسلام العربي لم يكن عمارة فقط في ذلك الوقت. وعندما طلبت من دليلتي السياحية فاطمة الأوزبكية أن ترشدني ولو إلى أثر صغير، قالت خريجة التاريخ:

القرآن. ألا ترى آياته محفورة على كل قبة ومئذنة ومحراب ومدرسة وسور وضريح؟ ليس من الممكن أن ترى سمرقند أو بخارى بعينين عربيتين، لأن ليس فيهما أي شيء عربي إلاّ الإسلام الذي حمله إلينا العرب بلسانه العربي الذي هو القرآن، ولكن من الممكن أن تراهما بعينين إسلاميتين إذا اقتنعت بالحديث الشريف أن لا فرق بين عربي وأعجمي إلاّ بالتقوى. والتقوى هنا بمعنى أن كل هذه الحضارة التي تراها هي من صنع إسلامي، أياً كانت هويته القومية. فصنّاع هذه الحضارة انتموا إلى كل عرق أو جنس أو دسكرة في الأمبراطورية الإسلامية. إننا لم نسأل بناة هذه الحضارة عن هويتهم عندما جاؤوا إلينا، كانت هويتهم الوحيدة هي الإسلام.

وبقدر ما أفحمني جواب فاطمة، بقدر ما شعرت أنها لم تفهم سؤالي تماماً، فالعين العربية التي حاولت أن أرى بها ما حولي هي البحث عن الدور العربي في أسس هذه الروعة الحضارية، والذي طمسه التاريخ، وحاربه المستعمرون، وألغاه حكم سوفياتي دام سبعين سنة.

كل حضارة عانقت الإسلام، تبنت الخط والزخرفة العربيين، بديلاً من الصور والرسوم للأشخاص، التي يحرمها الإسلام، فأدخل العرب بذلك إلى فن العمارة والديكور تقاليد الخطوط والأشكال الهندسية. فزينت الجوامع والمدارس الدينية التي ظلت مزدهرة في آسيا الوسطى لقرون طويلة، وإن لم يبقَ منها اليوم شيء يذكر،

فسمرقند وبخارى دمرتا مرات ومرات بسبب الغزوات والحروب، إلى جانب غياب مواد البناء القوية كالحجارة، فهي لم تكن متوافرة بينما كان المتوافر يتألف من الطين والطوب والخشب. وهذا النوع من المواد لا يصمد عادة لعاديات الزمن. إلى جانب تفضيل العرب للخيام والسرادقات والمضارب التي يعشقونها، وهم البدو الرحل في الأصل.

مع ازدهار التجارة على الطريق الذهبي، أصبحت كل من سمرقند وبخارى وخيوا في خوارزم مدناً غنية بالمال والثقافة والعلوم والفنون، وتحولت إلى «متروبوليس» حقيقية.

□ □ □

وسط هذا العصر ولد **أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا** (٩٨٠ - ١٠٣٧) في بخارى واعتبر أمير العلوم. ففي سن الثامنة عشرة استطاع أن يشفي خان بخارى من مرض أصابه، فكافأه بالسماح له بالاطلاع والعمل في مكتبة المدينة التي أضاف إليها الكثير مما كتبه في الفلسفة والفلك والرياضيات والشعر، إلى جانب الطب، فترجم أرسطو بالعربية، وكتب كتابه الشهير «القانون» في الطب، الذي هو عبارة عن موسوعة من المعلومات الطبية من الصين والهند وفارس ومصر واليونان، جمعها من مصادر امتدت إلى عشرة قرون. وكان هذا الكتاب من الأهمية حيث ترجم باللاتينية. وأصدر البابا صكاً بابوياً بالسماح بتعليمه في أوروبا. وظل كتاب «القانون» لابن سينا معتمداً في كليات الطب الأوروبية كأساس للمعارف الطبية العامة حتى الاكتشافات الطبية العلمية في القرن التاسع عشر. كذلك ألّف كتاب «الشفاء» في القانون، وعمل في السياسة، وعيّن وزيراً في البلاط.

وفي خيوا ولد **محمد بن أحمد أبو الريحان البيروني** ٩٧٣ - ١٠٤٨)، الذي كتب في كل فروع المعرفة الإنسانية، واضعاً مبادىء الجيولوجيا الحديثة وعلم الفلك، باحثاً في سرعتي الضوء والصوت، دارساً احتمال دوران الأرض على محورها قبل ٦٠٠ سنة من غاليليو في إيطاليا. أقام في الهند بضع سنين واطلع على فلسفة اليونانيين والهنود. ومن كتبه الكثيرة: «الآثار الباقية عن القرون الخالية» الذي ترجم بالإنكليزية و «الاستيعاب في صفة الإسطرلاب» و «الجماهر في معرفة الجواهر» و «تاريخ الهند» الذي ترجم بالإنكليزية في مجلدين. و «تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن». و «التفهيم لصناعة التنجيم». وقد نقل ياقوت الحموي الكثير عن كتبه.

وفي سمرقند ولد **أُولوغْ بيك** (١٤٠٤ - ١٤٤٩) عالم الفلك الشهير وحفيد تيمورلنك، والذي بنى أول مرصد في العالم الإسلامي العام ١٤١٧، على هضبة خارج سمرقند، وكتب على بابه: «العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة». ورسم أول خريطة للأجرام والأفلاك السماوية، مكتشفاً مراكز واتجاهات سير مائة ألف نجم وجرم. واستطاع أن يحسب بدقة علمية متناهية، وبالمعايير العلمية الحديثة، طول السنة الشمسية بـ ٣٦٥ يوماً و٦ ساعات و٩ دقائق و٩,٦ ثوان. واعترف الغرب بفضله العلمي الكبير عندما نشرت جامعة أوكسفورد أوراقه العام ١٦٥٢. وكانت قد ترجمت أبحاثه قبل ذلك باللاتينية والصينية، واعتمدها العلماء في كل مكان، وعندما اغتيل أُولوغْ بيك من قبل ابنه العام ١٤٤٩، كان يعمل ويدرس في مرصده ومدرسته أكثر من ألف فلكي وتلميذ.

وفي خوارزم ولد عالم الرياضيات الشهير **محمد بن موسى**

الخوارزمي حوالى العام ٨٤٨، والذي كان ينعت بالأستاذ والذي أهدى إلى العالم علم الجبر واللوغاريتمات بكتابه «الجبر والمقابلة» الذي ترجم باللاتينية ومن ثم بالإنكليزية، وإلى جانب كونه رياضياً، كان فلكياً ومؤرخاً. عيّنه الخليفة العباسي المأمون قيّماً على خزانة كتبه في بغداد وعهد إليه بجمع الكتب اليونانية وترجمتها، فترجم كتاب «المجسطي» لبطليموس مختصراً، وسماه «السند هند»، والذي كان أساساً لعلم الفلك بعد الإسلام، وألف كتاب «عمل الإسطرلاب» وكتاب «التاريخ» الذي، نقل عنه الأصفهاني، وكتاب «رسم المعمورة من البلاد» الذي فيه كتاب «وصف أفريقية» و «صورة الأرض من المدن والجبال» الذي نقل عنه المسعودي. ويقال إنه مات في بغداد بعد وفاة الخليفة العباسي الواثق بالله.

وفي بخارى ولد **محمد بن إسماعيل البخاري** (٨١١ ـ ٨٧١) صاحب «الجامع الصحيح» المعروف بصحيح البخاري، فهو أول من وضع في الإسلام كتاباً في الأحاديث الصحيحة التي وُثِّقَ برُوَاتِها. ويعتبر كتابه هذا أوثق كتب السنّة المعوَّل عليها. والبخاري مؤرخ، وإمام أهل الحديث في عصره، قام برحلة طويلة العام ٨٢٦ في طلب الحديث، فزار خراسان والعراق ومصر والشام، وسمع من نحو ألف شيخ. وعندما كتب كتابه تعصب عليه جماعة من بخارى ورموه بالتهم، فأُخرج إلى سمرقند، ومات فيها. وإذا كان «الصحيح» هو أشهر كتب البخاري على الإطلاق، فله كتاب «الضعفاء» في رجال الحديث و «خلق أفعال العباد» و «الأدب المفرد» و «التاريخ».

وفي فاراب على ضفاف نهر آمو ـ داريا (أو جيحون كما سماه العرب). ولد **أبو النصر الفارابي** (٨٧٤ ـ ٩٥٠) أكبر فلاسفة

المسلمين. ومنها انتقل إلى بغداد، وألف فيها أكثر كتبه، ورحل إلى مصر والشام، واتصل بسيف الدولة الحمداني، وتوفي في دمشق. وكان الفارابي يُعرف بالمعلم الثاني، وكان يحسن اليونانية وأكثر اللغات الشرقية المعروفة في عصره. شرح مؤلفات أرسطو، الذي كان يُعرف بالمعلم الأول، وله نحو مائة كتاب، من بينها: «الفصوص» الذي ترجم بالألمانية و «آراء أهل المدينة الفاضلة»، و «مبادىء الموجودات» الذي ترجم بالعبرية، و «السياسة المدنية»، و «جوامع السياسة». ويقال أنه وضع الآلة الموسيقية التي تعرف بالقانون. وألف في الموسيقى كتاب «إحصاء الإيقاعات» عن النغم، وكتاب «المدخل إلى صناعة الموسيقى» عن الآلات الموسيقية، وكتاب «الموسيقي الكبير».

□ □ □

توقفت لحظة أمام معارفي الجدد، وضحكت في داخلي للمنافسة غير المتكافئة التي ستواجهني مع مؤلف رواية «سمرقند». وتمنيت مرة أخرى لو كان معي هو وأبطاله.



من الإسكندر
إلى قتيبة



٥

حذاء امرأة يؤخر الفتح

من أي باب من أبواب سمرقند تدخل؟ وإلى أي حي من أحيائها تلج؟ وأي حديث تفتحه مع روادها؟

ليس هناك إلاّ باب واحد تدخل منه إلى سمرقند المعاصرة: وهو باب التاريخ. والتاريخ تاريخان التاريخ الموثّق والتاريخ الأسطوري. ومن الصعب الفصل بين التاريخ والأسطورة في أي حديث، ومع أي كان في سمرقند اليوم. لكن لا بد من أن يكون للتاريخ بداية وأن يكون للحديث نهاية.

يقول التاريخ إن سمرقند ظهرت في القرن الخامس قبل الميلاد، وكان اسمها أفراسياب. وهو اسم للملك نصفه إله من ملوك السوغدان. ويضيف التاريخ أن الإغريق كانوا يسمونها قراقندا، وأن الإسكندر المقدوني واجه أولى هزائمه القليلة فيها، بعد أن عبر نهر آمو ـ داريا في خمسة أيام. وتنسب مخطوطة تعود إلى العصر المقدوني أنها كانت أيام الإسكندر بلدة كبيرة ذات تحضينات وقلعة وسور دفاعي يمتد حوالى ١٤ كيلومتراً، وتملك صناعة يدوية

وتجارة مزدهرة وحياة ثقافية. وقد عثر علماء الآثار السوفيات في تلال أفراسياب على بقايا قلعة وسور بامتداد ٨٠ متراً وارتفاع ١٣ متراً، وفي أسفله بقايا قصور ومعابد وأسواق وشوارع وأقنية.

وسمرقند تقع على مثلث من الأرض فوق تلة في منطقة مهملة ما زال اسمها أفراسياب، تشكل اليوم ضواحي المدينة. ولا شيء فيها يُذكر بأي حضارة قديمة كانت هناك. ولأن سمرقند اعتمدت في حياتها على نهر زرفشان الذي يجمع مياهه من الجبال السماوية، فقد استقطبت دائماً قبائل البدو التي كانت تأتي للغزو قادمة إليها من الصحراء المجاورة والسهوب الشمالية.

ولكن سرعان ما كان يطيب لها المناخ فتقيم وتتحول إلى مجتمع من الحضر. وعندما دمر الفاتح العربي قتيبة بن مسلم المدينة في القرن الثامن، هُجِرَت أفراسياب وأهْمِلَت. وعندما أعيد بناء سمرقند، أصبحت أفراسياب منطقة الحرفيين والصناعات اليدوية. وفي تلال أفراسياب اكتشف الأثريون بقايا مسجد كبير، يظن أن مجموعة من المدافعين عن المدينة اعتصموا فيه لمواجهة جنكيز خان وجيوشه. وقد وجدوا بقايا بريد وسلاح وجدران محروقة عليها كتابة محفورة بالسكين لجندي جريح. والمتحف الصغير المبني على حافة أطلال أفراسياب يعرض القليل من الآثار التي نجت من حريق المغول لسمرقند في العام ١٢٢٠. فخاريات محطمة، حلى صدئة، عملة قديمة، ونسخة من جدارية من القرن السابع وجدت في أحد البيوت لمسيرة من الناس أصلها موجود في متحف الهرميتاج في لينينغراد، أو بطرسبرغ اليوم.

وتقول الأسطورة إن تاريخ الفتح العربي لآسيا الوسطى كان معلقاً بحذاء امرأة، هو الأغلى في العالم، فقد كانت تحكم بخارى أميرة

جميلة اسمها خاتون، كانت وصية على العرش حيث كان ابنها قاصراً. وعندما وصلت جيوش الفتح العربي إلى أسوار المدينة، هربت خاتون. ولكنها في أثناء هروبها سقط من قدميها حذاؤها الذهبي المرصع الذي كان يقدر ثمنه بحوالى مائتي ألف درهم من دراهم تلك الأيام. وحزنت خاتون لضياع حذائها الثمين، فقررت أن تعود إلى بخارى لاستعادته. وفوجئت عند عودتها أن المدينة ما زالت صامدة في وجه الجيوش العربية. فاستعادت الحكم وتزعمت ثورة شعبية، أخرت الفتح العربي ثلاث سنوات، وكلفته أربع حملات عسكرية بين العامين ٧٠٦ و٧٠٩ قبل أن تحتل جيوش قتيبة بن مسلم بخارى. وكانت الجيوش العربية قد وصلت إلى آسيا الوسطى، وقطعت نهر آمو ـ داريا في العام ٦٥٤، لكن العرب لم يفتحوا المدن ويتولوا السلطة في آسيا الوسطى إلاّ بعد أن أصبح قتيبة بن مسلم والياً على خراسان العام ٧٠٥، حيث حقق أول انتصاراته بهزيمة خاتون أميرة بخارى الجميلة.

□ □ □

أما سمرقند فقد سقطت بيد قتيبة بن مسلم في العام ٧١١. ومن الأساطير التاريخية الأخرى المتداولة أنه عند وصول القوات العربية إلى أبواب المدينة، خرج أهاليها من وراء الأسوار ليقنعوا قادة الفتح العربي بألا يضيعوا وقتهم في حصارها، لأنهم وجدوا «ما هو مكتوب أن مدينتنا لن تسقط إلاّ على يد رجل اسمه سرج الجمل». ولما لم يكن أهالي سمرقند يعرفون العربية، لم يدركوا أن اسم قتيبة يعني «سرج الجمل». ومنذ ذلك الوقت دخل أهالي سمرقند في الإسلام، وقرروا أن يتعلموا العربية حتى يجيدوا قراءة طالعهم في كتبهم القديمة الصفراء.

لكن تاريخ الإسلام في آسيا الوسطى ليس كله تاريخاً عربياً. إنه تاريخ يشترك فيه الفرس والأتراك الشرقيون والعثمانيون والقوقازيون الذين رسخوا الإسلام بطرق مختلفة في الأقاليم الواسعة الممتدة من القوقاز حتى حدود الصين، ومن قازان حتى حدود إيران وأفغانستان. غير أن أهمية الدور العربي كانت تكمن في استطاعة العرب التوغل إلى وراء نهر آمو ـ داريا (أو جيحون) وقدرة جيوشهم الفاتحة على التحرك حيث استطاعوا أن يفتحوا بين العامين ٧٠٦ و٧١٦ كل الأقاليم الواقعة جنوب نهر سير ـ داريا، إلى أن سقطت مدينة باكو (عاصمة أذربيجان اليوم) أثر حصار طويل لها بدأ في العام ٦٧٦.

لقد أدخل العرب الإسلام إلى آسيا الوسطى عن طريق الفتح العسكري، لكن سرعان ما استبدل به خلفاء الدولة العباسية في بغداد، وخاصة في الفترة الشعوبية المتأخرة، النشاط الديبلوماسي الذي تولاه من بعدهم خلفاء بني عثمان في أمبراطوريتهم العثمانية المترامية الأطراف، لكن الفضل الأساسي في انتشار الإسلام واستمراريته يعود إلى نشاط التجار المسلمين، من عرب وفرس وأتراك، الذين أتاح لهم الفتح العربي التجول في آسيا الوسطى. ومع هؤلاء التجار، دخل عدد من أصحاب الطرق الصوفية، الذين شكلوا جماعات في الداخل، لعبت دوراً مهماً في تأصيل الإسلام والمحافظة عليه. وفي منتصف القرن العاشر كان الإسلام قد سيطر بلا منازع على المنطقة التي أصبحت أحد المراكز الحضارية والثقافية الأهم والأروع في العالم الإسلامي، وظلت على تفاعلها الحيوي وانفتاحها حتى نهاية القرن السادس عشر.

في منتصف القرن الثامن، كان دور قتيبة بن مسلم وقواده من

العرب قد انتهى بعد أن انضوى معظم آسيا الوسطى تحت راية الإسلام. في هذا الوقت بالذات كانت الصين في مرحلة توسع، فوقعت أول وآخر مواجهة بين العرب والصينيين في التاريخ. وكان ذلك في العام ٧٥١. ففي موقع اسمه طلاس قرب دزنبول (في قزاخستان اليوم) تقرر أي من الحضارتين ـ الإسلامية أم الصينية ـ ستنتصر في آسيا الوسطى، على الرغم من أن أياً من القوتين العربية والصينية لم تكن مستعدة للحرب لولا خلاف بين إمارتين صغيرتين: فرغانة وشاش. وكما يحدث عادة في كل الخلافات، استعانت فرغانة بالصين وشاش بالعرب. وحمي وطيس المعارك خمسة أيام في طلاس من غير نتيجة حاسمة لأي من الطرفين. إلى أن دخل عامل ثالث في المعركة، فقد انضم في اليوم السادس ترك القارلوق إلى العرب والشاشانيين، فهجموا في خطة عسكرية محكّمة على مؤخرة القوات الصينية وهزموها، فتبعثرت الجيوش الصينية وهربت متراجعة، ولم تعد الصين منذ ذلك اليوم إلى آسيا الوسطى. في الوقت نفسه لم يلاحق العرب الصينيين تاركين لهم الانسحاب إلى داخل حدودهم، معلنين بذلك توقف التوسع العربي. وحسم الأتراك النصر لصالح الإسلام.

وكان لمعركة طلاس أثر حضاري مهم إذ إن الصينيين الذين أسرهم العرب نقلوا إليهم وعلموهم صناعة الورق، التي نقلها العرب بدورهم إلى الغرب. وكان ذلك أول عملية انتقال للتكنولوجيا بين دولة وأخرى في التاريخ. وعلى الرغم من أن العرب لم يبقوا في آسيا الوسطى أكثر من قرنين، إلاّ أنهم أبقوا بصماتهم على المنطقة كلها الممتدة جنوبي بحر الأورال، تاركين لها إلى جانب الإسلام، الحرف العربي الذي ظل مستعملاً ١٣٠٠ سنة في الكتابة

والزخرفة، حتى خمسين سنة خلت حيث فرض الحكم السوفياتي على الجمهوريات الإسلامية الحرف الروسي (السيريليك).

□ □ □

وبحلول القرن العاشر أصبح الإسلام الدين الأكثر انتشاراً في آسيا الوسطى، حالاً محل البوذية والزرادشتية والمانوية والمسيحية النسطورية التي كانت تتنازع فيما بينها. ولم يعش بين الأديان التي جاءت قبل الإسلام إلاّ مجموعة صغيرة من اليهود في كل من بخارى وسمرقند. وعلى الرغم من اعتناق الأتراك للإسلام إلاّ أنهم أبقوا على تقاليدهم وخصائص ثقافتهم، وظلت التركية لغتهم ولغة أكثر آسيا الوسطى، التي عرفت بتركستان.

وفي نهاية القرن العاشر سقطت الأسرة السامانية وهي أسرة فارسية الأصل كانت عاصمتها بخارى على أيدي الترك الذين جعلوا عاصمتهم سمرقند بدلاً من بخارى، وحكموا المنطقة حتى منتصف القرن الثاني عشر، والذين هزموا بدورهم على أيدي القرقيز، وهم قبائل مغولية من أصل صيني وذات حضارة صينية الطابع. ولكن في القرن الحادي عشر كانت قد ظهرت قوة جديدة في آسيا الوسطى هم الأتراك السلاجقة. وكانوا قد استولوا على ما هو معروف اليوم بإيران والعراق وسورية وأخيراً تركيا التي أخذوا منها الاسم. وكانت سيطرة السلاجقة قد وصلت إلى واحة خيوا في خوارزم، على امتداد شواطىء نهر آمو ـ داريا جنوب غربي بحر الأورال وكان سلاطين الأتراك السلاجقة قد عيّنوا الخوارزم شاه حكاماً ممثلين لهم في تلك المنطقة، لكن الخوارزم في العام ١٠٧٧ أرادوا الانفصال عن السلاجقة، فأعلنوا الاستقلال في دولة لهم جعلوا عاصمتها أورغنش بالقرب من خيوا (خيوا هي اليوم قرية

طينية صغيرة مسوّرة تحتوي الآثار الإسلامية وسط أورغنش التي هي المدينة ـ العاصمة) وفي مطلع القرن الثالث عشر كان الخوارزميون قد نجحوا في ضم سمرقند وبخارى إلى دولتهم، وأصبحوا القوة المسيطرة في آسيا الوسطى.

في هذا العالم المتداخل وبين الأسر الحاكمة المتصارعة فيما بينها وفي مناطق النفوذ المتنازع عليها، ولد تيموجين ـ أو جنكيز خان كما عرف فيما بعد ـ في منغوليا. تقول الأسطورة إنه ولد من غزالة وذئب. ويقول التاريخ إنه ابن زعيم قبيلة مغولية، لمع اسمه بإخضاع عشيرة من عشائر المغول قيل إنها قتلت أباه. وفي العام ١٢٠٦ كان قد وحّد القبائل المغولية، وشكل منها أسرع وأهم خيالة في تاريخ الحروب القديمة.

دخل جنكيز خان آسيا الوسطى، عندما وقعت الواقعة بينه وبين جيرانه الخوارزم، إلى الغرب. في العام ١٢١٨ مرت قافلة مؤلفة من ٤٥٠ تاجراً من خيوا في طريقها من منغوليا إلى أفغانستان، فهاجمها الخوارزم شاه وقتلوا أفرادها ونهبوا بضائعها بأمر من حاكم أوترار الخوارزمي. وعندما أرسل جنكيز خان مبعوثاً إليه ليحتج على التعدي على القافلة ويستفسر عن مصير بضائعها، قتله حاكم أوترار أيضاً. وإذا بهذه الحادثة تغير من مجرى التاريخ في آسيا الوسطى والعالم، بإطلاقها أول وأكبر غزو لقبائل من البدو إلى مدن العالم المتحضر. لقد كانت حرية التجارة عند المغول، وظلت عبر تاريخهم كله، الركن الأساسي لسياستهم، وأي تدخل فيها كان يعاقب بحد السيف. فقاد جنكيز خان مائتي ألف رجل من المغول في حملة ضد أوترار الخوارزمية، ثم بخارى حتى وصل إلى سمرقند. لكنه سرعان ما اجتاح بلاد فارس بعد أن أصبحت آسيا

الوسطى كلها تحت أقدام المغول وسنابك خيولهم، ملاحقاً شاه (أو أمير) خوارزم إلى سواحل بحر قزوين. واختصر مؤرخ من أهالي بخارى كان قد هرب من أمام جحافل المغول عند دخول جند جنكيز خان المدينة أنهم: «جاؤوا، دمروا، أحرقوا، عذبوا، قتلوا ـ ورحلوا».

وإذا كان ذلك مصير بخارى، فإن مصير سمرقند كان أرحم. فقد كانت أكثر تحصيناً من بخارى، وكان لها اثنا عشر باباً، وبين كل بابين قلعة، وعندها ١٠٠ ألف مُدافع. لكنها قررت أن تستسلم دون قتال. لذلك أبقى جنكيز خان أهاليها مقيمين فيها، بعد أن سباها ونهبها. ويقول الرحالة العربي ابن بطوطة الذي مرّ بسمرقند في العام ١٣٣٣، أنه وجدها مدينة «من غير أسوار ولا أبواب. قلاعها وقصورها مدمرة (...)، لكنها واحدة من أكبر وأجمل مدن العالم (...) مبنية على ضفاف نهر (...) يتمشى سكانها على ضفافه كل يوم بعد صلاة العصر (...)». ويصف ابن بطوطة بخارى التي زارها في العام نفسه أيضاً أنها مدينة «دمرها كلها الملعون جنكيز ما عدا القليل من جوامعها ومدارسها وبعض أسواقها». ويقول عن سكانها، الذين اشتهروا بتقواهم وتنورهم بأنهم كانوا «محتقرين لتعصبهم».

من آسيا الوسطى تقدمت جحافل المغول بقيادة أبناء جنكيز خان نحو الصين من ناحية ونحو شرق أوروبا من ناحية ثانية. ومن جهة أخرى زحفت نحو بلاد الشرق والمتوسط، حتى امتدت أمبراطوريتهم في قمتها من المحيط الهادي إلى الدانوب ومن بورما إلى سيبيريا، وكانت بذلك أكبر أمبراطورية عرفها العالم. وحكم المغول هذه الأمبراطورية بالقوة، وفرضوا داخل حدودها

احترام القانون، حتى إن المؤرخ الفرنسي لويس بولنوا ذكر أن «من الممكن لفتاة أن تحمل على رأسها طبقاً من ذهب وتمشي من طرف إلى طرف عبر الأمبراطورية المغولية دون أن يضايقها أحد». وإذا كان التاريخ لا يذكر المغول وزعيمهم جنكيز خان إلاّ كغزاة وقتلة، فإن «السلام المغولي» الذي فرضوه في آسيا الوسطى، هو الذي أعطى التجار والرحالين الأوروبيين - ومن بينهم ماركو بولو - الشعور بالأمان في السفر والترحال، ومكنهم من إحداث أول اتصال في التاريخ بين الصين والغرب.

بعد موت جنكيز خان قسمت أمبراطوريته بين أولاده الأربعة: فذهبت تركستان، بما فيها سمرقند وبخارى إلى ابنه الثاني شاغاتاي، والتي حكمها أولاده وأحفاده من بعده مدة قرن كامل، إلى أن سقط حكم الأسرة الجنكيزية في الإهمال والفساد في منتصف القرن الرابع عشر.

□ □ □

إلاّ أن حلم أمبراطورية آسيوية لم يمت. وكان آخر فصل ذهبي فيه وأكثره مجداً في تركستان في نهاية القرن الرابع عشر - بداية القرن الخامس عشر في عصر الأسرة التيمورية. في هذا العصر زها الأدب والشعر، وازدهرت الفنون والتجارة، ونمت العلوم والثقافة، ونهضت كالفينيق مدن كسمرقند وبخارى، وعادت إلى الصدارة من جديد.

ولد تيمور، مؤسس الأسرة التيمورية، في كِشْ جنوب سمرقند في العام ١٣٣٦. وكان ابن زعيم قبيلة مغولية - تركية. أصيب بجرح في رجله اليمنى في اشتباك محلي، مما أعطاه لقب تيمور الأعرج أو تيمورلنك. وكان قائداً استراتيجياً وعسكرياً بارعاً، إلى جانب

كونه لاعب شطرنج ماهراً. وكان تيمورلنك في الواحدة والعشرين من عمره عندما اتخذ من جنكيز خان مثلاً أعلى له معداً نفسه لغزو العالم. واستطاع خلال نصف قرن عبر حملات عسكرية متعددة الاتجاهات أن يقتطع أمبراطورية تمتد من نهر الأندوس إلى البحر الأسود، وأن يخوض بحاراً من الدم والمذابح، تاركا أهرامات من الجماجم عند مدخل كل مدينة فتحها، أو حيثما مرّ جنوده. وفي العام ١٣٧٠ كان زعيم تركستان غير المنازع، بانياً قلعته الشهيرة في سمرقند. وفي العام ١٣٨٠ كان قد هزم خانات بلاد فارس وأصبح زعيمها وقضى على العشيرة الذهبية في سهوب آسيا الوسطى. وفي العام ١٣٩٨ قام بغزو الهند، وفي السنة التالية غزا جورجيا. وفي العام ١٤٠١ قام بغزو بغداد ودمشق وقضى على المماليك في الشام وبلاد الرافدين. وفي العام ١٤٠٢ هزم الأتراك العثمانيين في أنقرة ودخل إلى مدينة سميرنا (أزمير اليوم) المسيحية ووقف على بحر إيجه يرقب اليونان. وفي العام ١٤٠٥ مات تيمورلنك بداء الرئة وهو يعد جيوشه لغزو الصين.

□ □ □

لكن التاريخ لم يسترح هنا، فما زال الحديث له، وإن كان ذا شجون.

زهو
الحضارة الإسلامية



٦

مدائن اللون الفيروزي

لسمرقند المدينة لون واحد، تجده في سمائها وقبابها ومساجدها ومآذنها وساحاتها ومدارسها وأضرحتها، هو الأزرق الخليط بالسماوي والتركوازي والفيروزي والكحلي. والأزرق هذا، كان اللون المفضل لتيمورلنك باني سمرقند التاريخية من تراب وغبار الصحراء المحيطة بها، الذي أصبح يعرف بلون الإسلام. وسمرقند مغطاة من رأسها إلى أخمص قدميها بالبلاط القيشاني ذي اللون الأزرق بكل ما فيه من خيالات وتفرعات مع تداخلات اللون الأبيض والقليل من الأخضر.

في القرن الرابع عشر كان تيمورلنك قد افتتح كل آسيا، من سور الصين العظيم حتى البحر المتوسط. واختار الفاتح الأعرج سمرقند لتكون عاصمة جديدة لفتوحاته، قرب مكان ولادته في كِشْ. وجمع أهم صنّاع زمانه ليجدد بناء المدينة فيبني من خلالها سمرقند الجديدة جنوب سمرقند القديمة، التي دخلت التاريخ فحافظ عليها بقدر ما حافظت عليه. جاء بالمعماريين والبنائين والنحاتين والنجارين والرسامين والخطاطين من كل بلد افتتحه.

وجاء بعلماء الرياضيات ـ إذ كانت الرياضيات هي أساس فن العمارة في القرون الوسطى ـ من فارس والهند وتركستان والشام وبلاد الرافدين.

واستطاعت هذه المواهب والكفاءات المتعددة التي صبت في بحيرة سمرقند أن تعكس في بنائها الجديد الحضارات الأربع الأساسية لبلدانها، فتقيم نهضة عمرانية لا مثيل لها في آسيا الوسطى. وإذا بسمرقند الجديدة، لا هي عربية ولا فارسية ولا تركية ولا هندية. بل هي الأربع معاً في تمازج شكّل مفهوم حضارة التتر. وجاء حفيده أولوغ بيك من بعده ليحوّل سمرقند إلى إحدى عجائب العالم الإسلامي، حين جعل منها مدينة للثقافة والعلم والفكر. بانياً مرصدها الشهير ومدارسها المتعددة، وإذا ببخارى تتحول تحت حكم الأسرة التيمورية إلى مدينة مقدسة، تدعي وجود ٣٦٥ مسجداً فيها، يستطيع المسلم أن يصلي كل يوم وعلى مدار السنة في مسجد مختلف. واستطاعت هذه المواهب الخلاّقة التي تجمعت في مكان واحد أن تزهو بالحضارة الإسلامية إلى مرتبة لم تصل إليها من قبل ولا من بعد.

وبنى تيمورلنك سوراً عظيماً حول سمرقند الجديدة، طوله سبعة كيلومترات وله ستة أبواب. وبنى قلعة غربي المدينة حفر حولها قنوات مياه عميقة. وداخل القلعة كان «القصر الأزرق» (كوك ساراي)، الذي كان مقر تيمورلنك الأساسي ومركز المالية. وإلى جانبه كانت مكاتب الحكومة ومخازن السلاح ومصانعه. كان هناك أكثر من ألف عامل يعملون في صناعة السلاح وحدها. رماح وسيوف ودروع وسهام وكل نوع من أنواع السلاح التي عرفتها حروب القرون الوسطى، لتشكل ترسانة تمد حملات تيمورلنك وفتوحاته.

وكان اهتمامه بعاصمته اهتماماً قلّ نظيره. فكان يراقب شخصياً أعمال البناء بين الحملة والحملة، جالباً إليها عند عودته من كل فتح من فتوحاته كنوز المدن الأخرى التي يكون قد سباها، ومعها حرفيوها: عمال البناء والنحت من أذربيجان ودلهي، عمال البلاط والموزاييك من شيراز وأصفهان؛ عمال السيراميك والحرير من دمشق، عمال الفضة والنحاس من تركيا. وكأنه هو الذي دمر مدن الشرق كلها بوحشية لا مثيل لها، أراد أن يحيي في بناء سمرقند كل ما دمره أو أحرقه في المدن الأخرى. حتى إن دوكاليفو مبعوث هنري الثالث ملك قشتالة الإسباني الذي زار تيمورلنك في أواخر عهده، وحضر احتفالاً من الاحتفالات التي كان يقيمها على ضفاف نهر زرفشان قال إنه كان «يهتم بأمور شعبه (...) وإن القمح كان رخيصاً والحاجيات متوافرة، والثروة متعادلة، وعدل الأمير (تيمورلنك) منتشراً والأبدان صحيحة، والطقس معتدلاً، والعداءات قليلة، والملذات كثيرة، وصحبة العشاق آمنة (...)». لذلك أطلق عليها الشاعر الإنكليزي فليكر اسم «سمرقند السعيدة».

□ □ □

أما دوكاليفو، الذي يعود إليه الفضل في نقل أول صورة عن سمرقند وعن تيمورلنك إلى الغرب، فلم يخفِ انبهاره بما رآه، فهو يقول عند لقائه الأول بتيمورلنك: «لقد كان جالساً على تخت ومتكئاً على وسادات من الحرير، وقربه نافورة مياه يسبح في بركتها تفاح أحمر. وكان يلبس عباءة من الحرير ذات لون واحد، وقلنسوة طويلة فوقها تاج مرصع بالزمرد واللؤلؤ والأحجار الكريمة (...)». وكان ذلك اللقاء وسط حديقة شاسعة غناء، أقيمت على كل

طرف من أطرافها الأربعة خيمة كبيرة من الحرير، كان تيمورلنك ورجاله ينصبونها في حدائق سمرقند، ويتنقلون بها من حديقة إلى حديقة كل عدة أيام حتى لا يفقدوا بداوتهم. ومن هذه الحدائق، حديقة باغي ديغوشا أي (فرحة القلب)، وباغي شمال أي (حديقة الشمال). فمعماريو سمرقند لم يكتفوا ببناء القصور، بل أقاموا سلسلة من الحدائق، وصفها أحد زوار تيمورلنك شرف الدين علي يزدي، أن: «أرضها من الحجارة الملونة، مطلية بخشب الأبنوس، والعاج، وجدرانها مزينة بخزف من قاشان، بناها مهندس من دمشق، وزيّنها خزاف من العراق».

ويقول دوكاليفو إن: «بجانب العرب والفرس، كان في سمرقند أتراك ومغاربة من كل الملل، ومسيحيون من اليونان وأرمن». وإن: «عدد سكانها كان يقارب ١٥٠ ألف نسمة».

ولأن تيمورلنك كان على عجلة من أمره، فلم يترك اسم معماري واحد على الأبنية التي أقامها. وربما لأنه لم يشأ أن يقاسمه أحد مجد سمرقند، فقد أراد أن يبقى البنّاء الأول بلا منازع: كما ظل عبر التاريخ الفاتح الأول، والغازي الأول، والسفّاح الأول. وإذا كان لا يُعرَف إلاّ القليل عن هؤلاء المعماريين الذين لم يملكوا من وسائل البناء وأدواته سوى الطين، فإن تأثيرهم على العمارة الإسلامية من دلهي إلى إسطنبول، لا يمكن لأحد أن يسرقه منهم. فقد استطاع المسلمون أن يستعملوا الألوان في عمارتهم كما لم يستعملها أحد من قبل. وكانت الألوان تغطي أبنيتهم من الداخل والخارج. القرميد الملون والبورسلين والفخار والموزاييك من الخارج. السيراميك والقيشاني من الداخل. آيات قرآنية بخطوط عربية بتشكلاتها المختلفة، وأشكال هندسية وأزهار وحيوانات في تنوعات

من الأرابسك جعلت سماتها العربية هي الأبرز. القباب العالية والمآذن المرتفعة والأضرحة الفخمة المرصعة بالموزاييك التي صمدت للرياح والشمس والتلوث والحروب ستة قرون، كانت انتصاراً للعمارة الإسلامية بقدر ما هي انتصار لتيمورلنك.

وفي ضواحي سمرقند حيث تمتد البساتين بين السواقي المحملة بالمياه المحوّلة من نهر زرفشان، وحيث حقول القطن ومساكب البطيخ وأشجار التفاح والسفرجل على مد النظر، بنى تيمورلنك في محاولة لتأكيد تفوق عاصمته على أي مدينة في الدنيا، مجموعة من القرى أطلق عليها أسماء أهم مدن المعمورة في ذلك الزمن. فكانت قرى تحمل أسماء دمشق ومصر وبغداد وشيراز وإشبيلية. غير أن الزمن لم يبقِ أي أثر لهذه القرى ولا لقلعة تيمورلنك وقصره. فقد طوتها الرياح، ونهبها اللصوص، ودمرتها أحقاد الناس. لكن بقي من مدينة تيمورلنك الزرقاء من العظمة ما يكفي خيال كل مسافر في الماضي على الطريق الذهبي وما يُشبع نظر كل من يصل إليها اليوم على الطريق الترابي. فقد زالت قصور المتعة وظلت قصور المعرفة تقف شامخة وسط سمرقند، وكأن في زوال الأولى وبقاء الثانية حكمة لا يدرك معناها إلاّ التاريخ.

□ □ □

قد تكون ساحة راغستان هي «أنبل ساحة في العالم» حسب وصف الزوار الأجانب الذين أموها في القرون البعيدة، ولكن أبنية المدارس الثلاث الرائعة التي تقف على زوايا الساحة الثلاث، بينما تركت الزاوية الرابعة مفتوحة، لا تترك مجالاً كبيراً للخيال وأنت تقف قزماً وسطها بينما تجيل ناظريك في هذه الفسيفساء الزرقاء.

والمدرسة، هي الجامعة التي يدخلها المسلمون ليتلقوا فيها العلوم من دينية وسواها، فيتخرجون فيها أئمة وعلماء وأساتذة وإداريين.

وكان مبنى المدرسة هو الأهم والأفخم والأبرز في ذلك العصر. ومفهوم المدرسة كمؤسسة منفصلة عن الجامع، بدأ في آسيا الوسطى، كذلك طرازها المعماري المتميز. وقد بدأه الأتراك السلاجقة في القرن الحادي عشر لترسيخ المفهوم السنّي للإسلام في وجه انتشار المد الشيعي. ومبنى المدرسة يحتوي عادة على إيوان داخلي في ساحة ذات قناطر مرتكزة على أعمدة. وتحت كل قنطرة غرف يعيش ويدرس فيها التلامذة والأساتذة، شبيهة بأديرة الزرادشتيين. وكلمة مدرسة دخلت إلى اللغة الأوزبكية وكل اللغات الإسلامية في آسيا الوسطى، حتى أصبحت مفردة كثيرة التداول.

ولعل أجمل مدرسة من المدارس الثلاث التي تحيط بساحة راغستان، هي مدرسة أولُوغ بيك، العالم الفلكي وحفيد تيمورلنك. وقد بناها بين العامي ١٤١٧ و١٤٢٠ غربي الساحة. وهي تعلو ضعف علو الأبنية المحيطة بها وبواجهة تزيد في عرضها على ثلثي عرض واجهتي المدرستين الأخريين. وكان أولوغ بيك يدرس هناك الرياضيات وعلم الفلك. وكانت مدرسته تضم مائة تلميذ. ولعل من سخرية الأقدار أن لينين زعيم الحزب الشيوعي هو الذي أنقذ مدرسة أولُوغ بيك من الاندثار، عندما أمر العام ١٩٢٢ بإقامة معمل للسيراميك في سمرقند لإصلاحها وترميمها. وفي العام ١٩٣٢ أصدر تعليماته بتجليس وإصلاح مئذنة المدرسة الشهيرة التي كانت قد شارفت على الانهيار.

فقد مرت مائتا سنة على بناء مدرسة أولوغ بيك قبل أن ترتفع

المدرستان الأخريان على جانبي ساحة راغستان. مدرسة شيردار ومدرسة تيلاكار، اللتان بناهما الأمير بلانغتوش باهادور، حاكم سمرقند الأوزبكي، واستمر بناؤهما ثلاثين سنة. ومدرسة شيردار (التي تعني الأسد الفارسي الذي يشبه النمر) بنيت بين العامين ١٦١٩ و١٦٣٦، ومدرسة تيلاكار (التي تعني المدرسة الذهبية) بنيت بين العامين ١٦٤٧ و١٦٦٠. ولعل أجمل ما في تيلاكار ليس أعمدتها وواجهتها الخارجية، بل المسجد الذي في داخلها المزركش بالذهب والأزرق الغامق. وقد أعيد ترميمه العام ١٩٧٩ بألف متر مربع من الورق المذهب. أما وجود المسجد داخل مدرسة تيلاكار، فيعود إلى ازدياد النفوذ الديني للعلماء والتركيز على الدراسات الدينية في مدارس آسيا الوسطى في القرن السابع عشر، فارضين تغييراً أساسياً في المنهج الدراسي، وخاصة في علوم القانون والسياسة. هذا النفوذ الذي لم يكن ممكناً لعلماء الدين أن يمارسوه في العهد التيموري.

وراغستان التي تعني «مكان الرمل»، كانت أيام تيمورلنك الساحة الرئيسية التي تعلن فيها بداية الحروب ونهايتها وتنفذ فيها الإعدامات، وتعرض فيها غنائم الغزوات والسبايا، وتقام فيها الأسواق وتفلش البضائع من مختلف أنحاء العالم. أما اليوم، وقد أقفلت المدارس والجوامع وأقام الناس أسواقهم على جوانبها وفي الأزقة الضيقة المحيطة بالمكان، فلم تعد راغستان أكثر من ساحة في متحف معماري كبير من زمان غابر، لا ترى فيه إلاّ أشباح النساء الأوزبكيات بملابسهن المرقّطة بألوان قوس قزح والمصنوعة من حرير بخارى، والرجال ينوءون بالقلنسوات الأوزبكية السوداء التي يعتمرونها من ورق مقوى، من دون أن تلفت نظرهم هيبة المكان

وروعته وعبء الإرث التاريخي الذي يرزحون تحته، مدركين أن زمانهم هو زمان آخر.

□ □ □

ليس من منافس لساحة راغستان في سمرقند، من حيث الروعة المعمارية، إلاّ مسجد بيبي خانم. وبيبي خانم، امرأة جميلة وأميرة صينية ذات بشرة شديدة البياض وشعر أسود فاحم، كما يصفها لنا دوكاليفو مبعوث الملك الأسباني إلى بلاط تيمورلنك. وكانت الزوجة المفضلة من بين زوجات تيمورلنك السبع. فعندما قرر تيمورلنك أن يبني لها مسجداً يكون الأروع بين كل مباني أمبراطوريته تعبيراً عن حبه لها، كان قد شارف على السنوات الأخيرة من عهده، فأراد أن يبني المسجد على عجل.

وبدأ بناء المسجد يوم ١١ أيار ١٣٩٩، وهو يوم اختاره المنجمون والعرّافون على أساس أن في طالعه الخير. وكان تيمورلنك وقتئذٍ عائداً من إحدى غزواته في الهند، ومعه غنائم تلك الحملة، فقرر أن يسخّرها كلها لبناء المسجد. فجمع من مختلف أنحاء أمبراطوريته مائتي مهندس معماري وبنّاء وحجّار ونجار وفنان يساعدهم ٥٠٠ عامل و٩٥ فيلاً من الهند، لنقل مواد البناء إلى مكانها. وكان شخصياً يراقب عملية البناء من محمله، ويرمي بالنقود وقطع اللحم والحلوى إلى المهندسين والعمال تشجيعاً لهم على السرعة في العمل. وأنجز بناء المسجد بقبته الكبيرة الزرقاء وساحته وأبوابه ومآذنه ومداخله الواسعة في خمس سنوات، وهو رقم قياسي في أي عصر.

لكن بيبي خانم كانت امرأة محسودة. ولأن مسجدها بُني على عجل، فقد بدأت أجزاء من حجارته الطينية وزخارفه وأخشابه

تتساقط حتى قبل بنائه، مما أرعب الناس، فقاطعه المصلون خوفاً من وقوع مزيد من الانهيارات عليهم. واستمر المسجد عبر السنين حتى نهاية القرن التاسع عشر حيث أصابته هزة أرضية، قرر رجال الدين على أثرها وقف الصلاة فيه وإخلاءه، وتحولت ساحة المسجد الرائعة إلى سوق للقطن.

ولم تكن بيبي خانم في حياتها مدار حسد كبير فقط، بل إن ثمة الكثير من الأساطير قد نسج حولها، حتى تداخل التاريخ بالحكاية. ولعل أجمل هذه الحكايات، أن مهندس المسجد كان شاباً وسيماً من مدينة مشهد في بلاد فارس وقع في غرام بيبي خانم، فطبع على خدها قبلة حارة إلى درجة أنها تركت أثراً وكأنها حرق على شكل شفتين. ولما رأى تيمورلنك ذلك أرسل جنده لقتل المهندس الشاب الذي فرّ إلى أعلى مئذنة في المسجد، وركّب جناحين صناعيين وطار بهما إلى بلدته مشهد. وتضيف هذه الحكاية أن تيمورلنك طلب من بيبي خانم أن تنفي خيانتها له بإلقاء نفسها من المئذنة عينها، فإذا بلغت الأرض سالمة أثبتت براءتها، وإذا ماتت فقد ثبتت إدانتها. ولما كانت بيبي خانم امرأة كثيرة الذكاء والحيلة والتدبير فقد ارتدت كل ثيابها، التي تقول الأسطورة أنها بلغت سبعين ثوباً، وألقت بنفسها من المئذنة، فوصلت سالمة إلى الأرض من غير أذى، لأن كثافة الثياب وفرت لها وقاية مظلية جوية وسماكتها شكّلت لها حماية عند الارتطام بالأرض.

وبنجاة بيبي خانم، عادت العلاقة بينها وبين تيمورلنك إلى سابق عهدها.

ولم يكن مسجد بيبي خانم هو البناء الوحيد الذي بناه تيمورلنك بسرعة قياسية، فقد هدم ضريح حفيده محمد سلطان، الذي قتل

في إحدى المعارك مع العثمانيين، لأن هندسته لم تعجبه وأعاد بناءه في عشرة أيام. وقد نجح في ذلك بعد أن شنق اثنين من معماريي المسجد، فخاف الآخرون على حياتهم وتمّ إنجاز ضريح الحفيد في الوقت المحدد.

وما أن انتهى بناء ضريح محمد سلطان، حتى أمر تيمورلنك ببناء أول سوبر ماركت في العصور الوسطى الذي هو عبارة عن سوق في شارع واحد يجمع كل أنواع البضائع المختلفة، وليس كما جرى التقليد في تلك العصور وبعدها، بأن يكون هناك سوق لبضائع معينة، كسوق الملح أو سوق التوابل أو سوق الخضراوات مثلاً. وتمّ إنجاز هذا السوق بكامل قبابه وأرصفته ودكاكينه خلال عشرين يوماً، بكلفة لا تتعدى قطع رؤوس أربعة مهندسين.

وإذا وقفت اليوم في سوق البلدية في سمرقند الملاصق لمسجد بيبي خانم، بين أكوام الرمان والبطيخ والعنب، التي تتسلق بارتفاعها الجدار الجنوبي للمسجد، تشعر أنك أمام مشهد رائع لهيكل ديناصور جميل يرفض أن ينقرض، وأن عملية ترميمه المستمرة ببطء شديد، لن تنتهي أبداً. وكأن تيمورلنك الذي أراد أن يقدم هذا المسجد هدية لزوجته المفضلة بيبي خانم، ما زال يبني إلى الآن في هذا المسجد من دون أن يستطيع أن يشنق مهندساً واحداً من مهندسي الترميم، في محاولة أخيرة ـ وربما يائسة ـ للإسراع في إنجازه.

□ □ □

كأن تيمورلنك قد أحس بأن بناء عاصمته الجديدة سمرقند قد اكتمل، فقام في كانون الثاني ١٤٠٥ بإعداد أكبر حملة عسكرية في تاريخ فتوحاته قوامها مائتا ألف رجل، وهدفها اختراق السور

العظيم واحتلال الصين، أغنى بلد في العالم. لكن على مسيرة ٦٤٠ كيلومتراً من سمرقند، وفي يوم من أيام شباط الباردة، مرض تيمورلنك. ومات بعد أقل من شهر من بدء زحفه نحو الصين. فكفّنه رجاله وعطروا جثمانه بماء الورد والمسك والكافور، وأرسلوه على جناح الليل إلى سمرقند، خوفاً من حزن جنوده. ودفن إلى جانب حفيده محمد سلطان في الضريح الذي أعاد بناءه، والذي أصبح ضريح الأسرة التيمورية كلها، وعرف باسم «غوري مير».

يقال إن تيمورلنك همس وهو يودع الحياة قائلاً: «شاهد من حجر فقط وعليه اسمي». وإذا بهذا الحجر الذي يغطي قبر تيمورلنك هو أكبر قطعة جاد في العالم من اللون الأخضر الغامق، إلى حد السواد، أرسلتها أميرة مغولية من جبال تركستان الصينية إلى سمرقند، طوله ١,٨ متر وعرضه ٤٣سم وبسماكة ٣٥سم، وقد كُسر قطعتين مع مرور الزمن. ودفن إلى جانب تيمورلنك معلمه الروحي مير سيد بركة، لذلك سمي الضريح بـ «غوري مير». كذلك دفن إلى جواره الابن الأصغر وخليفته شاه روح، وحفيده أُولوغ بيك. وكان شاه روح قد خلف أباه تيمورلنك بعد صراع على السلطة دام خمس سنوات، واختار مدينة هرات (في أفغانستان اليوم) عاصمة له، وعيّن ابنه أُولوغ بيك وصياً على العرش وحاكماً على سمرقند. وكان الابن العلاّمة أشهر من الأب.

هناك أسطورة أخرى تحيط بضريح تيمورلنك وهي أن كارثة ضخمة ستحيق بالبلاد في حال إزعاج تيمورلنك في مثواه الأخير وأنه في حال فتح القبر فإن غازياً أقسى من تيمورلنك وجحافله سيدمر البلاد. وانتشرت «لعنة تيمور» كأسطورة «لعنة الفراعنة» في أوساط الناس، وردعتهم عن سرقة القبر طوال قرون عديدة. إلى أن

جاء العالم السوفياتي المشهور ميخائيل غيراسيموف وقرر فتح القبر واستخراج جثة تيمورلنك وفحصها. وبالفعل هذا ما تمّ واكتشف غيراسيموف أن تيمورلنك كان أعرج في قدمه اليمنى، وفحص جمجمته وأخذ لها صوراً، ركّب لها وجهاً من قبل العلماء السوفيات فيما بعد، وصورها معروضة في متحف مرصد أولوغ بيك. وبينما كان غيراسيموف في ٢٢ حزيران ١٩٤١، يقوم بفحص الهيكل العظمي لتيمورلنك، دخل أحد مساعديه إلى القبر وقال له إن جيوش هتلر قد غزت روسيا.

□ □ □

لعل مرصد أُولوغ بيك، هو البناء الوحيد في سمرقند الذي تفوق قيمته الحضارية كصرح علمي قيمته الهندسية أو أهميته المعمارية. فبين العامين ١٤٠٩ إلى ١٤٤٩، أحال أُولوغ بيك عاصمة جده تيمورلنك إلى مركز للمثقفين، جمع فيه علماء الفلك والشعراء وعلماء الدين والشريعة وعلماء الرياضيات والفلاسفة والمهندسين المعماريين والخطاطين. فوراء جدران المدارس المزينة بالفسيفساء والقيشان وفي غرفها الصغيرة كان علماء الرياضيات والفلسفة مع علماء الفلك في مرصد أُولوغ بيك الدائري المبني على هضبة تشرف على العاصمة يحاولون حل معضلات السماء والأرض والوجود.

لكن رجال الدين المتعصبين لم تعجبهم حرية البحث العلمي كما هي عادتهم في كل عصر، والتي كان يرعاها أولوغ بيك، فحرضوا ابنه عبد اللطيف على قتله وتدمير مرصده. وتبع ذلك سنوات من الاقتتال بين الأسرة التيمورية.

وظل المرصد ضائعاً في غياهب الأرض قروناً طويلة، حتى جاء

العالم الروسي فلادمير فياتكين في العام ١٩٠٨، واكتشفه بعد دراسة مخطوطات تاريخية استمرت سنوات، مكتشفاً آلة السدس (من قبل اختراع التلسكوب) التي يقاس بها ارتفاع الأجرام السماوية، مطمورة تحت الأرض، والمصنوعة من حجر الرخام في حالة ممتازة وكأنها صنعت بالأمس إلى جانب جزء من السكة الحديدية التي كانت الآلة تتحرك عليها. وبني على الموقع نفسه متحف دائري صغير يذكر بإنجازات أولوغ بيك، يؤمه اليوم عند نهاية القرن العشرين السمرقنديون المتزوجون حديثاً للتبرك به، لسبب لم يفسره لي أحد.

□ □ □

بعد «المتروبوليس» الشهيرة التي بناها تيمورلنك في سمرقند، هناك مكان آخر يضاهيها هو «النكروبوليس» - أو مدينة الموتى - وهو حتماً مكان لا بد من زيارته في سمرقند يدعى «شاهي زندا» أو مزار الملك الحي، الذي هو عبارة عن مجموعة غرف أضرحة مغلقة، مزينة بالقيشاني الأزرق، تعد أجمل ما هو موجود في آسيا الوسطى. وكان تيمورلنك قد بنى «شاهي زندا» كمقابر ملكية له ولعائلته وأصدقائه، وجعلها آية في فن الزخرفة المعمارية. «شاهي زندا»، التي تحولت إلى مزار مقدس منذ القرن الحادي عشر، تقف على هضبة منخفضة، تصعد إليها بدرج حجري يمتد ٣٦ درجة حفرتها أقدام الحجاج والمتبركين، لتصل إلى ممر طويل تنتشر غرف الأضرحة على يمينه ويساره، وتشكل أبوابها الخشبية وبناؤها الداخلي أرقى أنواع العمارة بخطوطها العربية ورسومها الهندسية الإسلامية. لكن الذي يسترعي ناظريك وأنت تمر في هذه المدينة - المقبرة، كم هي حية وأنت تسبح في كل لون من ألوان الأزرق

الذي يمكن أن يبتدعه خالق ما! فكل ضريح من الأضرحة المنتشرة يشكل اتجاها مختلفاً من اتجاهات الهندسة المعمارية وأساليبها في ذلك العصر، فضريح شقيقة تيمورلنك شيرين، الذي بُني في العام ١٣٨٥، يشكل اتجاه فن العمارة الذي صممه الخوارزم في نهاية القرن الرابع عشر.

لكن أهم ضريح في «شاهي زندا» هو ضريح القثم بن عباس، ابن عم الرسول، الذي جاء مع الفتح العربي إلى آسيا الوسطى وأدخل قبائل سوغديانا في الإسلام. وهناك أسطورة حول القثم تقول إنه قفز حاملاً رأسه المقطوع الذي قطعه الزرادشتيون عبدة النار ونزل إلى بئر قريبة حيث يعيش هناك إلى اليوم، مستعداً ليقفز من جديد للدفاع عن الإسلام حين يتعرض للخطر. لكن يبدو أنه فشل في الصعود من البئر عندما استولى الشيوعيون على سمرقند، مما هزّ من سمعته قليلاً.

□ □ □

لكن سمعة الإسلام الحقيقية لم تنقذها إلاّ بخارى.

آخر مراكز
«اللعبة الكبرى»



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٧

غلمان في الطريق

بخارى مدينة ولدت في التاريخ وظلت في التاريخ. وهي مدينة نشأت في الصحراء وترعرعت في الصحراء. بل هي توأمة التاريخ مع الصحراء. هي وسط لا مكان، لكنها في وسط التاريخ، الذي ما زالت حكاياته يتناقلها الناس من رحالين ومؤرخين ومغامرين إلى اليوم.

وإذا كنت لم تسمع بسجاد بخارى، لا بد من أن تكون قد سمعت ما كان يقال في قديم الأزمان «إن النور يهبط عادة من السماء، أما في بخارى فإن النور يصعد إلى السماء». فبخارى «مدينة المعرفة» كما كانت تلقب، هي إلى اليوم بالنسبة إلى أهالي أوزبكستان «بخارى شريف»، بمئات المساجد والمدارس والمآذن التي تحتضنها.

فخلال أربعين سنة من حكم ابن تيمورلنك شاه روخ استطاع أن يحول قبائل أبيه البدوية إلى مجتمع متحضر في أمبراطورية مسلمة، سنيّة المذهب، عاصمتها السياسية حيرات (في أفغانستان اليوم)، وعاصمتها الثقافية والعلمية سمرقند، وعاصمتها الدينية والروحية

بخارى. وعندما توفي شاه روخ في العام ١٤٧٧، خلفه لفترة قصيرة ابنه أولوغ بيك، الذي كان حاكماً لسمرقند وبخارى خلال عهد والده. ولم تمر سنتان حتى اغتاله ابنه عبد اللطيف، بتحريض من رجال الدين المتعصبين، الذي اغتيل بدوره من ابن عمه عبد الله، الذي اغتيل أيضاً بعد فترة وجيزة من قبل ابن عم آخر له اسمه أبو السعيد. وأضعفت دورة الدم وهي تستسقي الدم عرش تيمورلنك وإرثه، فجاء الأوزبك وهم قبائل بدوية بقيادة محمد شيباني الحفيد الثاني لجنكيز خان شيبان من السهوب والصحراء الداخلية واحتلوا سمرقند وبخارى والأراضي والبلاد الواقعة بين نهرَيْ آمو ـ داريا وسير ـ داريا وجعلوها وطناً لهم، بعد أن طردوا الحفيد الثالث لتيمورلنك، بابور، فهرب من سمرقند إلى الهند وأصبح أول أمبراطور للمغول فيها، مؤسساً الأمبراطورية المغولية الأخرى.

واستمر الأوزبك الذين دخلوا الإسلام في مطلع القرن الرابع عشر، في بناء المساجد والمدارس في سمرقند وبخارى. وأصبحت بخارى محجاً لطلاب وحجاج يأتونها من الهند وكشمير والأندلس وبلاد الشام وفارس واليمن وتركستان. وحتى نهاية القرن الثامن عشر كان في مدارس بخارى ثلاثون ألف تلميذ. مما جعلها المدينة الجامعية الأولى في عالم ذلك القرن.

في مطلع القرن التاسع عشر، كانت روسيا القيصرية قد بدأت تزحف نحو آسيا الوسطى، حتى العام ١٨٦٨ حين ضمّتها إلى أمبراطوريتها وعزلتها عن العالم الإسلامي. حتى جاء العام ١٩٢٠ حيث نجح البلاشفة الشيوعيون في إسقاط حكامها الإقطاعيين وأغلقوا جميع مدارسها ما عدا واحدة فقط، ومنعوا الصلاة في

مساجدها ما عدا ثلاثة فقط. وعلى الرغم من أن النظام السوفياتي أعاد فتح بعض المساجد في عهد غورباتشوف، فهي بالطبع لم تعد ملتقى للحجاج أو مركزاً للعلوم الدينية. ومن اللافت للنظر أنك ما زلت ترى عدداً من المواطنين المسنين ـ كما وصفهم لورد كورزون في الثمانينيات من القرن الماضي ـ يتجولون في أزقة بخارى ودروبها الضيقة، «في وقار البطاركة وثياب الأمراء»، المعطف أو القباء التقليدي المقلم بالألوان، والجزمات الجلدية الطويلة إلى الركبة، واللحى البيضاء المهذبة والقلنسوات السوداء والملونة أو العمائم البيضاء. ثم يجلسون في المقاهي المحيطة بالحاووظ (أو برك الماء) يشربون الشاي الأسود الذي لا يُشرب!!

□ □ □

بالمقارنة تبدو بخارى اليوم في وضع أفضل من سمرقند، من حيث إن المدينة الجديدة لم تمحُ المدينة التاريخية الجميلة. فالمساكن الشعبية البروليتارية المبنية على الطريقة السوفياتية والأحياء السكنية التابعة لها بشوارعها العريضة لم تخنق مباني المدينة القديمة وأزقتها الضيقة المرصوفة بالحجارة. ولئن بدا مبنى الحزب الشيوعي المحلي هو الأبرز بين المباني، فالدرر المعمارية التي تزدحم بها بخارى من مختلف العصور، من ضريح الأسرة السامانية في القرن العاشر المبني من الطين المشوي، إلى برج قاليان الذي يبلغ خمسين مترا بحائطه المصمم من الآجر في القرن الثاني عشر، إلى مدارس العصر التيموري ومساجده المبلطة بالقيشاني والفسيفساء الزرقاء، لا زالت تسحر الزائر إلى درجة التساؤل كيف يمكن أن يسمح لتراكم حضاري كهذا أن يذوي وينهار؟ وإذ لم تعد بخارى مركز التقوى في آسيا فهي لم تعد أيضاً مركز التجارة. فصناعة السجاد اليدوي

البخاري التاريخية قد تحولت إلى مكننة متخلفة في صناعتها. ومصانع الحرير الطبيعي الذي اشتهرت به بخارى، تحولت إلى مصانع للحرير الصناعي الرخيص، لا يُلْبَس، وإن كان يباع بأسعار مغرية لا تزاحم.

أيام بخارى العظيمة كانت في العصر الساماني. والسامانيون أسرة قدمت من بلاد فارس، وكانت أول أسرة مسلمة لأول دولة إسلامية في آسيا الوسطى. وجعل السامانيون من بخارى المدينة ـ القدوة في كل آسيا الوسطى. وبحكم موقعها الاستراتيجي على طريق الحرير، أصبحت في عهدهم أهم مركز تجاري وثقافي في العالم الإسلامي. وامتدت أمبراطورية السامانيين من حيرات في الشرق إلى أصفهان في الغرب، وشملت منطقة هي باتساع أوزبكستان وطاجكستان اليوم، إلى جانب جزء كبير من أفغانستان وإيران. وكانت لغات البلاط الفارسية والعربية والتركية. وفيها عدد من المكتبات العامة يوم كانت الكتب تنسخ باليد. واحدة من هذه المكتبات الملكية، هي المكتبة التي عاش بين رفوفها ابن سينا قبل ألف سنة، فنظمها ودرس فيها وكتب كتبه الشهيرة التي غيّرت مجرى دراسات الطب والصيدلة في العالم.

ولعل غياب الآثار السامانية الكثيرة يرجع إلى ضعف عمليات التنقيب وإهمال الحكم السوفياتي لهذه المناطق، وسياسة طمس العلاقة العربية ـ الإسلامية، والتي كانت أحد أسس السياسة السوفياتية في الجمهوريات الإسلامية في آسيا. ولعل الأثر الوحيد البارز للتأثيرين المعماري والهندسي العربيين هو مقبرة تعود إلى القرن العاشر في وادي زرفشان في بخارى للأسرة السامانية. وقد نجا هذا الأثر الضخم، الذي هو عبارة عن ضريح مبني كله من

الطين المشوي ومزدان بكامله بالآيات القرآنية والخطوط الهندسية العربية محفورة على جدران عالية وقبة طينية كبيرة، إذ كان مدفوناً تحت الأرض وقد عثر عليه صدفة.

وأضرحة الأسرة السامانية التي شيدها مؤسس الدولة إسماعيل الساماني لأبيه نصر بن أحمد، هي اليوم من أهم معالم بخارى. إذ تقع وسط حديقة كبيرة وجميلة يؤمها الناس باستمرار وتعقد الأعراس فيها. ويدور عادة العروسان ثلاث دورات عكسية حول الضريح إذا أرادوا تحقيق أمنية ما. ويلقي الناس بالنقود من أبواب الضريح تنفيذاً لنذور. وقد صدف في أثناء وجودي هناك عرس جماعي لثلاث عائلات، وقد داروا حول الضريح ثلاث دورات وألقت كل عروس بالنقود من باب الضريح عند انتهاء الدورة الأخيرة. وقد شاهدت أكداساً من الروبلات مرمية حول الأضرحة، وقد تساءلت يا ترى مَنْ يأخذها؟ فرد أحد الأوزبكيين المرافقين لي بأنها كانت توزع على أعضاء اللجنة المركزية لفرع الحزب الشيوعي في بخارى.

□ □ □

وعلى أطراف حديقة كيروف، التي تشرف على سوق بخارى المفتوح، يقف مزار «شمشمة أيوب» أو نبع أيوب، الذي يقال أن النبي أيوب ضرب عصاه في ذلك المكان في زمن عمّ فيه القحط والجفاف بخارى، فانفجر نبع كبير ما زال الناس يشربون منه ويتبركون به. وقد بني حوله في القرن الثاني عشر مزار مؤلف من ثلاث قباب صغيرة يجمعها في الوسط صحن صغير، يدخله الناس لقاء روبل واحد. وحول «شمشمة أيوب» يلتف سوق بخارى الذي يبيع كل شيء، يخطر في البال من أنواع الفاكهة والخضار إلى

الطواقي الصغيرة السوداء التي يعتمرها أهالي أوزبكستان صيفاً وقبعات الأستراكان الجميلة التي يعتمرونها شتاءً. والأستراكان نوع خاص من أنواع الغنم، الذي لا يعيش إلاّ في واحتي قره قول وكتّقورغان في مناطق أوزبكستان وتركمانستان. ولا يأكل إلاّ الذرة. وقد فشلت محاولات نقل هذا النوع من الغنم إلى الصين أو إيران. ومن جلده الناعم ذي التجعيدة الخاصة تصنع القبعات الشهيرة.

والسوق يتعرج بطرقه الترابية إلى جانب سور بخارى، الذي كان حتى خمسين سنة مضت يلف المدينة كلها على امتداد ١٢ كيلومتراً وارتفاع عشرة أمتار. وكان سور بخارى يعتبر «مقدسا». وهناك قول مأثور لأهالي بخارى «مَنْ يَقُلْ أن سور بخارى غير مستقيم، فهو منبوذ من الله». وحتى العام ١٩٣٨، كان للسور أحد عشر باباً وقلاع وأبراج مراقبة. وقد انهارت كلها تحت وطأة الاستعمار الروسي ـ السوفياتي، وتوسيع المدينة و «تحديثها».

إلى جانب ذلك كانت أسواق بخارى المسقوفة الجميلة والأزقة المبلطة بالحجر والقباب الصغيرة المزركشة، التي ما زال بعضها يقاوم حتى اليوم حرب الفناء مع الزمن، تستقبل قوافل التجار من كل مكان في العالم عبر أحد عشر معبراً أو طريقاً، والتي جعلت منها الأغنى في كل آسيا الوسطى. في الوقت نفسه كانت هذه الطرق مركزاً للصوص القوافل من التركمان المختبئين في صحراء قره قوم، والذين ساهموا في القضاء على أهم طرق التجارة في العالم، في الوقت الذي اكتشف فيه البرتغاليون رأس الرجاء الصالح في القرن الخامس عشر، ولم تعد آسيا الوسطى الوسيط الذي يملك تقاطع الطرق، ويحتاج العالم إليه.

وبخارى، بكل شوارعها الضيقة وأسواقها وجوامعها، مدينة تبحث دائماً عن الظل والماء، نظراً إلى مناخها الحار والجاف، فالماء يحمل إليها من نهر زرفشان عبر أقنية مفتوحة إلى المدينة متصلة ببحيرات صغيرة تسمى «الحاووظ»، والتي تشكل مركز تجمعات سكنية. وأكبر هذه البحيرات هي «ليابي حاووظ» (أي البحيرة المقدسة) التي هي المركز وسط المدينة القديمة، والمحاطة بأشجار باسقة قديمة، تحيط بها المقاهي ـ أو «شاي خانة» ـ والمطاعم ويتفيّأ الناس ظلالها وهم جالسون على أسرة مرتفعة عن الأرض، يشربون الشاي الأسود أو يأكلون الأرز واللحم في مناسف صغيرة شبيهة بالمناسف العربية.

□ □ □

ويحيط بالجوانب الثلاثة للبحيرة المقدسة جوامع ومدارس تعود إلى القرن السادس عشر، أكبرها وأجملها مدرسة قوقلداش البسيطة الهندسة، يقابلها جامع ديوان بيغي المزخرف بأبدع أنواع القيشاني والفسيفساء الزرق اللون. وعلى العكس من سمرقند، حيث حولت المدارس الدينية والمساجد إلى متاحف، ظلت مباني بخارى التاريخية مفتوحة لاستعمال الناس، فمدرسة قوقلداش هي مكتبة أرشيف للبلدية، وجامع ديوان بيغي هو معرض للفنون التشكيلية المحلية، وصحن الجامع هو مقهى هادىء وجميل إلى أبعد الحدود.

ولعل برج قاليان ـ أو برج الموت ـ والمنطقة المحيطة به، هو الآخر من أجمل ما في بخارى. فإلى جانب البرج مدرسة مير عرب، وهي المدرسة الوحيدة التي استمرت كمدرسة دينية في بخارى، طوال الحكم السوفياتي، وقد بناها الشيخ مير عرب في العام ١٥٣٥.

وعندما دخلت ساحة هذه المدرسة الضخمة شبه المتهدمة، والتي تحيط بها أبواب لغرف بشكل زنزانات، تضم حوالى ٥٠٠ تلميذ يفدون إليها بعد انتهاء مرحلة الدراسة الإبتدائية، فيتعلمون العربية وأصول الدين والحديث لمدة خمس سنوات، يتخرجون بعدها إما لدراسات عليا في المعهد الديني العالي في طشقند أو يعملون أئمة جوامع صغيرة في مختلف أنحاء البلاد. وطلبت أن يريني الطلاب الذين تجمعوا حول الصحافي العربي القادم من «شام شريف»، الكتب التي يتعلمون فيها، أروني كتاباً اسمه «قاعدة بغدادي» لتعليم العربية مطبوع في طشقند العام ١٩١٧ مع شرح بالأوزبكية، وكتاباً آخر اسمه «عقيدة الإسلام» مطبوع في كراتشي في باكستان في السنة نفسها، مع نص باللغة الروسية، وبعض الشروح بالأوردية، وكتاباً ثالثاً اسمه «معلم ثاني» للألف باء العربية مع شرح بالأوزبكية المكتوبة بالحرف العربي، والتي لا يعرف أحد قراءتها اليوم، ومطبوع أيضاً في طشقند العام ١٩١٧.

عندها زاد فضولي أكثر للسؤال عن أية كتب أخرى عندهم، فقالوا إنها مجموعة مصاحف تبرعت بها السعودية وهي لا تكفي طلاب المدرسة كلهم. قلت لهم: وكتاب ابن بلدكم «صحيح البخاري»؟ أجابوا كلهم بصوت واحد بما معناه: يا ليت! فوعدتهم بإرسال نسخة منه إلى مكتبة المدرسة، وخرجت حزيناً عليهم وعلى بلادي.

وإلى الخلف من برج قاليان، هناك مدرسة أولوغ بيك التي بنيت في العام ١٤١٧، ومدرسة عبد العزيز، أحد حكام أسرة الجانيد، التي بنيت بعدها بقرنين. وهما متقابلتان، وكلاهما آية في الفن

المعماري، وإن اختلفت هندسة كل واحدة منهما اختلافاً كبيراً عن الأخرى.

□ □ □

إلاّ أن أهم ما في بخارى هو «القلعة»، المحاطة بسور طيني عمره ألف سنة، وفي داخله القصور والجوامع ومساكن الحريم ومخازن الأسلحة والمكاتب وثكنات الجند. وكان قد أحرق جزءاً كبيراً منه آخر خانات بخارى عبد السيد عالم وهو يفر من وجه القوات البلشفية، إلاّ أنه أعيد ترميمه ووصله بالبرجين الرئيسيين المحيطين بمدخل القلعة. وكانت تعلو فوق الباب ساعة من صنع الساعاتي الإيطالي جيوفاني أورالندو الذي صنعها للأمير نصر الله في القرن التاسع عشر. وقد قتل نصر الله جيوفاني لأن الساعة توقفت. لكن بعضهم يقول إنه قد قطع رأسه لأنه رفض اعتناق الإسلام.

لكن الأمير نصر الله نفسه الذي تولى حكم بخارى في العام ١٨٢٦ والقلعة دخلا التاريخ خلال فترة «اللعبة الكبرى»، الممثلة في الصراع الذي كان قائماً بين بريطانيا وروسيا في القرن التاسع عشر للسيطرة على آسيا الوسطى، حين أعدم نصر الله الكولونيل شارلز سودارت والكابتن آرثر كونولي البريطانيين. وكان سودارت قد جاء إلى بخارى في العام ١٨٤٢ في محاولة لإقامة تحالف بريطاني مع الأمير ضد الروس، لكنه أهان الأمير عندما دخل وهو راكب على حصانه بدل أن يكون راجلاً. وعندما جاء كونولي بعده في محاولة للعفو عن سودارت، أهانه أيضاً برفضه الخضوع للإسلام، فقتله أيضاً. وأدخل الكاتب الإنكليزي روديارد كيبلينغ

هذين «الجاسوسين» البريطانيين في أدب الاستعمار في روايته الشهيرة «كيم».

والحديث عن بخارى يبقى ناقصاً من غير الحديث عن مغامرة العصر التي كانت مسرحها، والتي حددت مسار الأحداث السياسية كلها في آسيا الوسطى في القرن العشرين. وكان زعيم هـذه المغامـرة أنـور باشا، أحد زعماء حزب تركيا الفتاة ووزير الحربية التركـي المهـزوم مـع حلفائه الألمان في نهاية الحرب العالمية الأولى.

في العام ١٩١٨ هرب أنور باشا بمساعدة أصدقائه الألمان إلى روسيا، بعد أن حكم بالإعدام في تركيا من قبل الغازي الجديد مصطفى كمال (أتاتورك). وفي موسكو سعى أنور باشا مع لينين للتفاوض على ميثاق بين البلشفية الروسية والقومية التركية موجه ضد الأمبريالية البريطانية، حيث اتفق على أن يساعده السوفيات الجدد في تولي قيادة الثورة التركية الجديدة ضد أتاتورك والسياسة البريطانية في المنطقة. وعلى الرغم من دعوة البلاشفة لأنور باشا إلى حضور «المؤتمر الأول لشعوب الشرق» الذي عقد في مدينة باكو عاصمة أذربيجان في الأول من أيلول ١٩٢٠ وبرعاية الكومينترن، وإلقائه خطاباً فيه، إلاّ أن الزعماء السوفيات بدلوا رأيهم فيما بعد عندما علموا بتعقيدات الوضع السياسي التركي. وقد أغضب هذا التبدل في الموقف أنور باشا، وجعله يحقد على حكام موسكو الجدد.

وفي صيف العام ١٩٢١ كان السوفيات قد عقدوا حلفاً مع حاكم تركيا الجديد مصطفى كمال، مما سبّب إحراجاً شديداً للسوفيات ولأنور باشا معاً. فعهد القادة السوفيات لأنور باشا بمهمة في آسيا

الوسطى، وهي مساعدة موسكو في استكمال سيطرتها على السكان المسلمين الناطقين بالتركية، في محاولة لإبعاده عن المسرح السياسي القريب في موسكو. وكانت المهمة التي عهد بها إليه نقيض كل ما يمثله أنور باشا في السياسة، التي هي تحرير الشعوب الناطقة بالتركية من الحكم الروسي. وكانت المهمة هي الذهاب إلى بخارى المضطربة لتهدئة الوضع فيها، بعد أن أخفق الهجوم الروسي على خانة بخارى الذي قام به سوفيات طشقند في آذار ١٩١٨، وساعدهم فيه حزب شباب «بخارى الفتاة» المعادي للأمير الرجعي أكثر مما هو موالٍ للشيوعيين.

كانت خانة بخارى في صيف العام ١٩٢٠ ـ أي السنة السابقة لإيفاد أنور باشا إليها ـ آخر حصن تبقى من حصون استقلال الناطقين بالتركية في آسيا الوسطى. وهي تمتد على مساحة تناهز ٨٥,٠٠٠ ميل مربع على الضفة اليمنى لنهر آمو ـ داريا، عند الزاوية الجنوبية الشرقية لتركستان الروسية، وخلف الحدود الجبلية الجنوبية والشرقية المحاذية لأفغانستان والصين، وعدد سكانها يتراوح في حينه بين مليونين وثلاثة ملايين نسمة، نجحوا في رفع مستوى بلادهم إلى ما فوق مستوى المناطق المجاورة المأهولة بسكان أتراك، وهي مناطق قليلة السكان. كانت بنيتها كمحمية روسية، قد تلاشت خلال ثورات العام ١٩١٧، وأعاد آخر أمرائها، عبد السيد مير عالم خان، تثبيت استقلال بخارى وتثبيت سلطات الحكم المطلق التي كان يمارسها أسلافه. لقد نميت إلى السوفيات شائعات عن تواطؤ بريطاني وراء تحدي الأمير لسلطتهم. والواقع إن الهند البريطانية أرسلت فعلاً حمولة مائة بعير من المؤن لمساعدة الإمارة. وقد هاجمت روسيا البلشفية بخارى في العام ١٩١٨، ولكن

جيش بخارى الصغير، وتعداده رسمياً ١١,٠٠٠ رجل، ربح الحرب القصيرة.

□ □ □

عندما حدث الهجوم البلشفي، كانت بخارى التي كانت خانة (أو إمارة) مستقلة منذ العام ١٧٥٣، لا تزال ثرية وحسنة التموين. وقد اشتهرت خانة بخارى على مر الزمن بخصوبة واحاتها وظلت عاصمتها ـ وتدعى أيضاً بخارى ـ أهم المراكز التجارية في آسيا الوسطى.

وفي أسواقها المسقوفة التي تبلغ سبعة أميال طولاً وتشبه نخاريب النحل، كان النشاط التجاري مستمراً كعادته. وكانت تعج بتبادل منتجات الحرفيين، والمعادن الثمنية، والجواهر، والسجاد والمنتجات الجلدية، والحرير، والعملات وكل أنواع المأكولات. وكانت بخارى مركزاً لتجارة المخطوطات النادرة، ومركزاً لدور الكتب، وحافظت على مكانتها كأكبر سوق للكتب في آسيا الوسطى.

ولكن أميرها، بعد انتصاره على البلشفيك في العام ١٩١٨ قطع التجارة مع روسيا فوضع بذلك نهاية لذلك الرخاء التجاري. ومع حلول العام ١٩٢٠ ساء وضع بخارى الاقتصادي ولم تعد قادرة على توفير الطعام لسكانها. وتفجرت النقمة الشعبية والنزاع الاجتماعي، بينما احتجت حركة سميت «حركة بخارى الفتاة» (كانت معارضة للتدخل السوفياتي) وحزب شيوعي أصغر حجماً من الحركة (كان مرحباً بالتدخل السوفياتي) على السياسات المتسمة بالجهل وأساليب القرون الوسطى التي يتبعها حاكم البلاد. وفي الواقع كان الأمير قد أعاد البلاد، من بعض النواحي، إلى القرون الوسطى، فقد أعيد استعمال برج قاليان أو (قاليان منارة أو

برج الموت)، الذي كان المجرمون المحكوم عليهم بالإعدام يقذف بهم من أعلاه في القرن الثاني عشر. وكان الأمير يحكم حكماً مطلقاً من قصوره، وسط غلمانه وحريمه، وبأسلوب لا يقل تعسفاً عن أسلوب أي من أسلافه.

انتهز الجيش الأحمر انعدام شعبية الأمير، فقرر التدخل. وفي صيف العام ١٩٢٠ هاجم بخارى مرة أخرى، وقصفت القوات الروسية بقيادة ميخائيل فرونزي، مدينة بخارى، وفيما كانت جماعة «بخارى الفتاة» تقوم بانتفاضة في المدينة، كان الجيش الأحمر بطائراته وسياراته المصفحة يشق طريقه إلى داخل المدينة بتاريخ ٢ أيلول، منهياً نظام القرون الوسطى في بخارى. وقد التهمت ألسنة اللهب المكتبة التي ربما كانت تحتوي على أعظم مجموعة في العالم من المخطوطات الإسلامية.

□ □ □

أما الأمير فقد تلقى في قصره اتصالاً هاتفياً نبهه إلى ما يحدث، فهرب مع حريمه وحمولة ثلاث مركبات من الذهب والحجارة الكريمة أخذها من خزائنه. تقول قصة رويت في ما بعد أن الأمير كان يترك وراءه عند نقاط على الطريق واحداً من غلمانه الذين يجيدون الرقص، لصرف انتباه مطارديه عنه وإبطاء مطاردتهم له. وكانت أولى نقاط توقفه منطقة التلال الشرقية، ومن هناك عبر الحدود لائذاً بأفغانستان.

بعد استيلاء روسيا السوفياتية على مدينة بخارى، أعلنت اعترافها بالاستقلال المطلق لجمهورية بخارى الشعبية، ولكنه كان اعترافاً شكلياً فقط. فقوات فرونزي بقيت في البلاد، وفرضت عليها مصادرات. وكان التدخل السوفياتي في شؤون بخارى مؤشراً إلى

دمجها في روسيا السوفياتية في نهاية المطاف. لقد قاوم قادة «حركة بخارى الفتاة» السيطرة الروسية وحاولوا تثبيت الاستقلال.

وفي التلال الواقعة في شرقي بخارى، بدأت جماعات البصمتشية (وتعني بالأوزبكية قطاع طرق) الموالية للأمير تقوم بمضايقة الفاتحين الروس، ولم تنشأ روابط حقيقية بين مختلف جماعات البصمتشية، مع ذلك شكّلت هذه الجماعات تحدياً للحكم السوفياتي، وعجز الجيش الأحمر حتى نهاية العام ١٩٢١ عن قمع هذا التحدي.

وكان أنور باشا قد وصل إلى بخارى في ٨ تشرين الثاني ١٩٢١، وقد عهد إليه الروس بدور يؤديه في تهدئة تركستان. وفيما كان مقبلاً على المدينة عبر بساتين الأشجار المثمرة، ومزارع البطيخ وكروم العنب وجنائن الورود ومزارع الخشخاش والتبغ تصور نفسه يدخل جنة عدن العقيدة الطورانية التي يؤمن بها: أي الوطن التاريخي للشعوب التركية. كانت بخارى عند فتحها مدينة عمرها قرون، محاطة بأسوار عالية من الحجر على امتداد ثمانية أميال، في أعلاها فوهات لمقاومة العدو، ومائة وواحد وثمانون برج مراقبة، وعدد أبوابها أحد عشر باباً، وكانت تشكل تجسيداً لفن العمارة في الماضي الإسلامي الذي يمجده أنور باشا. ومر زمن كانت فيه أقدس مدن آسيا الوسطى، ومساجدها الثلاثمائة والستون تمثل له عقيدته الدينية التي يشاركه فيها سكان المدينة، رجال يمارسون الشعائر الدينية ونساء يضعن الحجاب. ورجال بخارى يعتمون ويرتدون الأقبية التقليدية المخططة ويسمونها «خلاط»، في حين وصل أنور باشا ببزة عسكرية أوروبية الطراز. لكنه شعر أن رابطة الأخوة تجمع بينه وبينهم.

بل إن صلات القربى التي تجمعه بهم امتدت إلى حكومة بخارى

الجديدة. فلم يكن حزب بخارى الفتاة بعيد الشبه عن حزب تركيا الفتاة الذي كان أنور أحد قادته في إسطنبول. وكان لقادة مصلحين أمثال زكي وليدي طوقان البشكيري أتباع هناك، ولما غادر أنور المدينة بعد دخوله إليها بثلاثة أيام، أخذ معه كبار شخصيات الحكومة: رئيسها وقوميسار الحربية وقوميسار الداخلية. وقد زعم للروس أنهم ذاهبون في رحلة صيد. ولكنهم في الواقع يمموا شطر منطقة التلال في شرق بخارى، حيث اتصل أنور بأنصار الأمير. ثم إن الأمير عينه قائداً عاماً، وهكذا تسلم قيادة حزب البصمتشية من أجل الاستقلال عن روسيا.

□ □ □

صار أنور باشا بعد أن نال تأييد الأمير وقادة حزب بخارى الفتاة، في وضع يسمح له بالتأليف بين جميع الفئات، وانطلق مبعوثوه سعياً وراء عصابات البصمتشية في سائر أنحاء تركستان لتوحيدها تحت رايته. وكان هدفه المعلن إنشاء دولة إسلامية مستقلة في آسيا الوسطى. وكعادته شدّد على وحدة الشعوب الإسلامية. ورسالته الإسلامية القوية النبرة أكسبته تأييد رجال الدين، الذين التفوا حوله دعماً لقضيته، كما أكسبته تأييد جار ذي أهمية، هو أمير أفغانستان المسلم. بيد أن مواطن الضعف في شخصية أنور باشا عادت إلى الظهور. كان مغروراً مختالاً هاوياً للأزياء والأوسمة والألقاب. وقد أمر بصنع خاتم ذهبي يختم به الوثائق الرسمية، وحمل الخاتم لقب «القائد العام لسائر جيوش الإسلام، صهر الخليفة وممثل النبي». وما لبث أن لقّب نفسه أمير تركستان، وكان هذا تصرفاً لا يقود إلى علاقات حسنة مع الأمير الذي كان يدافع عن قضيته. وفي وقت ما خلال النصف الأول من العام ١٩٢٢ قطع أمير بخارى علاقاته

مع أنور، ومنع عنه القوات والأموال التي كان في أمس الحاجة إليها. ولم يبادر أمير أفغانستان إلى نجدته.

حققت ثورة أنور باشا بعض الانتصارات الأولى. فقد شنّ غارة جريئة على مدينة بخارى أوهنت عزيمة خصومه. وتقول بعض الروايات أنه تمكن من السيطرة على معظم أراضي بخارى، بينما تقول روايات أخرى أن أنور كان مجرد زعيم من عدة زعماء يقود عصابة لا يتجاوز عددها ثلاثة آلاف (من مجموع يقدر بستة عشر ألف رجل من البصمتشية المنتشرين في البلاد). والأمر الواضح هو أن نشاطاته، مؤثرة كانت أو غير مؤثرة، سببت قلقاً شديداً للكرملين.

في أواخر ربيع العام ١٩٢٢ كتب أنور باشا إلى حكومة روسيا السوفياتية طالباً إليها أن تسحب القوات الروسية وأن تعترف باستقلال دولته الإسلامية في تركستان، وعرض لقاء ذلك السلام والصداقة. لكن موسكو رفضت العرض.

وفي صيف العام ١٩٢٢ قام الجيش الأحمر، تساعده الشرطة السرية، بحملة تهدئة وكانت مواطن ضعف أنور عاملاً مساعداً في هذه الحملة. ظل أنور القائد العسكري هبة من الله للجانب الآخر، وظل أنور السياسي أخرق بالقدر عينه. لقد أبعد زعماء البصمتشية الآخرين، وكثيرون منهم انقلبوا عليه. وما أن حلّ منتصف فصل الصيف حتى كان الروس قد قضوا على أتباعه فلم يبقَ منهم سوى فئة صغيرة من الطرائد.

أخذ الجواسيس الروس والدوريات الروسية يقتفون أثره في الشعاب الضيقة، وفي النهاية اهتدوا إليه في مكمنه الجبلي، وسرعان ما

طوق الجيش الأحمر قواته، وفجر ٤ آب ١٩٢٢ بدأ الجنود السوفيات الهجوم فتشتت رجال أنور باشا.

الروايات عن موت أنور باشا متعددة، أكثرها إقناعاً تقول إنه عندما شن الروس هجومهم قبض على المصحف الذي يحمله في جيبه وكعادته اندفع إلى الأمام مهاجماً. بعد ذلك عثر على جثته المتعفنة على أرض المعركة، وقد انتزع المصحف من بين أصابعه التي جمدها الموت وضُمّ إلى محفوظات الشرطة السرية السوفياتية. ولا يزال هناك.



هناك مدن من الأفضل أن تسمع بها أو تقرأ عنها بدلاً من أن تراها. بخارى ليست واحدة منها.



قاموس بدائي


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٨

القليل من الفائدة، الكثير من الطرافة

صحيح أنني لست لغوياً ولا عالماً بالألسنيات، إلاّ أنه استهواني إحصاء مجموعة من المفردات الأوزبكية، التي كانت الأكثر تداولاً في سمعي خلال رحلتي بين سمرقند وبخارى وخيوا وطشقند. والأوزبكية، أياً كانت أصولها التاريخية، هي لغة تركية في الأساس، مشتقة من لغة التشاغاتاي، أو ما يسمى بالأوزبكية القديمة، وهي اللغة الأدبية في آسيا الوسطى حتى مطلع القرن العشرين. وكانت تكتب بالحرف العربي إلى العام ١٩٢٠، حيث تمّ تطوير الأوزبكية إلى لغة أدبية جديدة جمعت بين الفارق الثقافي واللغوي للهجة أهل المدن (الأوزبك السارت) ولهجة أهل الريف (الأوزبك البدو). وفي العام ١٩٢٣، ولدت اللغة الأوزبكية الأدبية الجديدة التي حلّت محل اللغة التشاغاتية.

وظلت اللغة الأوزبكية في أساسها أقرب لغة إلى التركية، لكنها أدخلت إلى مفرداتها مجموعة كبيرة من الأسماء والمصطلحات العربية والفارسية والروسية إلى جانب التركية. وقد استندت في

قاموسي البدائي هذا إلى سمعي بالدرجة الأولى، وما استوضحته على عجل من مجموعة تلاميذ التقيت بهم في مير عرب في بخارى. و «أساس» هذا «القاموس» هو الكلمات التي اعتبرتها متداولة في عاميتنا العربية في المشرق على الأقل. وقد استبعدت منه المفردات الإسلامية البديهية، التي هي مفردات عربية بالطبع، والمستعملة في كل لغات العالم الإسلامي.

وقد ردَدْت كلمات هذا «القاموس» إلى أصولها الأساسية، التي هي: العربية، وقد رمزت إليها بحرف (ع). والفارسية، وقد رمزت إليها بحرف (ف). والتركية، وقد رمزت إليها بحرف (ت). والروسية، وقد رمزت إليها بحرف (ر).

وقد تكرم قارىء كريم من الكويت ملم باللغة الفارسية هو السيد محمد عبد الله الرحماني فقام بتصحيح طريقة كتابة أو معاني ما التبس عليَّ فهماً أو نطقاً، أو في إرجاعها إلى أصولها السابقة، بعد أن اطلع على هذا «القاموس البدائي» في الصحافة العربية حين تم نشر هذه الرحلة في حينه.

ولعل في هذا القليل من الفائدة، والكثير من الطرافة.

قاموس

آب: (ف) ماء.

آباد: (ف) مدينة. مكان معمور. تستعمل نهاية تسمية لمكان تجمع. مثلاً: حيدر أباد (أي مدينة حيدر).

آجي: (ت) مُرّ.

آلاّ: (ت) متعدد الألوان.

اباراتشيكي: (ر) موظف حكومة. حزبي. إداري سوفياتي.

أرغالي: (ف) أعشاب برية. نوع من الأغنام تعيش في الجبال.

أروة: (ع) مكان الإقامة. بيت الضيافة.

أريق: (ت) قناة ماء.

أق: (ت) أبيض.

أقسقال: (ت) لحية بيضاء. رجل مسن.

أمير: (ع) أمير ـ ملك ـ حاكم.

أوبلاست: (ر) مقاطعة. منطقة إدارية في الاتحاد السوفياتي.

أردو: (ف) قوة عسكرية ضاربة. كانت تستخدم أيام تيمورلنك.

أردوكاه: معسكر.

أورروس: (ت) روسي. أي أوروبي.

أوكرانا: (ر) البوليس السري (المخابرات) في عهد القياصرة الروس. تستعمل اليوم بديلاً من تعابير المخابرات السوفياتية المتعددة كالـ «ك.ج.ب» وغيرها.

أولْ: مكان موقت لخيام البدو. مخيّم.

باتير: (ت) لص ـ لص ماشية تحديداً.

بازار: (ف) سوق. أسواق.

بازارجيك: (ف + ت) بائع في السوق.

باشي: (ت) زعيم. قائد. رئيس قافلة.

باكسي: (ت) طبيب. عالم طب.

برانجه: (ت) قميص فضفاض تلبسه المرأة.

بصمتشي: (ت) قاطع طرق.

بطّو: (ت) نوع من أنواع الصيد بالحيوانات أو الطيور.

بلعة: (ف) فوق. مكان عالٍ. تُلفظ «بالا».

بلعة خانة: (ف) سقيفة. بلكون. غرفة أو غرف فوق سطح المنزل. تلفظ «بالاخانة».

بنج: (ف) خمسة.

بوران: (ت) عاصفة رملية.

بوظة: (ت) مشروب مُسكِر مصنوع من حليب الفَرَس.

بولاق: (ت) نبع ماء.

بُلُوه: (ف + ت) أرز مطبوخ بالسمن مع الدجاج أو اللحم.

بوماغا: (ر) جواز سفر. هوية.

بيك: (ت) مأمور حكومي تركي.

تَبَهْ: (ف) هضبة.

تاش: حجر. مسافة رحلة يوم.

تافريش: (ر) رفيق.

تنك: (ف) ضيق. مستقيم.

ترانتاس: (ر) عربة روسية بأربع عجلات تجرها الخيل.

تورا: (ت) سيّد. معلّم.

تورسوك: (ت) قربة ماء. قربة منفوخة لتعليم السباحة.

تل: (ت) عريشة عنب.

تُومِن: (ت) وحدة عسكرية قوامها ١٠,٠٠٠ عسكري، كانت تستعمل أيام المغول، واليوم تعادل كتيبة في الجيوش الحديثة.

حاووظ: (ع + ف) خزان ماء. بركة ماء. وتلفظ بالفارسية «حوظ».

حجي أو حاجي: (ع + ف) حاج إلى مكة.

حرام: (ع) حرام. ممنوع لأسباب دينية.

حضرة: (ع + ف) رجل نبيل، محترم. لقب يسبق عادة أسماء الأولياء والكبار.

خان: (ت + ف) لقب يطلق على رئيس قبيلة أو عشيرة.

خانة: (ف) إمارة. منزل. مكان إقامة.

خاجة: (ف) رجل محترم. تاجر.

خورجين: (ف) معطف. خرج.

داب: (ت) قانون ـ نظام. (تحريف لكلمة أدب بالعربية والفارسية).

داغ ـ ماتاغ: (ت) جبل، سلسلة جبال.

دشت: (ف) صحراء.

ده: (ف) قرية.

ديل: (ف) قلب.

دين: (ع + ف) دين ـ أديان.

رباط: (ع) فندق. مكان إقامة.

رباط باشي: (ع + ت) صاحب فندق.

رود: (ف) نهر.

زَرْ: (ف) ذهب.

زندان: (ف) سجن.

سراي: (ف) قصر الحكم. مكان وجود الحاكم.

سارق ساري: (ت) أصفر.

ستان: (ف) مكان بلد أو شعب ما. (مثلاً: أوزبكستان ـ بلاد الأوزبك).

سورناي: (ف) ناي. آلة موسيقية من قصب.

شول: (ت) صحراء.

شهر: (ف) مدينة. مثلاً: «شهر بغداد» تعني مدينة بغداد الخ...

شار: (ف) أربعة. وتلفظ «جهار».

شاي: (ت + ف) مشروب الشاي. يشربه سكان آسيا الوسطى مع الملح والدهن. وتلفظ «جاي» أو «تشاي».

شاي: (ت) نهر.

شاي خانة: (ف) مقهى. مكان لشرب الشاي.

شاي شيرين: (ت) شاي حلو يشرب بالسكر.

شاي خانجي أو شاي خانجيشيك:

(ف + ت) صاحب مقهى يبيع الشاي.

شريف: (ع) شريف. لقب ديني.

شيشليك: (ت + ف) لحم مشوي على السيخ.

ششمة: (ت) نبع ماء.

شمات: (ت) خمار امرأة مصنوع من شعر ذنب الخيل.

شمس: (ع) الشمس.

شوشكا: (ت) خنزير.

شير: (ف) الأسد.

شيردل: (ف) قلب الأسد.

شيليم: (ف) نارجيلة. أركيلة.

عربة: (ع) عربة، تجرها الخيول.

عيران: (ت) شراب اللبن. لبن مروّب، مخلوط بالماء.

غول أوكُلْ: (ف) زهرة.

فرنجي: (ف) أجنبي.

قايا: (ت) صخرة.

قرقول: (ت) مخفر. مركز مراقبة.

قشلاق: (ت + ف) مخيم شتوي للبدو. مضرب لإقامة مؤقتة.

قلعة: (ع + ف) قلعة.

قم: (ت) رمال. صحراء.

قند: (ف) مدينة أو قرية. أو سكر على شكل مكعبات.

قيزيل: (ت) أحمر.

قند ـ جند: (ت) قرية. مدينة صغيرة.

قورت: (ت) قشطة الحليب. مشروب آخر معروف في آسيا الوسطى.

قوش بيغي: (ت) رئيس وزراء.

قوميس: (ت) حليب الفَرَس. مشروب تقليدي في آسيا الوسطى.

كاثيدرا: (ر) كنيسة أرثوذكسية.

كافر: (ع) كافر، ملحد ـ من غير المسلمين.

كارافان ساراي: (ت) أو كارونسرا:

(ف) نزل أو خان ينزل فيه المسافرون أو تأتي إليه القوافل.

كريستيانن: (ر) مسيحي أرثوذكسي. فلاح روسي.

كوتشاك: (ف) صغير.

كورت: (ف) حشرة.

كومنشة: (ف) كمنجة. آلة موسيقية.

كوه: (ف) جبل.

لافدا: (ر) دير أرثوذكسي.

مدّاح: (ع) الراوي المحترف.

مدرسة: (ع) مدرسة لتعليم القرآن والدين الإسلامي.

مزار: (ع) قبر. مقام. ضريح.

مفتي: (ع) مفتي. فقيه يفتي في الإسلام.

مقارنة: (ع) قرنة. زاوية هندسية في المعمار الإسلامي.

مقدّس: (ع) مقدّس. لقب ديني.

مُلا: (ف) رجل دين إسلامي.

منقل: (ع) منقل. حوض لإشعال النار.

مؤذن: (ع) مؤذن في مسجد.

مُرْغ: (ف) دجاجة.

مولانا: (ع) رجل دين مسلم. لقب يستعمل لغرض التفخيم والتعظيم.

ميان: (ف) وسط.

ميرزا: (ف) كاتب. موظف.

ميرزاباشي: (ف) رئيس الكتبة. سكرتير خاص.

نان: (ف) خبز.

نَوْ: (ف) جديد.

نقارة: (ع) طبل. نوع من الطبول كان يستعمل أيام المغول.

نهان: (ف) مركز إقامة أو قد تعني مخفي بالفارسية.

نومنكلاتورا: (ر) الطبقة ذات الامتيازات في الاتحاد السوفياتي.

يورت: (ت) مضرب، أو خيمة تقليدية تقوم على أعمدة خشبية، ولها شكل قبة، تستعمل في آسيا الوسطى.

أوزبكستان

عدد السكان: ٢٠,٣٢٢,٠٠٠ نسمة

المساحة: ٤٤٧,٠٠٠ كيلومتر مربع

التركيبة السكانية		
	٧١,٤ بالمائة	أوزبك
	٨,٣ بالمائة	روس
	٤,٧ بالمائة	طاجيك
	٣,٣ بالمائة	تتر
	٤,١ بالمائة	قزاق
	٠,٥ بالمائة	يهود
	٠,٢ بالمائة	المان
	٠,٦ بالمائة	تركمان
	٠,٣ بالمائة	أرمن
	٠,٤ بالمائة	أزيريون
	٠,٨ بالمائة	أوكران
	٠,٩ بالمائة	قرغيز
	٠,١ بالمائة	بلغار
	٤,٥ بالمائة	قوميات أخرى

التركيبة الدينية: الأغلبية مسلمون سنيون على المذهب الحنفي، مع مجموعات شيعية اثني عشرية صغيرة في الأرياف.

المصدر: «ايكونوميست التليجنس يونيت»
(١٩٩٠/١/١)

طاجيكستان

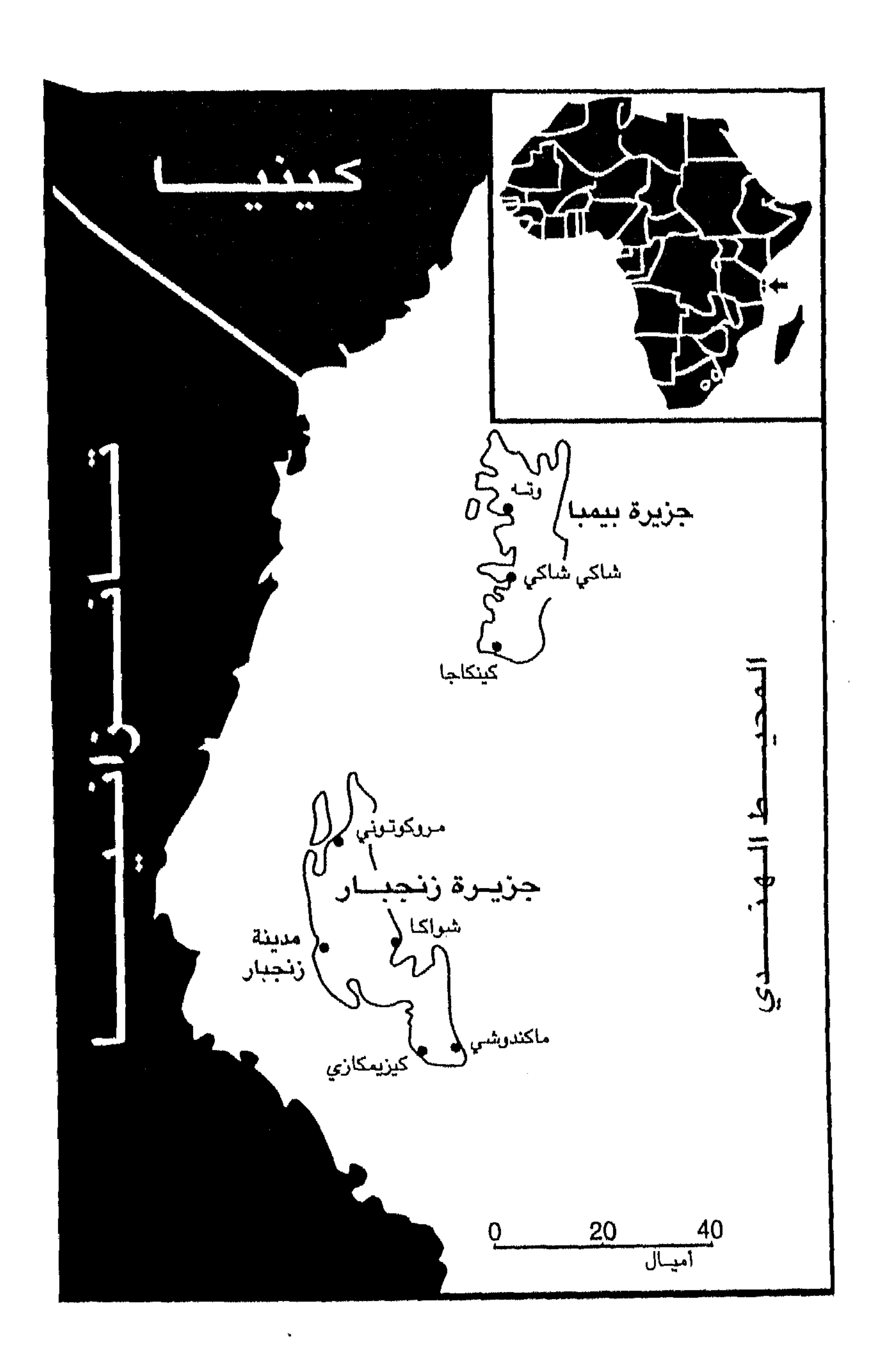
عدد السكان: ٥,٢٤٨,٠٠٠ نسمة

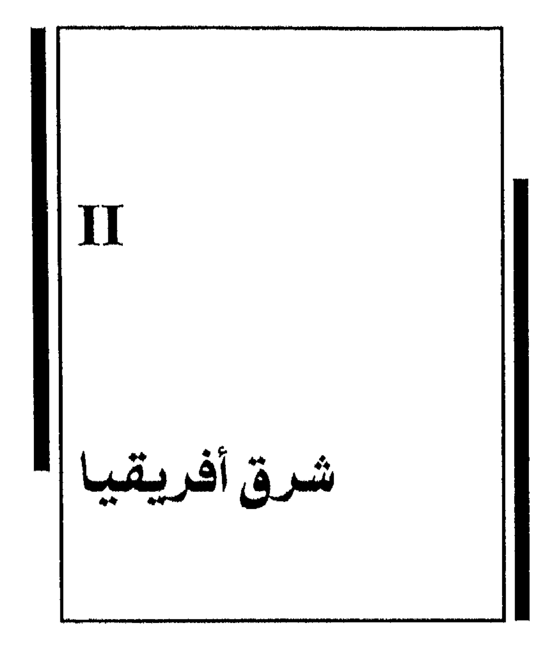
المساحة: ١٤٣,٠٠٠ كيلومتر مربع

التركيبة السكانية		
	٦٢,٣ بالمائة	طاجيك
	٢٣,٥ بالمائة	أوزبك
	٧,٦ بالمائة	روس
	١,٦ بالمائة	تتر
	١,٣ بالمائة	قرغيز
	٠,٣ بالمائة	يهود
	٠,٦ بالمائة	ألمان
	٠,٨ بالمائة	أوكران
	٠,١ بالمائة	بلغار
	٠,٤ بالمائة	تركمان
	٠,٢ بالمائة	قزاق
	٠,١ بالمائة	أزيريون
	٠,١ بالمائة	أرمن
	١,٠ بالمائة	قوميات أخرى

التركيبة الدينية: الأغلبية مسلمون سنيون على المذهب الحنفي، مع مجموعات شيعية اثني عشرية في دوشنبيه ولينين أباد، واسماعيليين ونزاريين في منطقة غورنو ـ بدخشن.

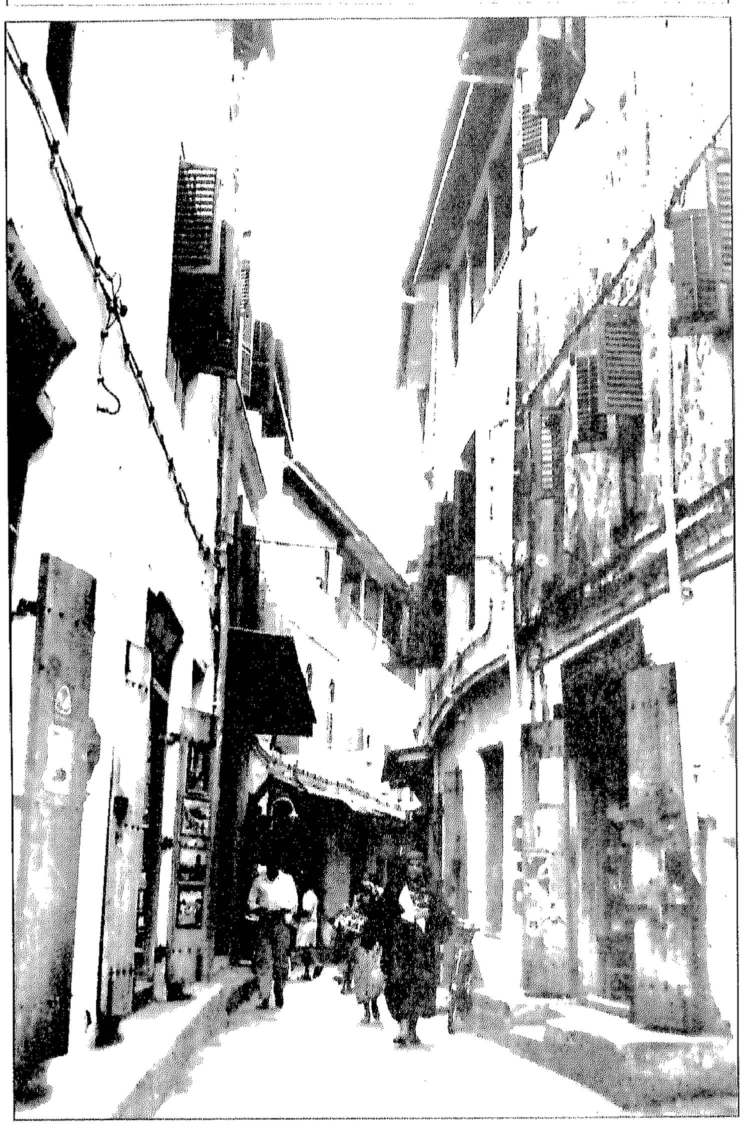
المصدر: «ايكونوميست انتليجنس يونيت»
(١٩٩٠/١/١)


كينيا
تانزانيا
جزيرة بيمبا
وتي
شاكي شاكي
كينكاجا
المحيط الهندي
مروكوتوني
جزيرة زنجبار
شواكا
مدينة
زنجبار
ماكندوشي
كيزيمكازي
0
20
40
أميال

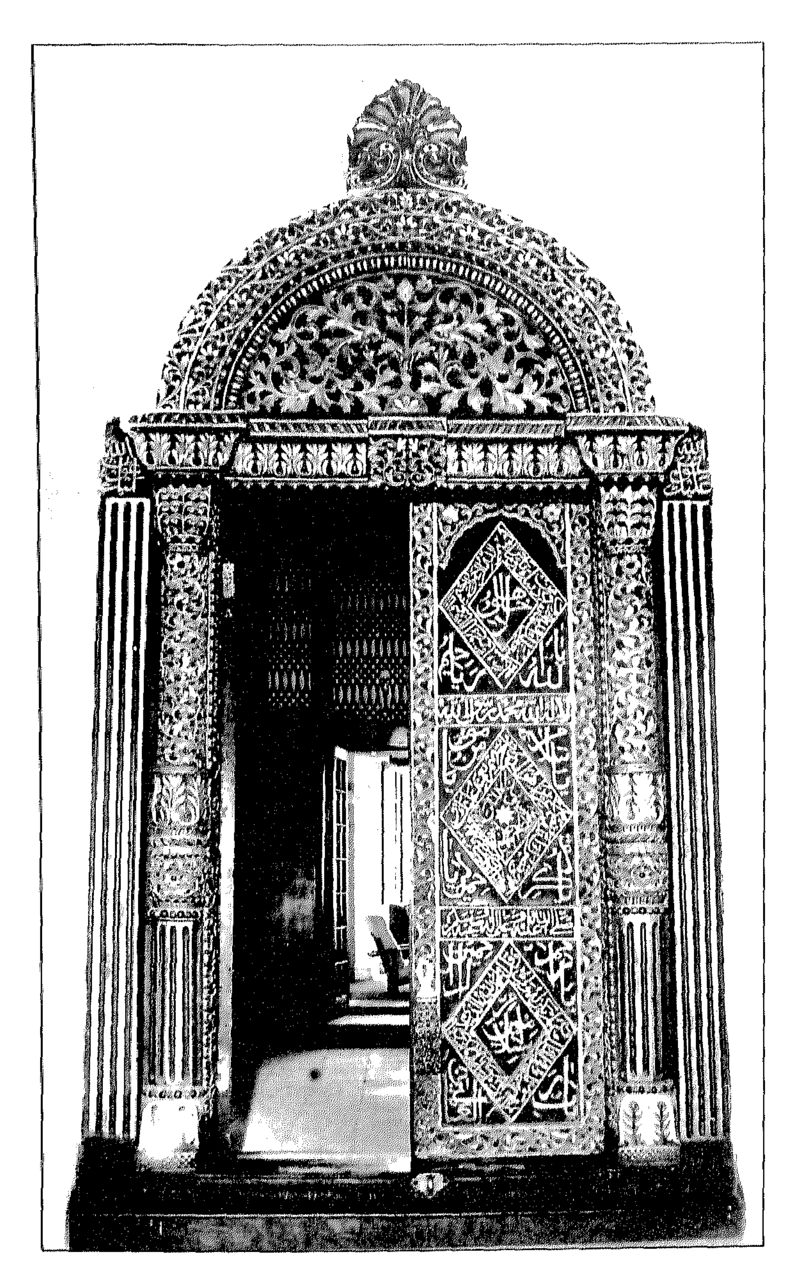

II
شرق أفريقيا



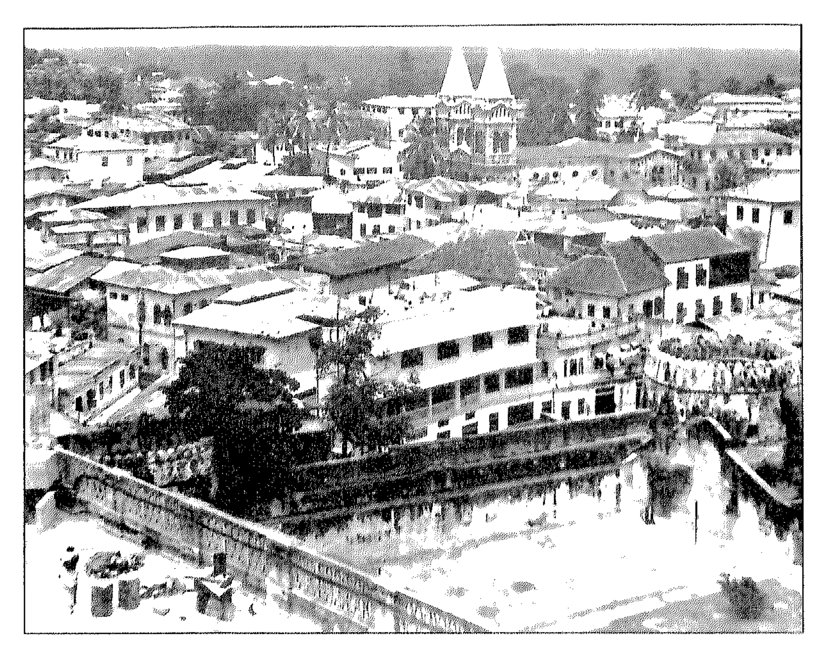
مشاهد من زنجبار



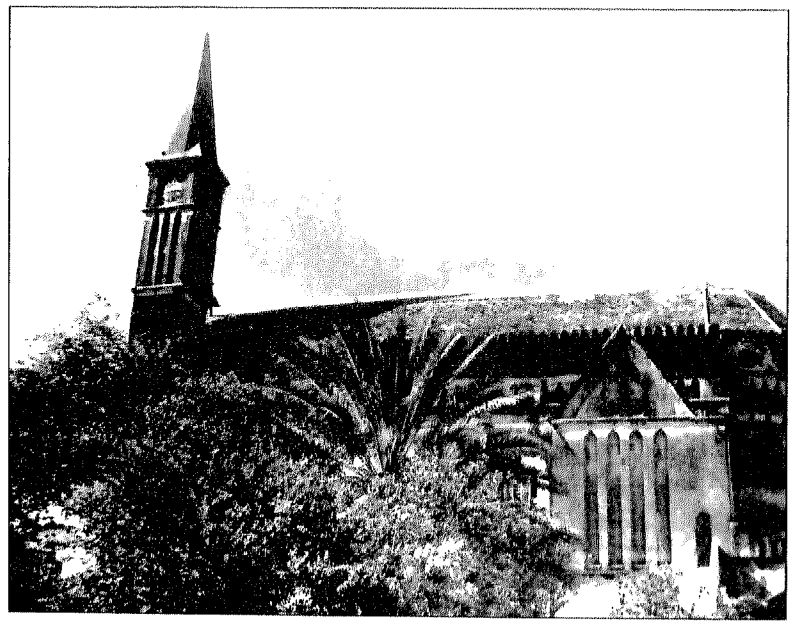
زقاق في بلدة الحجر



أحد أبواب زنجبار الشهيرة في بيت «العجائب»



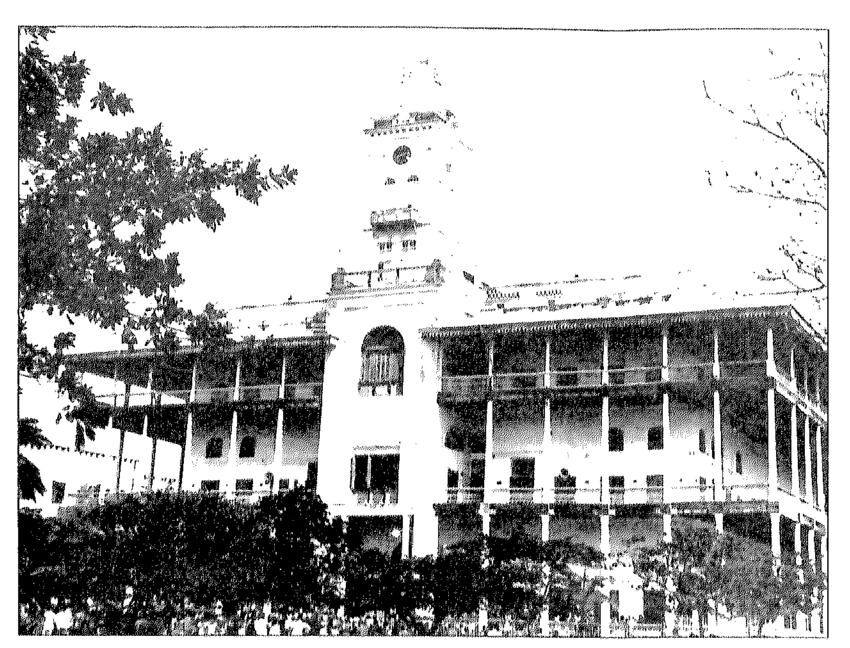
منظر عام لبلدة الحجر



الكنيسة الأنغليكانية في ساحة سوق العبيد



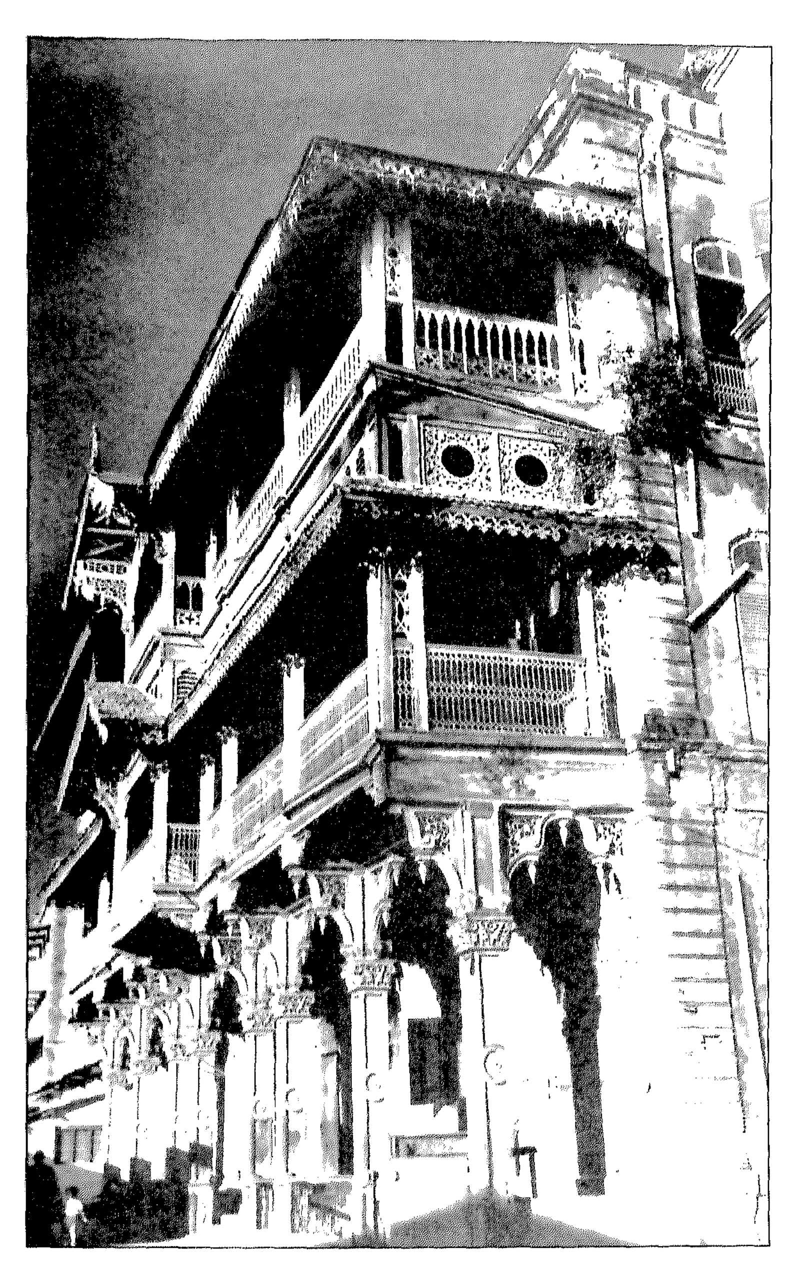
زنجباريان باللباس العُماني التقليدي



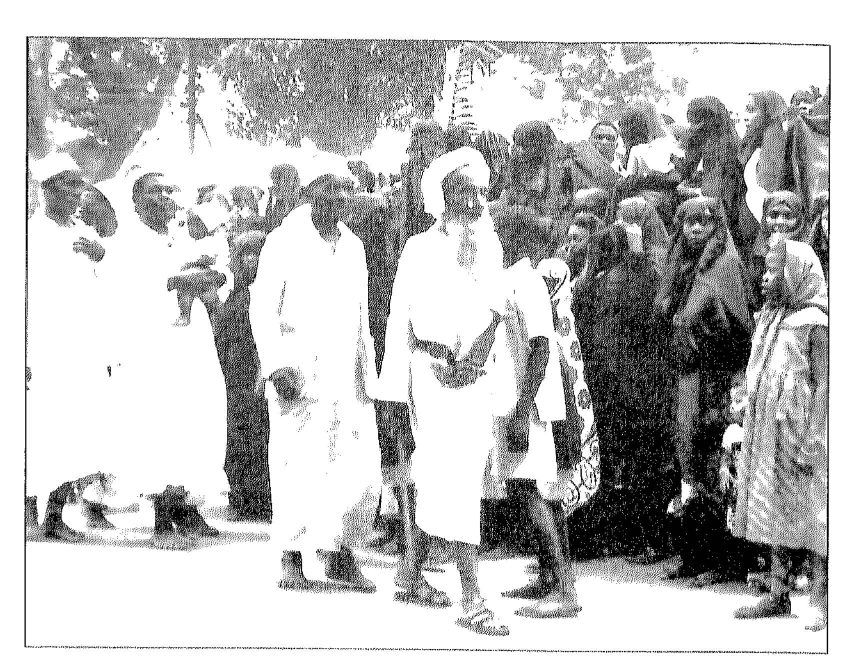
قصر بيت العجائب



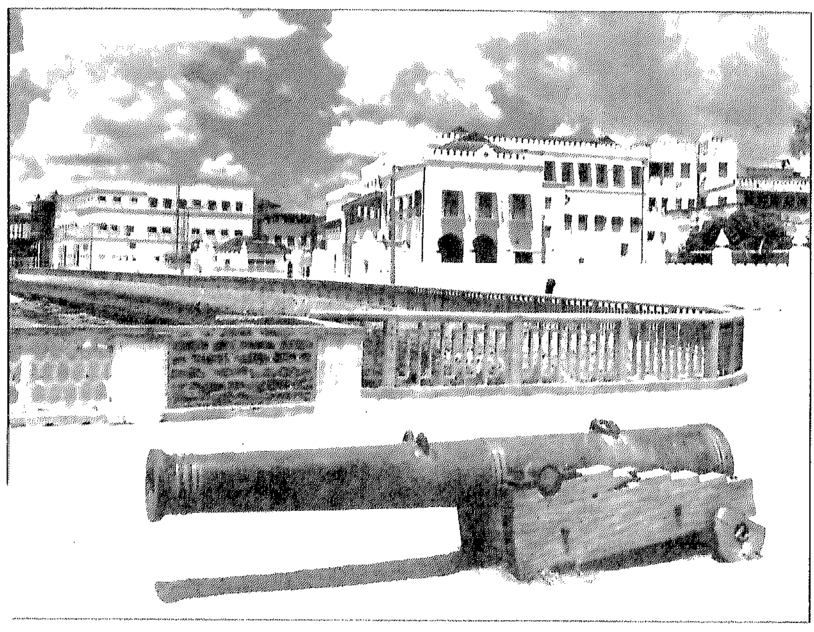
من احتفالات «النيروز الشيرازي»



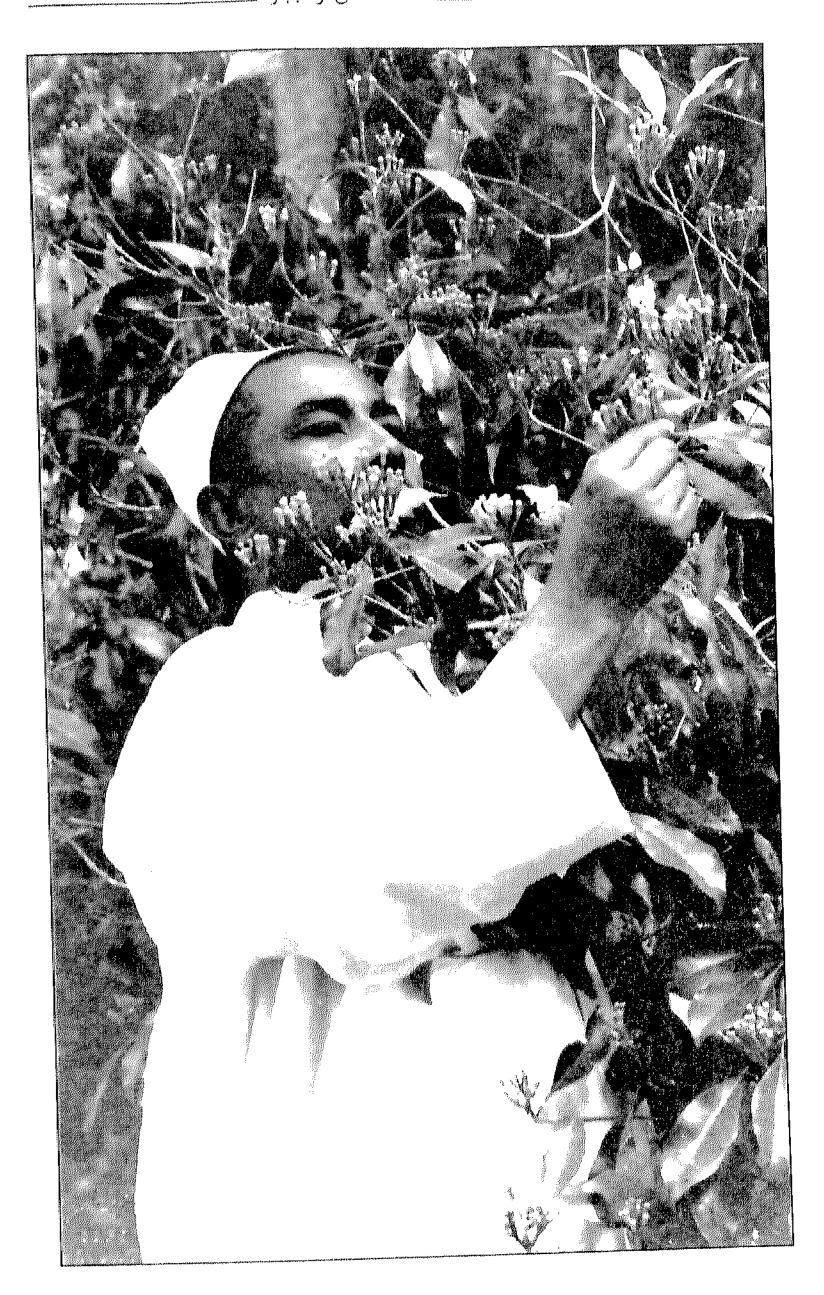
المستوصف القديم



مشهد من أحد الاحتفالات



مدفع برتغالي قديم أمام متحف القصر



عامل يقطف كبش القرنفل في إحدى المزارع

... في
وصف زنجبار



١

أشباح التاريخ العربي

لم تكن فطومة في استقبالي عندما حطّت بي الطائرة في مطار زنجبار الصغير، قادمة من مومباسا.

وبالطبع لم أكن لأتوقع أن تكون الملكة فطومة بانتظاري هناك، وقد زال مُلكها في الجزيرة من قبل أكثر من ثلاثمائة سنة، عندما حكمت الجزء الشمالي من زنجبار (حيث يقع المطار والمدينة) وحكم شقيقها الملك بكري الجزء الجنوبي. والملكة فطومة (أو «موييني مكوو» كما كانوا يلقبون ملوك الجزيرة) كانت حليفة البرتغاليين ضد العرب. ولما انتصر العرب على البرتغاليين نفاها العُمانيون إلى مسقط. وظلت فطومة تعيش في المنفى العُماني ١٢ سنة كاملة، إلى أن عادت إلى بلادها مع تغيّر الظروف السياسية، لتستعيد دورها كملكة[1].

لكنني كنت أتوقع فطومة أخرى، زميلة صحافية تعمل في جريدة «الدايلي نيوز» الصحيفة الإنكليزية الوحيدة في الجزيرة، ودليلتي إلى مجاهل بلادها. لم تكن فاطمة أمير محمد هناك لتساعدني على

إنهاء معاملات المطار، الذي وصلته في التاسعة ليلاً والكهرباء مقطوعة، والمسافرون يملأون القاعة وقناديل «اللوكس» القديمة تتربع على طاولات موظفي الجوازات والجمارك والصحة. وسط هذا الظلام، تذكرت بيروت ومطارها أيام الحرب اللبنانية العبثية، مع فارق بسيط أن في مطار بيروت كان هناك مَنْ يعرفنا في تلك الأيام العصيبة، أما في زنجبار، فمَنْ يعرف هذا الصحافي القادم من بيروت؟

ولما لم أكن أعرف شكل فطومة الصحافية رحت أتفرس في شبه ظلمة في الوجوه المستقبلة في المطار لعلني بحاسة ما، سادسة أو سابعة، أتميز وجه زميلتي الزنجبارية، أو هي تميزني، وسط هذا الرهط الكبير من المسافرين. وتذكرت أنني عندما وصلت سمرقند في خريف العام ١٩٩٣، أنه كان في استقبالي في المطار ـ وكان الوقت نهاراً ـ مرافقة سياحية كان اسمها فاطمة ـ وتلفظ هناك «فاتيما» ـ وهي فتاة طويلة شقراء جميلة، ذكرت لي أن أمها روسية وأباها أوزبكي مسلم. لمع في خيالي وجه «فاتيما» السمرقندية لعلني أستنير ببعض الضوء منها في البحث عن «فطومتي» السمراء.

ولما حاذيت الباب الخارجي للمطار، وقد بدت عليَّ ملامح الزائر الغريب القلق الذي لا يعرف عمَّنْ يبحث ولا أين يتجه. اقتربت مني صبية سمراء ذات ملامح عربية، ليس فيها شيء من الزنوجة، وقالت لي: أأنت الصحافي القادم من لبنان؟ قلت لها بلهفة مَنْ وجد ضائعاً: أأنت فاطمة؟ أو فطومة التي أنتظرها؟ قالت لي: لا أنا عائشة، عائشة علي مصطفى، زميلة فاطمة في الجريدة وصديقتها. أرسلتني فاطمة نيابة عنها لاضطرارها إلى البقاء في المنزل بصحبة

ابنها الصغير المريض. وهي تعتذر وقد حَجَزَت لك في فندق «مزوون» (مزوون هو الاسم التاريخي القديم لعُمان). وكأن مستقبلتي شعرت أنني ضعت بينها وبين فاطمة أو أصبحت حائراً بين «فطومة وعيوشة»، لذلك قالت لي وأنا أجر حقيبتي ونحن نتسلق «الميني باص» الذي كان يقل غيرنا من الركاب: أرجو أن لا تكون قد قلقت لتأخري عن الوصول. المهم أنني عثرت عليك.

وشعرت بشيء من الارتياح والعرق يتصبب مني لارتفاع درجة الرطوبة، لكنني في الواقع بقيت قلقاً للتبديل غير المتوقع الذي جرى بين فاطمة وعائشة. لما أخذت السيارة تشق طريقها في شوارع زنجبار الضيقة المظلمة، ولما كان لاسمي الثلاثي طابع «حيادي» لا ينم عن هوية مذهبية أو طائفية، سألتني عائشة سؤالاً مباشراً، عما إذا كنت مسلماً. وضحكت فعلاً لأنني كنت أتوقع هذا السؤال، وقلت لها، وضحكتي تعلو إلى مستوى القهقهة، نعم أنا مسلم. ولما بدا أن رفيقتي قد استغربت سبب ضحكي، قلت لها: لأن السؤال نفسه سألتني إياه فاطمة الأوزبكية عندما وصلت سمرقند وكانت هي في استقبالي. لماذا أفاجأ بالسؤال ذاته عندما أصل إلى بلد أطأه للمرة الأولى؟.

تفجيرا

وقلت لنفسي لأفجّر ـ أنا القادم من لبنان الطائفي ـ الوضع الإسلامي برمته في الجزيرة، فسألتها: يا عائشة إذا كنت غير مخطئ فأنت سنية وفاطمة على ما أظن شيعية؟! عند هذا المفترق كان «الميني باص» قد توقف عند باب بيت قديم، سمعنا منه صوت هدير موتور كهرباء، عاد بذاكرتي إلى ليالي بيروت الكئيبة. لذلك لم أفهم ـ أو أسمع ـ جواب عائشة على سؤالي بل رأيت ما ارتسم

على وجهها الجميل من برق فاتن لما يشبه التحدي والاستنكار. لقد علا صوت السائق، فوق صوت موتور الكهرباء فوق ضجيج الركاب معلناً: «فندق مزوون». ونزلت أنا والركاب الحاجزون إلى الفندق. وعندما صرنا داخل البهو ولفحنا هواء المكيّف البارد وسط تلك الدرجة العالية من الرطوبة، أدركت عائشة، عندما لم تجد ردة فعل مني، أنني لم أسمع جوابها. فرددت: نحن في زنجبار، أفريقيون زنجباريون مسلمون. الإسلام صدفة تاريخية حملها العرب إلينا. أما كوننا أفارقة فهو هويتنا وقدرنا. لا تنسَ أنك في جزيرة قامت فيها ثورة اشتراكية ضد العنصر العربي وتراثه، وإن كنا لم نتخلص منه بعد مرور أكثر من ثلث قرن على تلك الثورة، وبعد خمس سنوات على دخولنا عصر التعددية الحزبية وشيء من ليبيرالية اقتصاديات السوق. كلنا مسلمون. تسعون بالمائة من السنّة، والباقي من الأباضيين والشيعة الأثني عشرية والإسماعيلية. باقي الأديان أقلية الأقليات اليوم. أسماؤنا لا تدل على مذاهبنا كذلك ألوان بشرتنا. اسم فاطمة هو الأكثر شيوعاً بين النساء، يليه اسم عائشة. كل أسمائنا أسماء عربية وإسلامية. «الأسماء الحيادية» كإسمك لم يحملها إلينا عصر الانفتاح بعد.

لم أكن في الواقع بحاجة إلى هذه «المحاضرة» من عائشة وهي تودعني وقد اطمأنت لوصولي إلى الفندق، لتقول لي إنها هي وفاطمة سيمران عليّ غداً صباحاً لترتيب برنامج زيارتي. لكنني كنت بحاجة إلى شيء من النوم، وسط هدير موتور الكهرباء وضجيج المكيف، وسقوط العرب وكوابيس الإسلام المنسي في شرق أفريقيا. ولما كنت متعباً إلى درجة كبيرة لم أكتشف إلا متأخراً أن غرفتي ليس فيها شباك. وكان غدٌ يوماً آخر.

بلد الأشباح

في اليوم الآخر، استيقظت باكراً جداً لأهرب من الغرفة التي لا نافذة لها، إلى عراء الساحة الصغيرة أمام الفندق، وأرى البلد الذي وصلته وسط ظلام دامس. كان يتملكني قلق من أن تصل فطومة أو عائشة أو كلتاهما، فلربما فرضتا عليّ برنامجاً يريني بلادهما لا بعيون المهى بل بعين رسمية! وكنت أريد أن أرى زنجبار بعيني ولوحدي. وسرحت من غير هدى ودونت: زنجبار بلد مليء بالأشباح. وكأن الزمن الماضي قد ضُغِطَ في كبسولة وتُرِكَ يتشمس على رمالها الفضية وبحرها الأزرق. ومن الممكن جداً، بل غالباً، ما تستيقظ هذه الأشباح في الليل وتتجول في الجزيرة، دون استئذان أو خوف.

فجأة تطوقك زنجبار. المراكب الشراعية العربية الراسية في مرافئها، وكأنها وصلت اليوم أو بالأمس فقط من مسقط أو هرمز أو البصرة أو شط العرب، وهي تنتظر الإقلاع غداً. بلدة الحجر القديمة (وبعضهم يسميها مدينة) بأزقتها الضيقة وتعرجات زواريبها، تذكرك بمدينة مسقط القديمة التي عرفتها في أوائل السبعينيات، وقبل أن تصبح على ما هي عليه اليوم من اتساع وتطوير. برغم أنها تعبق برائحة التوابل والبهارات، ورائحة العفونة والتآكل في وقت واحد. المؤذن يرفع أذان الصلاة من مآذن لجوامع لا تراها، ولمصلين وراء أبواب خشبية ضخمة مطرزة بالحفر ومطعمة بالنحاس، نقل العمانيون فن نقوشها وصناعتها معهم عندما بنوا عاصمتهم الأفريقية في القرن السابع عشر. لكن وراء هذه الأبواب الجميلة، كان يقبع صمت الفراغ لعائلات وسكان لم يعودوا يأوون إلى حمى تلك البيوت. لقد ذبحتهم الثورة قبل خمس وثلاثين سنة.

والقادم من طريق البحر إلى زنجبار في عصر أي يوم، لا بد وأن يراها وهو يقترب من شواطئها، كيف تلمع في الغسق. كما يرى القادم إليها في الصباح، كيف تنور في الفجر. ضياء مشوب بظلال سحب لا تمطر أبداً أو تمطر في كل مكان. على كل مَنْ يزور زنجبار أن يستيقظ باكراً، ليرى مشهد شروق الشمس، وأن لا يستسلم قبل حلول مشهد الغروب.

ولأن زنجبار مسكونة بأشباح التاريخ، كما أنك مسكون بدورك بذاكرة سينمائية لمدن لم تطأها من قبل، أو أحلام لم ترد في نومك. فإنك عندما تدخل بلدة الحجر القديمة، تتسارع نبضات قلبك وأنت تتساءل متى كنت هنا من قبل. ولكن سرعان ما تدرك أن في عقلك الباطني صورة محفورة لمدينة مثل هذه المدينة أو شوارع شبيهة بالشوارع التي تمر بها. في الواقع تبقى كلمة شوارع مفردة مضللة. إذ لا شوارع في البلدة القديمة. ولا حتى أحياء. أقرب كلمة ترد على البال هي زقاق أو زنقة، كما يطلق المغاربيون على بعض شوارعهم.

مصافحة

ومن فوق زنقات بلدة زنجبار القديمة، وأنت تتطلع إلى النوافذ تتخيل كيف يمكن أن يمد الجار يده عبر الزقاق ـ الزنقة ـ الزاروب ـ السكة ـ الشارع (سمه ما شئت) ويصافح جاره في النافذة المقابلة. بيوت بلدة الحجر، العالية الطويلة، التي تبدو كناطحات سحاب إذا نظرت إليها وأنت تحتها، مطلية كلها بالكلس الأبيض الذي بهتت ألوانه وبان الطين والآجر من تحته، لأن يداً لم تمتد إليه لترممه منذ أكثر من ٣٥ سنة. وهكذا لم يعد اللون الأبيض أبيض. بل صار ترابياً قذراً. كذلك الأبواب الخشبية المزركشة والمحفورة بالآيات

القرآنية وأسماء الله الحسنى، والتي لم تعد تلمع بعد أن بهتت ألوانها وتشققت درفاتها وشحب النحاس في مقابضها وقد علاه صدأ السنين التي أهملته، فأهملها.

كل شيء في بلدة الحجر القديمة حار. الحر يلفحك عند كل منعطف ويذكرك أن للنار طعماً آخر. حتى خيالات الناس والأماكن التي تضربها الشمس يبدو انعكاسها حاراً. لكن فجأة تمر نسمة هواء وأنت وسط مرجل الرطوبة الساخن، حاملة إلى خياشيمك رائحة كبش القرنفل وأريج التوابل الشرقية وغبار خشب الصندل المحروق. وطالما تواجدت في البلدة القديمة فأنت تظل، أسير حاستين: حاسة اللمس التي تحملها حرارة الشمس ورطوبة البحر، وحاسة الشم التي يحملها هواء مزارع التوابل ونخيل جوز الهند. ولا يشوب الاستمتاع بحاسة السمع، إلاّ غياب أصوات الطبول عبر غابات الجزيرة، منذ أن انتهت تجارة الرقيق. إن طبول زنجبار لم تعد تُسمع اليوم لأنها لم تعد تُقرع. وتوقفت أفريقيا عن الرقص على أنغامها، لأنه لم يعد هناك عبيد يقرعونها. لقد أصبح نشيد الجزيرة يصدح بكلمة «أوهورو» ـ الحرية. وربما يتناهى إلى أذنيك من البعيد صدى ضحكة خافتة وهازئة تحمل شيئاً من سخرية التاريخ، مخبراً إياك أن موسيقى الطبول قد ماتت منذ زمن طويل.

وإذا خيّل إليك، وأنت ما زلت تسير متنقلاً على قدميك في بلدة الحجر، بأنك كنت هنا من قبل، فلا بد أن يتعزز هذا الإحساس عندما تصل إلى شطآن الرمل الفضية وترى أشجار نخيل جوز الهند منتشرة فوقها على شاطىء البحر الزمردي، والثمر اليابس يهر من على أغصانها العالية، فيملأ الرمل بحصيرة من الأخضر

والأصفر يلعب فوقها الأولاد السمر وهم يحاولون كسرها، أو يتسلقون أحدى الأشجار لقاء بضعة شلنات ليأتوك بجوزة هند خضراء، فيسقونك ماءها ويطعمونك ثمرها الطازج، فتقضي على عطشك المزمن، ثم يلقون بقشرتها على الرمال، فيكتمل نسيج الحصيرة الصفراء الممتدة على الأرض، بعد أن تلفحه الشمس بحرارتها اللاهبة.

دشاديش

وإذا تطلعت إلى البحر وأنت تشرب من جوزة الهند فلا بد أن ترى المراكب الشراعية العربية تبحر من أمامك وبحارتها بـ «الدشاديش» العربية ـ العُمانية والقلنسوات أو العمائم البيضاء التي هي سمة لباس الرأس في عُمان والخليج. وفي أي لحظة، تضيع ذاكرتك بين الحلم والواقع، فيخيل إليك لوهلة أنك أمام مشهد من مشاهد ألف ليلة وليلة، حتى تكاد تلوّح من بعيد لرّبان إحدى السفن ظناً منك بأنه السندباد البحري، أو ترى على سطح أحد هذه المراكب علي بابا يخرج من جرة فخار كبيرة. وتخاف من هلوسة حرارة الشمس أن ترى الجني يخرج من القمقم، ويخرّ ساجداً أمام علي بابا، أو أن يطوقك أربعون حرامياً.

ألم أقل أن زنجبار مدينة مسكونة بأشباح الأسطورة والرواية التاريخية؟

الوصول متأخراً

عدت إلى الفندق وكان الوقت قد شارف على الظهيرة. وكنت متعباً من المشي، مغسولاً بعرق الرطوبة، مرهقاً من مشوار لم أعتد عليه من قبل. كنت متلهفاً للوصول إلى مكان مكيّف أستلقي فيه

على أول كرسي أراه. وعندما استعدت أنفاسي، أخذ ينتابني شعور معين كثيراً ما ينتاب رحالة اليوم عندما يصل إلى بلد ما له في التاريخ ذكر، شعور بأنه قد وصل متأخراً. فلقد فاته ما قرأ عنه أو سمعه عن ذلك البلد. لكن الحقيقة هي أن زنجبار ليست واحدة من هذه البلدان. فإذا أنت وصلت اليوم زنجبار، فلن تكون قد وصلت متأخراً أبداً، بل يكون التاريخ هو الذي قرر أن ينتظر قدومك. وتكون حكومة الحزب الثوري الواحد هي التي قررت إيقاف التاريخ عندما أعلنت الثورة الماركسية قبل ثلث قرن ونيف. ولم تعد تضرب مسماراً واحداً في حائط الزمن الضائع، أللهم سوى المسمار الذي أوقفت فيه عقارب الساعة ليل ثورة ١٢ كانون الثاني/ يناير ١٩٦٤. وإذا تحرك التاريخ قليلاً في السنوات الأربع أو الخمس الأخيرة، فقد كان ذلك نتاج محاولة متواضعة من النظام الثوري الاشتراكي برغبة أن يدخل بعض مظاهر حضارة القرن العشرين البسيطة إلى الجزيرة وهي تودع الألف الثاني من القرن. لكن التاريخ حريص أن لا يضلل بتحركه الخجول زائر زنجبار، فلا يتيه في أزقّتها وحقولها وشواطئها وجزرها التي كان قد سمع عنها. لأن علاماته تظل راسخة ثابتة في كل جزء منها.

لا بد أن تتزاحم لوحات من الماضي في رأس أي زائر لزنجبار عندما تتهاوى عناوين الصور التاريخية أمام أسماء السلاطين والأميرات والقصور والقلاع والقراصنة وتجار الرقيق والرحالة والمكتشفين ومهربي العاج وصيادي وحيد القرن الذي تشفي ذرة من قرنه ـ كما يعتقد الأفريقيون من العجز الجنسي. من مقر القناصل البريطانيين وأسمائهم من الذين حكموا الجزيرة أكثر من مائتي سنة، مروراً بسكة الحديد اليتيمة بقاطراتها البخارية التي لم تعد تعمل،

وكذلك مركز القنصل الألماني ومقر قوات القيصر قبل الحرب العالمية الأولى، ومرافىء التهريب التي كان وما زال يستخدمها المهربون للبشر والحيوان والنبات والحجر حتى الآن، وصولاً إلى المراكب المحملة بأكداس من البضائع لا هوية لها. اللائحة تكاد لا تنتهي إذ كان في الرأس مخيلة خصبة.

البندقية والحجر

وتذكرت وأنا في مهب الصور وضجيجها في مخيلتي، ما قرأته قبل وصولي إلى الجزيرة، أن كثيراً ما يشبّه كتّاب الرحلات بلدة الحجر القديمة في زنجبار بمدينة البندقية في إيطاليا، بشوارعها وأزقتها الضيقة، والأبنية التاريخية الجميلة، التي يهددها الانهيار من الإهمال في المدينة الأولى، كما يهدد زحف البحر المدينة الثانية. وعلى الرغم من عدم قناعتي بهذه المقارنة، للفارق الشاسع بين المدينة الإيطالية وعظمة أبنيتها وفخامة ساحاتها وروعة الفن الذي فيها وتاريخها المختلف والاهتمام العالمي بها والسعي للحفاظ عليها، وبين المدينة الأفريقية، اللهم إلاّ عندما تنهمر الأمطار الاستوائية عليها، فتحوّل أزقتها إلى أقنية، وتغرق شوارعها بالمياه، عندئذ قد تحتاج إلى «غندول» زنجباري، أتقن صنعه العرب العُمانيون، لتعبر فيه من مكان إلى آخر. وإذا كانت المقارنة تنتهي بانتهاء أمطار الرياح الموسمية، فإن زنجبار تبقى مدينة عربية تستصرخ العالم ومنظماته الدولية لإنقاذ معالمها، حتى لا تصبح أثراً بعد عين.

وما يلفت النظر، أن زنجبار مدينة نظيفة إذا ما قورنت بمدن أفريقية أخرى، أو حتى بمعظم مدن العالم الثالث التي في حجمها وعدد سكانها. فهي مدينة مفتوحة على البحر من الجهات الأربع، وهواؤها مشبع بروائح أشجار كبش القرنفل وجوز الهند والفواكه

الاستوائية بكل أنواعها، ما نعرفه منها نحن في العالم العربي وما لا نعرف من أسمائها أو نذوق طعمه.

رومانسية

وزنجبار ـ للزائر المثقف، وهو افتراض أساسي من قِبلَي ـ هي نوع من التحريض على الرومانسية التاريخية. تقول ذلك قصورها الضائعة، الباقي منها والمُدّمر، المنتشرة في أطراف الجزيرة. وكهوف تجار الرقيق التي كان يسجن فيها العبيد قبل نقلهم إلى السفن للتهريب إلى الخارج. والحمامات التي بناها السلاطين وقد جفت مياهها. والمزارع الشاسعة التي كان يزرعها ويعمل فيها آلاف العبيد. والكنيسة الإنغليكانية الضخمة التي بناها الإنكليز في ساحة سوق الرقيق، وبنوا المذبح في داخلها حول العمود الذي كان يكبل به العبيد بالسلاسل ويجلدون لامتحان قدراتهم الجسدية قبل بيعهم وتحديد أسعارهم. فالذي يصرخ ويتألم كان سعره أقل من الذي لا يصرخ ولا يظهر الألم. يكاد الخيال الرومانسي يستطرد وكأنه يحرض شهريار على قتل شهرزاد عند كل صباح إذا هي كفّت عن الاسترسال في الكلام المباح!

وإذا سرحت وأنت تتنقل في بلدة الحجر القديمة، فلا بد أن تضيع كل مرة في أزقّتها. لكن كل الأزقة تقود إلى المكان الذي تريده، وكل الزواريب تعود وتلتقي مع بعضها البعض. فالتيه في شوارع المدينة أمر طبيعي. وكثيراً ما يقودك إذا كان الوقت عصراً، إلى مشاهدة غروب الشمس بألوانه الغريبة الأخاذة فوق المحيط الهندي.

الأسوار السياحية

يبدو أن فاطمة وعائشة قد مرتا ولم تجداني، فتركتا لي رقماً تليفونياً

للاتصال بهما عند عودتي. وقبل أن أتصل، وأنا متهاوٍ على كرسيّ في بهو الفندق المكيّف. وصلت عائشة ومعها فاطمة، التي بدت لي أنها سيدة أكبر سناً بقليل من عائشة، سمراء داكنة بملامح عربية مميزة، ولباس زنجباري. قالت لي فاطمة بعد أن عرفتني إلى عائشة: لا أظن أن غيابي عن استقبالك بالأمس قد قدّم أو أخرّ في شيء بوجود عائشة. أرجو أن تكون قد استمتعت بليلتك الأولى في زنجبار. ابتسمت وقلت لفاطمة: كنت استمتعت أكثر لو كان لغرفتي في هذا الفندق نافذة. ووسط نظرات الاستغراب، تحركت عائشة نحو إدارة الفندق لترتيب غرفة أخرى لي، إنما هذه المرة مع شباك. وقد تمّ ذلك.

قالت لي فاطمة، إنها هي وعائشة ستقتسمان مرافقتي خلال جولاتي في زنجبار، مقترحة عليّ برنامجاً معيناً، وافقت عليه على الفور، لعدم معرفتي ببديل أفضل. وأضافت: لن أسألك عن انطباعات جولتك الصباحية، فمن المُبكر لأوانه ذلك. لكنني أريد الآن أن أقوم بجولة سريعة معك، حتى نضع ما سنراه معاً، من أماكن ومشاهد، في الإطار المعاصر والواقعي.

حدثتني فاطمة وقالت: وإذا بدت زنجبار مكاناً لم تمسسه حتى الآن، «الحضارة السياحية العالمية» ولا المدنية الغربية، فحافظت الجزيرة على بهائها التاريخي وجمالها الطبيعي غير المشوه، إلاّ بنتوءات هنا وهناك، فالفضل يعود إلى الثورة الماركسية في العام ١٩٦٤، التي أغلقت الحدود ورفعت الأسوار في وجه الزوار. فزائر زنجبار كان أول ما يحتاج إلى وسيلة نقل، وكانت وسائل النقل، من مراكب شراعية وسفن من اليابسة الأفريقية إلى الجزيرة، معدومة. لا طيران، لأنه لا مطار حقيقي يستقبل طائرات إلاّ منذ

خمس سنوات، بناه السلطان قابوس للجزيرة، كرامة ذكرى أجداده العمانيين البوسعيديين الذين أسسوا المُلك العربي هناك. لا فنادق متوافرة على المستوى السياحي المتواضع والمتعارف عليه في العالم، متوافرة. أما تعقيدات إجراءات الفيزا والتأشيرات والإقامة والزيارة فحدّث ولا حرج. كل دول العالم تحتاج فيزا واحدة إلاّ زنجبار، فالزائر يحتاج إلى تأشيرتين. الأولى من جمهورية تنزانيا الاتحادية، والثانية من دولة زنجبار. وظل هذا الوضع سائداً حتى أواخر الثمانينيات.

السفر

منذ مطلع التسعينيات بدأت هذه الصورة تختلف والأوضاع تتغير. المراكب السريعة أو البطيئة تؤمن الانتقال من مومباسا أو دار السلام أكثر من مرة في اليوم، ذهاباً وإياباً. طيران تنزانيا يؤمن رحلة يومية من دار السلام أو مومباسا أو بالعكس. طيران زنجبار، من غير جدول مواعيد، ينقل الركاب من مكان معلن إلى مكان غير معلن. التأشيرتان أصبحتا تأشيرة واحدة وإجراءات المطار أصبحت محتملة. والفنادق الصغيرة النظيفة أخذت تنهض في أنحاء الجزيرة. بيوت عربية قديمة جرى تحويلها، وفنادق أخرى حديثة وجديدة بدأ بناؤها. وأصبح لدى حكومة زنجبار إدارة للسياحة. وزنجبار تعيش بلا كهرباء أكثر من ١٢ ساعة يومياً، إذ إن محطة الكهرباء الوحيدة في الجزيرة التي بناها الألمان الشرقيون قد انتهت صلاحياتها وانقطعت قطع الغيار عنها ولم تعد تكفي حاجة الجزيرة. فأخذت زنجبار تعتمد على الكهرباء التي تمدها بها تنزانيا من اليابسة. وأخذت حضارة مولدات الكهرباء تنتشر في الجزيرة بعد «الانفتاح» وخاصة في أماكن السياحة كالفنادق والمطاعم.

لذلك لا بد لأي زائر لزنجبار أن يحمل معه مصباحاً كهربائياً إذا أراد التجول ليلاً.

والسياسة السياحية الحالية في زنجبار، تقوم على عدم السماح إلا لعدد محدود من الزوار سنوياً، والحدّ من عدد الفنادق والمرافق السياحية الجديدة المزمع إنشاؤها، على الرغم من أن عدد السيّاح في زنجبار ما زال ضئيلاً جداً بالمقارنة مع باقي أفريقيا. والفكرة من وراء هذه السياسة الحكومية، وقد فكت زنجبار العزلة التي فرضتها على نفسها أكثر من ربع قرن من الزمن، هي أن تحافظ على بيئتها بسحرها القديم، وأن توفر عمالة معقولة لمواطنيها في القطاع السياحي، دون أن تصبح السياحة هي الدخل القومي الوحيد في بلد لا دخل له سوى تجارة التوابل. لكن السبب الخفي ـ على ما يبدو ـ وراء هذه السياسة هي خوف النظام الحاكم في زنجبار من عدوى الفوضى السياسية في أفريقيا، والخوف من التعاطي مع العالم، وهم لا يملكون وسائل وتقنيات هذا التعاطي لنظام لا يعرف أين تتجه بوصلته السياسية في ظل المتغيرات الإقليمية في أفريقيا، والدولية في العالم. فالخوف على زنجبار بين العزلة والانفتاح، أن لا تتحول مع هذه المتغيرات إلى منتجع وحديقة سياحية كـ«ديزني لاند»، وأن تذيب المكاسب الاقتصادية، الدولة ـ الجزيرة الفريدة من نوعها في العالم، فتخرج من التاريخ الذي عانقته طويلاً وأعطاها غناها، ولا تدخل نادي السياحة العالمي.

الغد

بعد هذه «الإحاطة السياحية» كما أسمتها فاطمة، قالت عائشة بثقة وفرها لها، ربما، لقائي الأول بها وليس بفاطمة: سيبدأ برنامجنا غداً وسنقسم الجزيرة قطاعات مختلفة، نزورها كلها ونتوقف عندها بالشرح والوصف. سيكون في الغد دور فاطمة. أما الآن فأنت

مدعو للغداء عند أمي في بيتنا، وهي فرصة نادرة لتذوق الطعام الزنجباري بمختلف أنواع توابله وبهاراته، وستشرب وتتذوق «الدافو» الذي سيقضي على العطش، وسنتحدث عن أمور زنجبارية لا يجوز الكلام فيها إلا في المنازل.

هكذا كان وانقضى النهار وجاء الليل، وكان الغد أيضاً يوماً آخر.

(١) راجع الفصل الرابع: حكاية زنجبار التاريخية.

أبواب زنجبار

عندما كان يُبنى قديماً بيت في زنجبار، كان الباب، تقليدياً، هو أول جزء يقام. وكلما كان صاحب البيت أغنى وأكبر جاهاً، كلما كان بابه الأمامي أضخم وأكثر إتقاناً بالزخرفة. وكان القصد من الإشارات الرمزية والمقتطفات القرآنية وأسماء الله الحسنى على الباب، هو إعطاء طابع جميل وهيبة للبيت. وقد احتوت النماذج الزخرفية على الأبواب على عدة أشكال، منها أمواج البحر متسلقة عضادة الباب، وهي تمثل حيوية التاجر العربي صاحب البيت، كما أن أشجار اللبان والنخيل كانت ترمز للثروة والخيرات. وكانت صناعة هذه الأبواب منتشرة ومعروفة في عُمان.

هناك بعض الزخارف التي يعتقد أنها تعود لفترة ما قبل الإسلام: أزهار اللوتس المتآلفة مع رموز الخصب عند المصريين، والسمكة التي يمكن أن تمثل إلهة الحماية، آثار غاتيس عند السوريين، الإله ـ السمكة القديم عند المصريين.

توجد أبواب كثيرة مرصّعة بمسامير نحاسية كبيرة وأزرار للزينة. وربما كان هذا بمثابة تعديل لعمل الهنود الذين كانوا يرصّعون أبواب قلاعهم في القرون الوسطى بالمسامير المعدنية الحادة لمنع فيلة القتال من مهاجمتها وتدميرها.

وفي العام ١٩٥١ سجّل أحد الرحالة العرب بأن جزيرة زنجبار كانت تعج بالفيلة، وحوالى العام ١٢٩٥ كتب الرحالة الإيطالي ماركو بولو عن وجود فيلة كثيرة في زنجبار. إلاّ أن الفيلة ينبغي أن تكون قد انقرضت منذ فترة طويلة قبل بناء العرب للبيوت في بلدة الحجر. وما نراه اليوم من مسامير وأزرار للزينة على الأبواب، فهو لمجرد الزخرفة.

أقدم باب منحوت في زنجبار، والذي يعود تاريخه لعام ١٦٩٤، هو الآن الباب الأمامي لمتحف السلام التذكاري.

٢

دليل السائح إلى بر الزنج الجميل

في اليوم الآخر التالي كان موعدي مع فاطمة على باب فندق «مزوون»، باكراً جداً بمقاييسي (السابعة صباحاً) لنبدأ معاً جولة في البلدة مشياً على الأقدام، قبل أن يتعبنا الحر عندما تشتد حرارة الشمس وقت الظهيرة وما بعدها.

أخذت فاطمة دور الدليل السياحي ونحن نواصل السير في البلدة التي تسمى أحياناً مدينة، وبدأت تتحدث، وهي تسير أمامي خطوتين وإلى جانبي خطوة، بثقة الملقن أو المدرّس الواعي لتفاصيل موضوعه. وكنت قد رجوت فاطمة قبل بدء مشوارنا أن يقتصر شرحها على المعلومات، وأن تتفادى «الدعاية» إن أمكن، وخاصة أننا زملاء نتعامل بمصطلحات متشابهة ونعرف أسرار التعاطي مع مهنة المعلومات. ولم تعجب فاطمة ملاحظتي هذه، واعتبرتها غمزاً في قناتها. لذلك اتخذ صوتها نبرة مختلفة، عندما بدأ حديثها.

قالت فاطمة:

تقع بلدة زنجبار في منتصف الطريق على الساحل الغربي لجزيرة زنجبار، ويقدر عدد سكانها بأكثر من ١٠٠ ألف نسمة مما يجعلها

أكبر بكثير من أي مدينة أخرى على الجزيرة، وإحدى أكبر خمس مدن في تنزانيا. وقبل نمو مدن مثل دار السلام ونيروبي وممباسا، كانت بلدة زنجبار أكبر مدن شرق أفريقيا.

يقسم طريق الخور بلدة زنجبار إلى جزئين. على الجانب الغربي يقع «قلب» بلدة زنجبار: الحي القديم، الذي يدعى عادة «ستون تاون»، (أو بلدة الحجر) وهو الجزء الأكثر إثارة لاهتمام الزوار. معظم المباني هنا شيّدت خلال القرن التاسع عشر (مع أن بعضها شيّد قبل هذا التاريخ) عندما كانت زنجبار مركزاً تجارياً رئيسياً وفي ذروة قوتها.

على الجانب الشرقي من طريق الخور يوجد ذلك الجزء الذي كان يدعى نغامبو (تعني حرفياً «الجانب الآخر») ولكنه الآن يدعى ميتشنزاني، أو «المدينة الجديدة». إنها منطقة واسعة، أكثر بيوتها من طابق واحد إضافة لمبانٍ أخرى، وتغطي مساحة أكبر بكثير من مساحة بلدة الحجر. وهي المنطقة التي اعتاد على سكنها الناس الفقراء من الأفارقة والسواحيليين، بينما سكن الأكثر غنى من العرب والهنود والأوروبيين في بلدة الحجر، وما زال هذا التقسيم بين غني وفقير موجوداً حتى اليوم.

ومن أجل مساعدتك على معرفة مكان وجودك، من المفيد أن تفكر ببلدة الحجر كمثلث يحده البحر من جانبين وطريق الخور من الجانب الثالث. وإذا وجدت نفسك ضائعاً، يمكنك دائماً السير باتجاه واحد حتى تصل إلى الطرف الخارجي للبلدة حيث ستجد مَعْلَماً معروفاً تستهدي به. معظم شوارع بلدة الحجر ضيّقة ولا تتسع للسيارات، لكن عليك الانتباه للدراجات الهوائية والبخارية التي يقودها راكبوها بسرعة جنونية.

بلدة زنجبار

يمكنك أن تقضي ساعات وأياماً في بلدة الحجر القديمة في زنجبار متجولاً في شبكة معقدة وساحرة من الشوارع الضيقة والأزقة. لقد قامت بلدة الحجر بالأساس على شبه جزيرة ربما كانت مسكونة منذ وصول أول القادمين إلى زنجبار. رأس شانغاني، على الطرف الغربي لشبه الجزيرة، يعتقد بأنه كان موقعاً لصيد الأسماك لعدة قرون، على الأقل فإن واحداً من حكّام زنجبار السواحيليين الأوائل، موينى ماكو، كان يملك قصراً هنا. في القرن السادس عشر بنى البحارة البرتغاليون كنيسة ومركزاً تجارياً على شبه الجزيرة نظراً لوجود ميناء جيد فيها ولسهولة الدفاع عنها. وعندما بدأ العرب العُمانيون بالاستيطان على الجزيرة في القرن الثامن عشر، أقاموا حصناً على موقع الكنيسة، ونمت بلدة الحجر الحالية حول هذا الحصن.

خلال القرن التاسع عشر، كان معظم سكان بلدة الحجر من العرب والهنود الأغنياء، وبناء على ذلك كانت البيوت تبنى بطرازين رئيسيين: الطراز الغربي، بجدران خارجية بسيطة وباب أمامي كبير يؤدي إلى فناء داخلي. وطراز هندي، بواجهة مفتوحة أكثر وشرفات كبيرة مزينة بدرابزين مزخرف، مصممة لاستقبال نسيم البحر والتخلص من المناخ الرطب. وللعديد من المباني أيضاً أبواب ذات إطارات وألواح خشبية منحوتة بإتقان ومزيّنة بمسامير نحاسية وأقفال ثقيلة. وقد كان حجم الباب وتعقيدات زخرفته دلالة على غنى العائلة ووضعيتها المميزة.

أثناء سيرك في المدينة وبين البيوت، فإنك ستمر أيضاً بجوامع وكنائس ومبانٍ عامة أخرى عبر شبكة من الأزقة والممرات المعقدة.

وفي مدينة الحجر أيضاً تمر بأسواق بعض الدكاكين فيها صغير جداً، ليس أكثر من كشك لا يوجد على رفوفه غير بعض علب الأغذية.الصدئة وزجاجات من مرطبات محلية. وبعضها الآخر ذو مساحة أكبر يقدم الطعام للسكان المحليين والزوار. هناك توجد أيضاً محال للتحف والأثريات، وأخرى تبيع الأشغال الفنية والحرفية المنتجة محلياً، والموجهة خصيصاً لسوق سياحي نام. عندما تتجول في الشوارع الضيقة، يجب أن تتذكر أن بلدة زنجبار هي مجتمع حقيقي حيث يعيش ويعمل أناس حقيقيون. وإنها ليست متحفاً.

السوق

عند هذا الحد من حديث فاطمة، كنا قد وصلنا السوق، وكان التعب قد بدا علي. فتوقفت قليلاً لأستعيد أنفاسي، في الوقت الذي استأنفت فيه فاطمة الكلام:

السوق وسط طريق الخور، مكان جيد للزيارة حتى لو كنت لا تريد أن تشتري شيئاً. على جانبي السوق تجار يبيعون من داخل أكشاك، أو يبسطون بضائعهم على الأرض. أنه مكان يضج بالنشاط حيث تباع وتشرى أشياء كثيرة، من الخبز والسمك إلى ماكنات الخياطة وقطع غيار السيارات المستعملة، وإلى هنا يحضر الناس إنتاجهم من كافة أنحاء الجزيرة، ويأتي أناس آخرون ليشتروا أشياء لا يمكنهم الحصول عليها في قراهم.

في نهايات القرن التاسع عشر، كانت سوق البلدة داخل الحصن القديم، أما قاعة السوق الحالية فقد أقيمت في العام ١٩٠٤. وتُظهر بعض الصور القديمة جداً المعروضة في المتحف، السوق وكأن أشياء كثيرة لم تتغير منذ ذلك الحين.

في بعض الأمسيات، يقام مزاد علني في الشارع خلف السوق، تباع فيه قطع الأثاث والأدوات المنزلية والدراجات القديمة وكل أنواع الخردة. إنه منظر ممتع.

الميناء القديم

ومن السوق إلى الميناء القديم، والكلام ما زال لفاطمة:

الميناء القديم في الطرف الشمالي لبلدة الحجر، وراء بيت الضيافة في ماليندي. مكان يعج بالحركة، حيث المراكب الشراعية الخشبية القادمة من كينيا وتنزانيا وأنحاء الساحل الأخرى تفرغ أحمالها من البضائع على جانب الرصيف، وفي الفترة ما بين كانون الأول/ ديسمبر وآذار/ مارس، يمكنك أيضاً رؤية المراكب الكبيرة العابرة للمحيط الآتية من الخليج العربي.

الميناء القديم هو أيضاً المكان الذي تأتي إليه قوارب الصيد، وتوجد أكشاك عديدة لبيع السمك في الشارع خارج الميناء. لكن، وكأي ميناء في العالم، فإن منطقة الميناء القديم لها جانبها العاصف والخشن.

منزل ليفنغستون

من الميناء القديم عرجنا على بيت ليفينغستون، أحد أشهر بيوت زنجبار الذي يقع على الجانب الشمالي الشرقي للبلدة، ويستخدم هذا البناء القديم حالياً كمكتب رئيسي لشركة السياحة الزنجبارية.

قالت فاطمة وحبات العرق تلمع على حاجبيها مشيرة بإصبعها كأنها تتهم أحداً بجريرة ما.

شيّد هذا المبنى حوالى العام ١٨٦٠ للسلطان ماجد (حكم من سنة

١٨٥٦ إلى ١٨٧٠). في هذا الوقت، كانت زنجبار تستخدم كنقطة انطلاق من قبل معظم المبشرين والرواد الأوروبيين الذين استكشفوا شرق أفريقيا ووسطها خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ولقد أقام ديفيد ليفنغستون، أشهر هؤلاء المستكشفين، في هذا المنزل قبل أن يبحر إلى البر الأفريقي في رحلته الأخيرة العام ١٨٦٦. كما أقام في المنزل مستكشفون آخرون مثل، بيرتون وسبيك وكاميرون وستانلي أثناء استعدادهم لرحلاتهم الخاصة. لاحقاً، استخدم المنزل من قبل أفراد الجالية الهندية في الجزيرة، وفي العام ١٩٤٧ اشترت الحكومة الاستعمارية البريطانية البيت واستخدمته كمختبر علمي لأبحاث أمراض شجر كبش القرنفل.

المستوصف القديم

عند هذا الحد، قلت لفاطمة هل من الممكن أن نستريح قليلاً ونشرب شيئاً بارداً، قبل أن نتابع سيرنا. قالت فاطمة: سنستريح عندما نصل إلى المستوصف القديم، حيث سنلتقي عائشة، وهناك مقهى يمكننا تناول المرطبات فيه. عندما وصلنا هناك، قالت فاطمة:

المستوصف القديم، هو عبارة عن مبنى فخم من أربعة طوابق: شرفات مزيّنة، مقابل مباني الميناء الجديد في طريق ميزينغاني، وهو يسمى أيضاً بمستوصف الاثني عشرية (نسبة إلى الشيعة). في أعلى الجدار الأمامي للمستوصف توجد كتابة يمكن قراءتها كالتالي: «مستوصف خوجا حاجي ناصر نور محمد الخيري». بالأصل، شيّد هذا المبنى العام ١٨٩٠ كمنزل خاص لتاجر هندي مرموق من طائفة الإسماعيلية اسمه ثاريا توبان كان يعمل كمستشار جمارك السلطان. وكان أحد كبار الأغنياء على الجزيرة في ذلك

الوقت. في العام ١٨٩٩ تخلى عن المنزل لكي يستخدم كمستوصف، وكان أيضاً يموّل شراء الأدوية والخدمات الأخرى. كما وفّر توبان الأموال بمساعدة الآغا خان والسلطان علي لبناء مدرسة، لا تحمل اسماً خاصاً، افتتحت في زنجبار العام ١٨٩١. وخلال السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين، تعرّض المستوصف للإهمال وسوء العناية ولكن أعيد تجديد البناء في العام ١٩٩٥ بتمويل من صندوق تنمية مؤسسة آغا خان الخيري، وتمّ افتتاحه في آذار/ مارس ١٩٩٧ كمقر لمركز ثقافي تجاري أفريقي.

الشجرة الكبيرة

كانت عائشة بانتظارنا في المستوصف القديم. وما أن استرحنا لدقائق معدودة، حتى أسلمت فاطمة قيادتي لعائشة وانسحبت معتذرة، بأنها مضطرة للعودة إلى الجريدة قبل أن تعود إلى البيت عند حلول موعد الغداء. وما إن وصلنا إلى مكان الشجرة القديمة على طريق ميزينغاني، حتى قالت عائشة بلهجة شبه رسمية شبيهة بلهجة فاطمة إنما أقل التزاماً بالرسميات: هذه الشجرة زرعها السلطان خليفة عام ١٩١١، معروفة باسم «الشجرة الكبيرة» (في اللغة السوحيلية اسمها متيني ـ أي مكان الشجرة)، وكانت مَعْلَماً بارزاً لسنين عديدة. يمكن رؤيتها في العديد من الصور الفوتوغرافية القديمة لبلدة زنجبار المأخوذة من البحر، وما تزال تراها بوضوح من السفن المقتربة من الميناء. واليوم، يستفيد صانعو المراكب التقليديون من ظلال الشجرة الوارفة حيث يقيمون تحتها ورشهم.

بعد حديث عائشة عن الشجرة ورؤيتي لها تذكرت فوراً شجرة الضيعة في لبنان التي كانت بمثابة مدرسة لجيل كبير من اللبنانيين يجلسون تحتها «تحت السنديانة» ويتلقون العلم، وكنت أعتقد أن

تلك العلاقة بالشجرة، من جميع النواحي، هي ما تبقى من ديانة سحيقة كانت تقوم على عبادة الشجرة.

الجوامع

عندما وصلنا إلى محيط الجوامع، أخذت نبرة عائشة تبدو أكثر ثقة بالمعلومات التاريخية، فقالت:

يوجد العديد من الجوامع في بلدة زنجبار، أقدمها جامع مالينديي قرب الميناء ببنائه الصغير غير المتمايز ومئذنته التي يبلغ عمرها مئات السنين. كما توجد ثلاثة من الجوامع الأكبر أيضاً في الجزء الشمالي من بلدة الحجر. جامع الجمعة (سنّة)، جامع الاثني عشرية (شيعة)، وجامع الآغا خان (الإسماعيلية)، وهي جميعها شيدت في القرن التاسع عشر. وبالمقارنة مع الجوامع الكبيرة في المدن الإسلامية الأخرى، والتي غالباً ما تكون مزيّنة بالقباب والمآذن العالية، فإن جوامع زنجبار هي بسيطة ومتواضعة نسبياً، مع أن جامع الجمعة تم تجديده العام ١٩٩٤ على الطراز العربي الحديث.

متحف القصر

وما أن شارفنا حدود متحف القصر، وهو مبنى أبيض كبير حتى تابعت عائشة:

يقع متحف القصر على طريق ميزنيغاني، في النقطة التي يقترب فيها كثيراً من البحر. كان اسمه بالأصل قصر السلطان، شيّد في أواخر التسعينيات من القرن التاسع عشر لأفراد عائلة السلطان. ومنذ العام ١٩١١ استخدم كمقر رسمي لسلطان زنجبار، وبعد ثورة ١٩٦٤ والإطاحة بالسلطان جمشيد، أطلق عليه اسم قصر الشعب واستخدم كمكاتب حكومية.

العام ١٩٩٤، حوّل القصر إلى متحف متخصص بتاريخ سلاطين زنجبار. والجدير ذكره، أن الكثير من أثاث السلاطين ومقتنياتهم الخاصة بقيت محفوظة خلال السنوات الأولى للثورة، ويمكن الآن مشاهدتها من قبل الجمهور. المتحف منظم جيداً، الطابق الأرضي مخصص للسنوات الأولى من السلطنة (من ١٨٢٨ إلى ١٨٧٠)، بينما تضم الطوابق العليا معروضات تعود للفترة التالية الغنية من ١٨٧٠ إلى ١٨٩٦. توجد ضمن المعروضات طاولات الولائم وأثاث الاحتفالات الرسمية وأشياء شخصية أخرى مثل الأسرّة ومرحاض السلطان الخاص. هناك أيضاً غرفة مخصصة للأميرة سالمة، ابنة السلطان سعيد التي هربت إلى هامبورغ مع تاجر ألماني العام ١٨٦٦. في حديقة القصر، توجد مدافن السلاطين سعيد وبرغش وماجد وخالد وخليفة وعبد الله.

بيت العجائب

عند بيت العجائب، قالت عائشة:

شيّد هذا المبنى في العام ١٨٨٣ كقصر رسمي للسلطان برغش (حكم من ١٨٧٠ إلى ١٨٨٨)، على موقع قصر قديم استخدمته الملكة فطومة، مويني ماكو، ملكة زنجبار القديمة، في القرن السابع عشر وهو مؤلف من عدة طبقات تحيطه صفوف من الأعمدة والشرفات ويعلوه برج ساعة كبير.

صمم المبنى مهندس بحري، واستخدمت فيه الأعمدة الفولاذية والعوارض من المعدن أو الخشب. كان الداخل مزيّناً بأرض رخامية وجدران مكسوّة بألواح الخشب، وكان أول مبنى في زنجبار يضاء بالكهرباء، وأيضاً واحداً من أول المباني في شرق أفريقيا المزودة بمصعد كهربائي، ولم يكن مفاجئاً أن يدعوه السكان المحليون، بعد

تشييده بـ «بيت العجائب». وهو ما زال للآن من أكبر مباني زنجبار.

العام ١٨٩٦، أصيب بيت العجائب بأضرار بسيطة من جراء القصف البحري خلال المحاولة الانقلابية عندما توفي السلطان حمد بصورة مفاجئة وأراد ابن عمه خالد الاستيلاء على العرش.

العام ١٩١١، اسُتعمل بيت العجائب كمكاتب لموظفي الحكومة الاستعمارية البريطانية، وبعد ثورة ١٩٦٤ استخدمه الحزب الأفرو ـ شيرازي، الحزب السياسي الحاكم في زنجبار. وأصبح في العام ١٩٧٧ المركز الرئيسي لحزب الثورة، الحزب السياسي الوحيد في تنزانيا آنذاك.

في أوائل التسعينات، تخلت الحكومة والحزب فعلياً عن المبنى، لكن داخل المبنى بقي مقفلاً أمام الزوار. وفي العام ١٩٩٦ أصبح يمكنك السير في المتحف الوطني ومشاهدة أبوابه المحفورة الضخمة والمدفعين القديمين من البرونز وعليهما كلام منقوش بالبرتغالية. ويعتقد أن هذين المدفعين صنعا في البرتغال في أوائل القرن السادس عشر، ثم أحضرهما العُمانيون إلى زنجبار بعد أخذهما من القوات الفارسية التي كانت قد استولت عليهما من البرتغاليين العام ١٦٢٢.

الحصن العربي

يقع الحصن العربي (اسمه أيضاً الحصن القديم) إلى جانب بيت العجائب. إنه بناء كبير بأسوار عالية بنيّة داكنة تعلوها فتحات. شيّد الحصن بين سنتي ١٦٩٨ و١٧٠١ من قبل الأسرة البوسعيدية العُمانية العربية التي سيطرت على زنجبار في العام ١٦٩٨. واستخدم الحصن لحماية العُمانيين ضد الهجمات البرتغالية وضد

جماعة عُمانية منافسة، آل المزروعي، الذين احتلوا مومباسا في الفترة ذاتها. في القرن التاسع عشر استخدم الحصن كسجن.

في بداية القرن العشرين، استخدم الحصن أيضاً كمستودع لخط سكة الحديد الذي امتد من بلدة زنجبار إلى بوبوبو، وفي العام ١٩٤٩ أعيد بناؤه واستخدم الفناء الرئيسي كنادي كرة مضرب للسيدات. في العام ١٩٩٤، تمّ تحويل جزء من الحصن إلى مسرح مكشوف.

كان الإعياء قد بلغ مني في ذلك الحر الرطب مبلغاً كبيراً، فاقترحت على عائشة ووافقت فوراً على اقتراحي، أن نذهب إلى أحد المطاعم لتناول طعام الغداء على أن نستأنف الجولة بعد الظهر. وهكذا كان.

حدائق جاميتوري

بعد الغداء دلفنا إلى حدائق جاميتوري (تسمى أيضاً حدائق فوروداني ـ أي جمارك) التي تقع بين الحصن العربي والبحر، ويطل عليها بيت العجائب. أقيمت الحدائق بداية العام ١٩٣٦ للاحتفال باليوبيل الذهبي لجلوس السلطان خليفة على العرش (حكم من ١٩١١ إلى ١٩٦٠) وسميّت بحدائق اليوبيل الذهبي حتى مجيء ثورة ١٩٦٤. إنها مكان محبب للسكان المحليين في الأمسيات، حيث بعض الأكشاك يقدم المشروبات والوجبات الخفيفة. في وسط الحدائق توجد منصة عالية حيث كانت الفرقة الموسيقية لجيش السلطان تعزف أمام الجمهور. ومن الناحية القريبة الأقرب للبحر يوجد قوس أبيض من الإسمنت على الطراز العربي أقيم في العام ١٩٥٦ خصيصاً من أجل زيارة الأميرة مرغريت (أخت ملكة بريطانيا اليزابيث الثانية).

مبنى مامبو مسيج

من الحدائق القديمة وصلنا إلى مبنى مامبو مسيج، وقد شيّد هذا البيت الفخم، المطل على ساحة مكشوفة عند الطرف الغربي البعيد لطريق شانغاني، وتندمج فيه عدة أساليب هندسية معمارية لثري عربي في العام ١٨٥٠. اسمه يعني «أنظر، لكن لا تقلد». اشترت وزارة الخارجية البريطانية المبنى في العام ١٨٧٥ وجعلته مقراً للقنصلية البريطانية حتى العام ١٩١٣. من العام ١٩١٨ وحتى ١٩٢٤ أصبح المستشفى الأوروبي، بعد ذلك انتقلت ملكيته للحكومة فحولته إلى مكاتب رسمية، واليوم تشغل المبنى شركة زنجبار للنقل البحري.

بيت «تيبو تب»

عندما وصلنا إلى بيت «تيبو تب». أرادت عائشة أن تستفيض في الشرح، فقالت:

كان تيبو تب تاجراً للرقيق، اسمه الحقيقي حامد بن محمد المرجبي. ولد في الأربعينات من القرن التاسع عشر وشارك في تجارة الرقيق وهو في الثامنة عشرة من عمره. يعتقد أن لقبه أتى من كلمة محلية تعني «رف العين»، إذ من المعروف إصابته بارتعاش عصبي يؤثر على عينيه، أو لأن عينيه كانتا تشبهان عيني عصفور يسمى محلياً «تيبو تب» له عينان تطرفان بشكل متكرر.

في منتصف القرن التاسع عشر، سافر تيبو تب لعدة سنوات عبر مناطق شرق أفريقيا متاجراً بالرقيق والعاج. كما أنه تعاون مع بعض المستكشفين الأوروبيين أمثال ليفنغستون وستانلي في التجارة نفسها وفي الحصول على تموينهم ورسم طرقهم.

تصف الروايات المعاصرة تيبو تب أنه رجل طويل القامة، ملتح، جسمه متناسق قوي، وجلده داكن وله وجه ذكي وهيئة عربي ذي تربية حسنة. كان يزور محظياته مرتين يومياً، ويقال إنه كان يناقش المبشرين بأن الأنبياء إبراهيم ويعقوب كانا من مالكي العبيد. بعد سنوات طويلة من التجارة على البر أصبح تيبو تب غنياً جداً، ففي العام ١٨٩٥ كان يملك سبع مزارع وعشرة آلاف عبد في زنجبار. توفي العام ١٩٠٥.

الكاتدرائية الكاثوليكية

تقع هذه الكاتدرائية الكبيرة بقبتيها البارزتين على طريق كينياتا في قسم باغاني من البلدة. ورغم أن قبتيها تشكلان علامة رئيسية، إلاّ أن الوصول إلى الكاتدرائية صعب عبر الشوارع الضيقة. شيدت بين العامين ١٨٩٣ و١٨٩٧ من قبل المبشرين الفرنسيين والمتحولين إلى المسيحية من السكان الذين أسسوا العام ١٨٦٠ إرسالية. وضع تصاميم الكاتدرائية المهندس المعماري الفرنسي ذاته الذي صمم كاتدرائية مارسيليا في فرنسا. تمّ استيراد قرميدها وزجاج نوافذها الملون من فرنسا، كما رسمت اللوحات الزيتية على جدرانها الداخلية بعد إنجاز بنائها مباشرة، وهي جميعها تبرز بوضوح التأثير الفرنسي.

يزور الكاتدرائية بانتظام أفراد الجالية الكاثوليكية وهم خليط من الزنجباريين والتنزانيين من البر الأفريقي، وبعض القادمين من مقاطعة جووا الهندية والأوروبيون.

أخذنا السيارة أنا وعائشة من الكاتدرائية الكاثوليكية لنصل إلى الكاتدرائية الإنغليكانية، حيث تواعدنا على لقاء فاطمة، لنتابع معها

الجولة في معالم زنجبار، قبل أن نلتقي مع مجموعة من الزملاء الزنجباريين على العشاء في الهواء الطلق في حديقة جاميتوري، لنتحدث في شؤون المهنة وشجون أفريقيا والعالم العربي.

الكاتدرائية الأنغليكانية

عند وصولنا إلى الكاتدرائية الإنغليكانية كانت فاطمة تنتظرنا في الساحة. واستلمت دفة الحديث.

كاتدرائية كنيسة المسيح، وتدعى أيضاً كاتدرائية «إرسالية الجامعات في أفريقيا الوسطى»، هي على الجانب الشرقي لبلدة الحجر. تقوم الكاتدرائية على موقع سوق العبيد الذي استخدم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عندما كانت زنجبار مركزاً مهماً لتجارة الرقيق.

وصلت مجموعة من مبشّري «إرسالية الجامعات في أفريقيا الوسطى» إلى شرق أفريقيا العام ١٨٦١، تلبية لنداء المستكشف ديفيد ليفنغستون لمقاومة تجارة الرقيق ونشر المسيحية عبر أفريقيا. في العام ١٨٦٤، استقر هؤلاء المبشرون في زنجبار، بعد فشل محاولات سابقة للاستقرار في مواقع أخرى. وعندما أغلق السلطان برغش سوق العبيد في العام ١٨٧٣، اشترى المبشرون الموقع وباشروا على الفور ببناء الكاتدرائية. ثم تبرّع تاجر هندي ثري ببعض الأرض المجاورة للإرسالية.

وعندما أقيم أول قداس في الكاتدرائية، وكان في عيد الميلاد العام ١٨٧٧، كان السقف لم يكتمل بعد، لكنه أنجز أخيراً في العام ١٨٨٠. وحسب التقليد، فإن مذبح الكاتدارئية يقوم على موقع شجرة كان العبيد يربطون إليها ثم يجلدون بهدف إبراز قوتهم وصبرهم.

لم يبق أي أثر لسوق العبيد حالياً، رغم وجود قبو مجاور، كان بالأصل حفرة يوضع فيها العبيد قبل بيعهم في السوق. كان أسقف زنجبار إدوارد ستير الملهم والقوة الدافعة لبناء الكاتدرائية، من سنة ١٨٧٤ إلى ١٨٨٢. وقام بتدريب السكان المحليين على أعمال البناء واستخدام الحجر المرجاني والإسمنت في البناء. والمعروف أن السلطان برغش طلب من الأسقف أن لا يكون برج الكاتدرائية أعلى من بيت العجائب، ولموافقته على الطلب، أهداه السلطان ساعة وضعت على برج الكاتدرائية. انتهى العمل في البرج في العام ١٨٨٣.

تعيش ذكرى ديفيد ليفنغستون في الكاتدرائية: فقد كرست إحدى النوافذ لذكراه، كما أن صليب الكنيسة صنع من الشجرة التي كانت تحدد المكان حيث دفن قلبه عند قرية تشيتامبو، في زامبيا حالياً.

متحف السلام

من كنيسة العبيد (كما تسمى مجازاً) إلى المتحف. قالت فاطمة:

المتحف معروف أيضاً باسمه المحلي: بيت الأمان. يحوي المبنى الرئيسي أقساماً تختص بالآثار، التجارة الأولى، الرقيق، القصور، الجوامع، السلاطين، المستكشفين، المبشرين، المندوبين الاستعماريين، الحرف التقليدية والأشياء المنزلية، الطوابع، العملات، صيد السمك وزراعة القرنفل، الصندوق الطبي الخاص بديفيد ليفنغستون.

في الملحق التابع للمتحف توجد مكتبة صغيرة وأقسام التاريخ الطبيعي، ومعروضات مثل، أفاع في جرار، صور لسمك متعدد

الألوان وعظام طائر الدودو المنقرض. في الحديقة توجد مجموعة من السلاحف العملاقة تحافظ على إبقاء العشب قصيراً.

أرشيف زنجبار

للمهتمين بهذا الموضوع، تقول فاطمة أن أرشيف زنجبار يحتوي على بعض المواد الآسرة، من ضمنها كتب ومخطوطات بالعربية يعود تاريخها للقرن السابع عشر عندما سيطر سلاطين عُمان على زنجبار، كذلك سجلات قنصلية من فترات الاستعمار البريطاني، وأوراق ووثائق تتعلق بالرحلات الأوروبية المختلفة التي انطلقت من زنجبار في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إضافة إلى الطوابع والصحف والخرائط والصور الفوتوغرافية الحديثة.

قصر تشوكواني

من المتحف والأرشيف انتقلنا إلى مجموعة من القصور، كان أولها قصر تشوكواني، الذي يقع بالقرب من قرية تشوكواني الصغيرة، إلى الجنوب من بلدة زنجبار. شيّده السلطان برغش في العام ١٨٧٢، واستخدم كمكان للنقاهة بعد المرض، إذ المفترض أن يكون الهواء هنا صحياً. بني القصر كنسخة مصغرة عن بيت العجائب، بدون برج. وخلال حكم السلطان علي بن حمود (حكم من ١٩٠٢ إلى ١٩١١) أصاب الخراب معظم أجزاء القصر، ولم يبق إلاّ الحمام. باب القصر الأمامي معروض في متحف السلام التذكاري.

قصر ماروحوبي

على الشاطيء، وعلى بعد أربعة كيلومترات من بلدة زنجبار،

شاهدت قصر ماروحوبي الذي بناه السلطان برغش العام ١٨٨٢ منزلاً للعائلة واحتفظ فيه بمائة من النساء، زوجة واحدة و٩٩ محظية. (السلطان نفسه كان يعيش في القصر في بلدة زنجبار).

بني القصر بحجر المرجان والخشب، وعرف عنه أنه من أكثر القصور زخرفة على الجزيرة. وقد أقيمت أسوار كبيرة حول ساحات القصر، أوحت بها جدران أراضي الصيد التي شاهدها السلطان أثناء زيارته إلى إنكلترا في العام ١٨٧٥. لسوء الحظ، دمر القصر بعد أن شبت فيه النار العام ١٨٩٩، وكل ما بقي منه للآن الأعمدة الضخمة التي كانت تدعم الطابق العلوي، والحمام المبني على الطراز الفارسي. وما زال بالإمكان رؤية مراحيض النساء المنفصلة والحمام الكبير الخاص بالسلطان. وخزانات المياه الأصلية، التي تغطيها الزنابق.

قصر بيت الرأس

على الشاطىء نحو الشمال، شيّد السلطان سعيد هذا القصر «كمنفذ للمياه الفائضة» لأطفاله وخدمهم. بدأ البناء العام ١٨٤٧، لكنه حتى وفاته العام ١٨٥٦ لم يتم إنجازه. ولم يكمل السلطان ماجد (خليفة سعيد) هذا المشروع، إنما استخدمت معظم حجارته خلال بناء خط سكة حديد زنجبار. أخيراً، دمّر القصر العام ١٩٤٧ لبناء مركز تدريب للمعلمين. لم يبق من القصر اليوم سوى شرفة كبيرة بقناطر عالية ودرج من جهة واحدة.

حمامات فارسية

من القصور اتجهنا إلى الحمامات الفارسية التي تصفها فاطمة كما يلي:

شيدت حمامات كيديتشي الفارسية الطراز العام ١٨٥٠ في شمال شرقي بلدة زنجبار، في منطقة مزارع القرنفل وجوز الهند، للسلطان سعيد الذي كان يملك هذا الجزء من أرض الجزيرة، حيث كان يأتي برفقة زوجته، ابنة إيراج ميرزا (كانت تدعى أيضاً شيرزادة، وغالباً ما يكتب شهرزاد) للصيد أو للإشراف على العمل في مزارعه. ولذلك أنشئ الحمام لكي يغتسلا فيه وينتعشا بعد الرحلة من البلدة، أو بعد الصيد. كانت شيرزادة حفيدة شاه بلاد فارس، لذلك شيدت الحمامات على الطراز الفارسي فكسيت بالجص المزخرف، ووضع فرن تحت الأرض ليبقي المياه دافئة. بالقرب من الحمام بنيت استراحة صغيرة لم يبق منها أي أثر.

في طريقنا إلى حمامات حمامني التي تقع في وسط بلدة الحجر إلى الشرق من كاتدرائية القديس يوسف، تسمى المنطقة حمامني نسبة للكلمة العربية حمّام.

طالعنا أول حمّام في زنجبار، وقد أمر ببنائه السلطان برغش وشيّده مهندس يدعى حاجي غلام حسين. وهو أحد أكثر الحمامات إتقاناً وصنعة في زنجبار، وقد بني على الطراز الفارسي. (توجد مثل هذه الحمامات في العديد من البلدان العربية والإسلامية، وهي معروفة بشكل عام لدى الأوروبيين باسم «حمامات تركية»). لا تعمل الحمامات في الوقت الحاضر، لكن بالإمكان الدخول إليها للتفرج. الحمام من الداخل واسع جداً، ويحتوي على أقسام مختلفة بما فيها غرفة البخار، الغرفة الباردة وبركة المياه الباردة.

الكهف المرجاني

بعد الحمام الفارسي كانت محطتنا الأخيرة الكهوف.

مانغابواني (معناها «الشاطىء العربي») على بعد ٢٠ كلم شمالي بلدة زنجبار. والكهف المرجاني هو عبارة عن مغارة طبيعية من صخور المرجان، لها مدخل ضيّق، وفي داخلها بركة من المياه العذبة عند أكثر نقاطها انخفاضاً. ربما استخدم السكان الأوائل في هذه المنطقة مياهها. إنما في الماضي نمت النباتات على مدخل المغارة وحجبتها عن الرؤية «فضاعت». فيما بعد أصبحت هذه المنطقة ملك أحد الأغنياء العرب، اسمه حامد سالم الحارثي، الذي كان يملك عدداً كبيراً من العبيد يعملون في مزارعه. في هذه الفترة، كان الكهف قد أعيد اكتشافه بواسطة فتى كان يبحث عن عنزته الضائعة. واستطاع السكان المحليون استعمال مياهه مجدداً. يقال إن الكهف كان يستخدم كمخبأ للعبيد بعد إلغاء تجارة الرقيق رسمياً العام ١٨٧٣.

مغارة العبيد

تقع مغارة عبيد مانغابواني على بعد كيلومترات قليلة من الكهف المرجاني. وهي، في الحقيقة، ليست مغارة وإنما عبارة عن تجويف مربع الشكل محفور في صخر المرجان، يعزى إنشاؤها إلى محمد ابن نصور العلوي الذي كان تاجر عبيد ذائع الصيت. وكانت القوارب القادمة من البر الأفريقي تفرغ حمولتها البشرية على الشاطىء القريب، ويتم الاحتفاظ بالعبيد فيها هنا قبل نقلهم إلى بلدة زنجبار أو إلى أي مكان آخر على ساحل شرق أفريقيا، أو إلى شبه الجزيرة العربية. ويعتقد أنه بعد توقيع السلطان برغش للاتفاقية البريطانية ـ الزنجبارية في العام ١٨٧٣، التي تلغي رسمياً تجارة الرقيق، كانت المغارة تستخدم لإخفاء العبيد، كون هذه التجارة غير المشروعة استمرت لسنوات عديدة. حالياً، المغارة مازالت موجودة، رغم زوال سقفها الخشبي.

طرب

ما إن انتهت جولتنا الأخيرة في معالم زنجبار، وقد بلغ بي التعب حداً كبيراً، وأنا المعروف بكسلي وعزوفي عن المشي، حتى قالت لي عائشة: لقد نظّمت لك فاطمة الليلة سهرة طرب مع مجموعة من الزملاء الزنجباريين. ولما كنت مرهقاً في تلك اللحظة والعرق يتصبب مني وكأنني داخل فرن تتصارع فيه درجة الحرارة مع درجة الرطوبة، لم أستوعب تماماً ما ذكرته عائشة عن سهرة الطرب. وبدا ذلك واضحاً على محياي، استدركت فاطمة الموضوع، وقالت: إنها سهرة غناء وموسيقى. وكلمة طرب بالسواحيلية تعني ذلك. قلت لها: إنها كلمة عربية، استعارتها اللغة السواحيلية، وتعني تماماً الغناء والموسيقى. ولكن أي طرب سنسمع؟ أجابت فاطمة: انتظر إلى المساء. إنك ستستمع إلى أم كلثوم زنجبار، بل شرق أفريقيا كلها.

عند المساء مرت عائشة إلى الفندق لتأخذني إلى مطعم صغير في الطابق الأرضي من مبنى عماني قديم في بلدة الحجر القديمة، كان محجوزاً بكامله لهذه السهرة. وفي زاوية ذلك المطعم، كانت هناك فرقة موسيقية مؤلفة من أربعة عازفين بالملابس العمانية الكاملة وعلى رؤوسهم الطاقية، أو «الكمة» كما تسمى بعُمان. من مدخل المطعم قادتني فاطمة بيدها لتعرفني على أفراد الأوركسترا. فكان محمد الياس قائد الفرقة وعازف الكمان، وسيف سالم عازف القانون، وعلي سالم عازف العود، وصوما عامر عازف الطبلة. وبدت ملامح الجميع ملامح عربية عمانية، ما عدا صوما عامر، عازف الطبلة، فكانت ملامحه أفريقية واضحة.

أم كلثوم

وسألت قائد الفرقة محمد الياس عن اسم الفرقة فابتسم وقال لي بالإنكليزية: بالسواحيلية اسمها «نيوتا ياكوميتا» وبالعربية «الكوكب المضيء»، وبالإنكليزية «توينكلينغ ستار» Twinkling Star. قلت له أي موسيقى ستعزف؟ قال الياس: تعزف الموسيقى العربية والجاز الأميركي والبوق الزنجي والألحان الأفريقية على مختلف الآلات الموسيقية العربية التي تراها. وستسمع أم كلثوم زنجبار تغني على كل لحن من هذه الألحان.

وحتى هذه اللحظة لم أكن أعرف من هي أم كلثوم الزنجبارية التي يتحدثون عنها، فسألته: ما حكاية هذه المطربة التي تسمونها أم كلثوم. أجاب الياس: اسمها فاطمة براكة، ويسمونها في زنجبار «كيدودة». عمرها اليوم ـ ما عدا السهو والخطأ ـ ثمانون سنة، في صوتها تاريخ زنجبار الموسيقي والفني كله. شاركت في معظم المهرجانات الموسيقية العالمية ممثلة شرق أفريقيا منذ الستينيات، كان آخرها في هولندا في العام ١٩٩٥.

ولما جلسنا إلى طاولاتنا، بدأت الفرقة تعزف مجموعة من الألحان العربية المعروفة لمحمد عبد الوهاب وفريد الأطرش ورياض السنباطي ومحمد الموجي، وعدداً آخر من الألحان العربية القديمة، أثارت فيَّ الحنين إلى الأيام العربية الخوالي فطلفقت ألملم ذكرى الأمس بالهدب، متعجباً من مدى قدرة الموسيقى على ربط الشعوب ببعضها البعض. ولما انتهت وصلة الموسيقى العربية، التي دفعت مجموعة من الفتيات الزنجباريات من بين ضيوف المطعم إلى الرقص على أنغامها، حتى بدأت الفرقة تعزف موسيقى غربية لمجموعة من

الأغنيات التي كانت شائعة في الستينيات في العالم. ثم انتقلت إلى شيء من الموسيقى الأفريقية قريبة من الجاز الأميركي.

«كيدودة»

وما أن مرت استراحة قصيرة، حتى علا التصفيق. وإذا بإمرأة بدينة ملتحفة بشيء يشبه الملاية، تقف أمام الفرقة وسط هتاف وصفير المشاهدين، وهم يصرخون: كيدودة... كيدودة. إذاً هذه هي أم كلثوم، الصبية الزنجبارية ذات الثمانين حولاً. وبدأت فاطمة براكة الغناء بالسواحيلية، بصوت لم أسمع أجمل ولا أرخم منه منذ زمان طويل. وكنت متيقناً من أن هذا الصوت، على الرغم من عدم معرفتي بالسواحيلية، يتقيد بأرقى قواعد الطرب العربي. إلى أن انتقلت إلى الغناء، ما ظننته لأول وهلة بالعربية، فإذا به ألحان لأغنيات عربية شائعة إنما بكلمات سواحيلية. ثم غنت وصلة قصيرة بالعربية تحية للصحافي العربي الزائر، من أغنية أم كلثوم الشهيرة «أنت عمري».

كان مشهد أم كلثوم الزنجبارية لا يصدق، وسط أجواء المطعم الحماسية، والكل منسجم ومطروب، ما عدا هذا الصحافي الذي استيقظت فيه كل حواسه التاريخية، وتحركت فيه أحاسيس الحنين إلى الماضي، وكاد ينسى أنه على بعد نصف الكرة الأرضية عن بيروت، التي تروج لأكبر عدد من الثقافات الفنية.

لا أذكر إلى متى استمر عزف فرقة محمد الياس أو غناء كيدودة، إنما أذكر أن الفجر لاح عندما خرجنا من المطعم، وأخذتنا فاطمة بسيارتها إلى مرتفع غرب زنجبار يطل على البحر لنشهد شروق

الشمس، ونشرب عصير قصب السُكر البارد مع «الليم» (الليمون الأخضر الصغير).

وعندما ارتفع قرص الشمس الأحمر الكبير من وراء البحر، لم يعد عند الصحافي العربي القادم من بيروت كلام كثير ليقوله لمضيفتيه. سوى أنه ودعهما، وفي داخله حسرة كبيرة عن أندلس عربية أضاعها العرب في أفريقيا.

وكان صباح وكان مساء يوم آخر في بر الزنج الجميل.

«دافو»

إحدى وجبات زنجبار الخفيفة واللذيذة هي ثمار جوز الهند الطازجة التي يمكن العثور عليها في كافة أنحاء الجزيرة خلال الموسم. محلياً يدعونها «دافو»، وهي تعرض على جانب الطريق أو في السوق مثل كومة من كرات القدم الخشبية ذات اللون البني الفاتح.

أنت تختار جوزة الهند ويقوم البائع بقص رأسها بواسطة سكين حاد، حتى تتمكن من شرب السائل الذي بداخلها. بعد ذلك، يضع البائع ملعقة في جزء من قشرة جوزه الهند لتغرف بها اللب الطري الطازج.

مصارعة الثيران

خلال العطل والأعياد، يمكن مشاهدة مصارعة الثيران التقليدية التي يصعب معرفة مواعيدها في زنجبار وبيمبا. وأصل هذه الرياضة غير أكيد، رغم الاعتقاد بأن البرتغاليين هم الذين أدخلوها. يقدم مصارعو الثيران المحليون عروضهم الجريئة على الطريقة الأيبيرية ـ الإسبانية، يقفون أمام الثور ويستفزونه للهجوم ثم يتنحون جانباً في اللحظة الأخيرة، مما يثير إعجاب القرويين المراقبين.

وفي نهاية الصراع لا يقتل الثور، وإنما يمتدح وأحياناً يزيّن بالأزهار وأوراق الشجر ثم يجري استعراضه في أنحاء القرية. ولسوء حظ، السيّاح، تنتهي مصارعات الثيران في معظم الأحيان دون حوادث تذكر. ولا يخلو الأمر أن ينخرط فيها مجموعة من الأولاد الزنجباريين بضرب ثور لا مبالٍ بالقضبان، بينما تصرخ الفتيات عالياً.

«النيروز الشيرازي»

إذا صادفت زيارتك لزنجبار خلال الأسبوع الأخير من تموز/يوليو، حاول أن تذهب إلى قرية ماكوندوشي في زنجبار، حيث يقام سنوياً احتفال «مواكا كوجوا» الذي يأتيه السكان المحليون من كافة أنحاء الجزيرة للغناء والرقص وقرع الطبول. يدعى الاحتفال أيضاً باسم «مواكا نيروز»، وهي تسمية من أصل فارسي تشير إلى بداية السنة الجديدة حسب الروزنامة الفارسية الشيرازية.

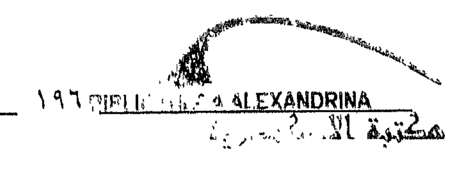
يتضمن الاحتفال شعائر متنوعة، من بينها قتال صوري حيث يضرب الرجال بعضهم بعضاً بجذوع الموز، ويسود الاعتقاد أن هذا القتال يتيح لكل مشترك فرصة التنفيس عن مشاعره، وبهذه الطريقة يتم التخلص من كافة المنازعات المتعلقة بالسنة الماضية والبدء بسنة جديدة مسالمة.

وبينما ينشغل الرجال بالقتال، تحتفل النساء بطريقة أكثر فرحاً، فيقمن بعرض في شوارع القرية، وهن بأبهى حللهن، وأصواتهن مرتفعة بالغناء. وتتضمن هذه الأغاني معاني نقدية عن الحب والعائلات وحياة القرية.

المرحلة التالية من الاحتفال هي شعائر إحراق كوخ تقليدي كان قد بني خصيصاً لهذه الغاية. يدخل «طبيب» محلي (يسمى «شافي» بالسواحيلية) إلى الكوخ قبل إشعال النار، ويخرج منه مسرعاً عندما يكون الكوخ مشتعلاً بقوة. ويُعتقد أن إحراق الكوخ يرمز إلى انتهاء السنة القديمة. كما يضمن أيضاً، في حال احتراق أحد الأكواخ في السنة الجديدة، خروج ساكنيه منه سالمين.

بعد الانتهاء من شعائر القتال وإحراق الكوخ، تقام وليمة كبيرة يأكل القرويون معاً من الطعام الذي أحضروه. ويتم الترحيب بالناس القادمين من مناطق زنجبار الأخرى، لأن التقاليد المحلية تعتبر أن سعادة القروي لا تتم دون مشاركة الضيف بطعامه.

بعد الأكل يبدأ الرقص الزنجباري التقليدي. لكن حالياً يتضمن الرقص أنغام الديسكو المسجلة عبر مكبرات الصوت. يستمر السكان المحليون بالرقص حتى الليل، أما محبو الحفلات والسهر الطويل فينتقلون إلى الشاطىء لمتابعة الرقص والغناء حتى الفجر.



الصورة البشعة لأفريقيا الجميلة



٣

جروح بيضاء
على وجه القارة السوداء

عندما عرف صديق إنكليزي، سبق له أن عمل في أفريقيا، أنني في نية السفر إلى شرق أفريقيا للكتابة عن العرب والإسلام فيها، قال لي بشيء من السخرية:

ـ أعرف أن ثمة مسلمين في أفريقيا، ولكني لا أعرف أن هناك إسلاماً فيها. وأعرف أنه كان هناك أمبراطورية عربية على سواحل شرق أفريقيا، ولكني لا أعرف للعرب وجوداً فيها اليوم؟

أجبته بشيء من التحدي الممزوج بالعناد: كما اكتشف مواطنوك الإنكليز من الرحالة والمستكشفين منابع النيل والبحيرات والقبائل والحيوانات والنباتات والجبال وكنوز الملك سليمان الأسطورية، سأحاول على طريقتي، أن أعيد اكتشاف العرب والإسلام.

ضحك الصديق الإنكليزي لاعتدادي، وقال ببرود: نصيحتي، أن تبحث عنهما في التاريخ لا في الواقع، لأن الواقع مفجع وما ستراه بعينيك مخيّب للآمال. لست أول ولا آخر صحافي وكاتب يحاول استعادة تاريخ ما أهمله التاريخ من بين المزابل التي تركها

الاستعمار وعاث من بعده الأفارقة فيها فساداً. ليس في شرق أفريقيا، من شمالها الشرقي في الصومال إلى جنوبها الشرقي في موزمبيق، مروراً بكل جزر القمر والشمس في المحيط الهندي، أندلس عربية ضائعة. الأندلس الأفريقية كانت مرافىء للرقيق وسفناً للقراصنة وسلاسل يساق بها الأفارقة عبيداً في أسواق النخاسة في الجزيرة العربية وبلاد فارس وآسيا الوسطى. وكانت كذلك مرافىء لتجار التوابل والعاج. أندلس أفريقيا ليست أندلس شبه الجزيرة الإيبيرية. وربما لكونك عربياً قادماً من الصحراء، فأنت متيّم بالبحث عن السراب.

أجبت الصديق الإنكليزي، الذي حاول إحباطي بتقزيم الحجم العربي ـ الإسلامي في شرق أفريقيا: هل تعدني إذا أنا وجدت الواحة العربية ـ الإسلامية التي أنشدها في أفريقيا، بأن تعترف أنت الإنكليزي، كاستعماري قديم، بالدور العربي في أفريقيا، ولو أقريت لك أن ليست كل أندلس كالأندلس؟

لما رأى الصديق الإنكليزي (الذي كنت أعرفه من أيام الجامعة في كيمبردج وكان من جيل يكبرني سناً، والذي درس فيها اللغة السواحيلية وعمل في دار السلام في تنزانيا في المجلس الثقافي البريطاني مدة خمس سنوات) أن صديقه العربي ليس مستعداً للتنازل عن الوهم ـ الحلم الذي يحاول اللحاق به، قال: لنتكلم بشيء من الواقعية وأنت على عتبة الإقلاع إلى القارة السوداء. من السهل جداً أن تكون متشائماً حول مستقبل أفريقيا غير أنه من الصعب أن تكون متفائلاً حول حاضرها. لقد ضربها الجفاف ولحقت بها المجاعة وفتتتها الحروب الأهلية والنزاعات القبلية وعششت فيها جرثومة مرض «الإيدز» التي تسربت إلى أدغال

الحياة الجنسية حيث الجنس لم يكن أبداً قضية أو مشكلة، كما هو اليوم.

ولما شعرت أن صديقي الإنكليزي يحاول أن يستفيض في الحديث عن أفريقيا ويريد أن يرسم لوحة معينة لها، وبالألوان التي يراها فيها، قلت له: استرسل وأكمل رسم الصورة كما تراها. وهكذا تركت لزميل الدراسة القديم مهمة السرد وتركت لنفسي مهمة التعليق. وتابع الزميل ـ الصديق درسه الأفريقي، وتابعت استماعي.

□ □ □

بانوراما

يحكم أفريقيا اليوم مجموعة من «الأباطرة الصغار»، وقد حوّلوها إلى أرض قاحلة، حتى أصبح الفقر من سماتها الأولية. وجرّ الفقر معه مجموعة أخرى من «الحكّام السحرة»، يتملكهم جنون الجشع والفساد بلا حدود ولا ضوابط. فأكلوا الأرض وما عليها، وعاثوا فيها فساداً. وما رحلوا عنها إلاّ عنوة أو عنفاً، عندما جرفهم القحط بمعناه الطبيعي والاقتصادي والسياسي. رجل واحد فقط في كل أفريقيا تنازل طوعاً عن الحكم، هو جوليوس نيريري رئيس تنزانيا الملقب اليوم بـ «حكيم أفريقيا».

صورة أفريقيا ليست صورة مغرية. رحل عنها المستعمرون ونضبت المساعدات الدولية، وخرجت الإرساليات التبشيرية، ونفضت الدول الكبرى أيديها، وهرب كل الناس منها، إلاّ أهلها. لأنه لا مكان لهم ليفروا منه أو إليه، اللهم إلاّ من حدود يذبح البعض منهم البعض الآخر، أو معسكرات يعشش فيها الفقر والجوع والمرض، فإذا نحن أمام صور مزرية يراها العالم يومياً في نشرات الأخبار في

التليفزيون ويقرأ عنها في الصحف دون أن يفقه شيئاً مما يجري. فلا يشفق ولا يبكي ولا يهتز. فالأمر، حالياً، لا يعنيه.

ولأن العالم لا يريد أن يأرق أو يصاب بالصداع من أجل أفريقيا، لذا يدير وجهه عن تلك الصورة البشعة لأفريقيا الجميلة.

فحكّام أفريقيا وحكوماتها لم يعودوا يملكون القدرة السياسية ولا المال لوقف هذا الانهيار. الدول العالمية المانحة، تسأل، من دون تأنيب ضمير، أين البنية التحتية قبل أن نوفر لكم المساعدات؟ وتنزلق أفريقيا يوماً إثر يوم، في تخلفها الاقتصادي والإنمائي وتقهقرها السياسي، وأصحاب النوايا الحسنة يتفرجون.

لكن الصورة ليست كلها بهذه القتامة. هناك بلدان في أفريقيا تتحرك تدريجياً وببطء نحو شيء من الديموقراطية واستيعاب التنمية الحديثة وأساليب الاقتصاد الحر، وإن كان الزمن لا يتحرك عندهم بالسرعة المطلوبة منه في هذا العصر. لكنه على الأقل يتحرك. ومع الألم والأمل الذي يخلقه هذا التحرك المحدود، ومع ازدياد الوعي السياسي في إطار من التنمية المنفتحة، يبدو ـ بشيء من التفاؤل ـ بأن ثمة سحابة ممطرة في سماء أفريقيا المكفهرة اشتاقت إليها الأرض الأفريقية المجدبة. لكن ليس هناك صلاة استسقاء تستدرج تلك السحابة، كذلك لا يبدو أن ثمة معجزات تلوح في الأفق.

□ □ □

الاستعمار

استعاض الرجل الأبيض عن الرق بالاستعمار في نهاية القرن التاسع عشر، حين بدأ الزحف الاستعماري الأوروبي للسيطرة على أفريقيا. بما سمي بـ «نهش أفريقيا».

في أفريقيا غير الصحراوية، أثيوبيا (الحبشة) وحدها ظلت خارج

الاستعمار الأوروبي، حتى مطلع الثلاثينات حين غزتها إيطاليا موسوليني. الفائزون بالدرجة الأولى، كانوا بريطانيا وفرنسا، بعدهما جاءت ألمانيا، والبرتغال وبلجيكا وإسبانيا. وبعد أن هزمت ألمانيا في الحرب الكبرى (العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨) خسرت مستعمراتها التي اقتسمها خصومها. تنغانيكا أخذتها بريطانيا. جنوب غرب أفريقيا (ناميبيا الآن) ذهبت لدولة جنوب أفريقيا البيضاء، التي كانت بريطانيا مسيطرة عليها. روندا - أوروندي (روندا وبوروندي اليوم) أخذتها بلجيكا. الكاميرون اقتسمتها فرنسا وبريطانيا، وتوغولاند (توغو اليوم) أخذتها فرنسا.

كان للسيطرة الأوروبية تأثيراتها المختلطة، فأورثت بريطانيا وفرنسا حكومات ما بعد الاستقلال، بنية تحتية من ضمنها: طرق سكة الحديد، موانىء، نظام قضائي، تجربة برلمانية قصيرة، مدارس وكليات تدريب للمعلمين، شرطة وموظفون مدنيون. في شرق وجنوبي أفريقيا، انتزع مقابل ذلك المستوطنون البريطانيون البيض أفضل الأراضي الزراعية. أما البلجيكيون فكانوا مختلفين: عندما تخلوا عن الكونغو (زائير حالياً) تركوا وراءهم بلداً شاسعاً والقليل من الأشخاص المدربين والبنية التحتية. درّبت البرتغال «واستوعبت» نسبة صغيرة جداً من السكان الأفارقة في أنغولا والموزانبيق، لكن معظم الوظائف كانت بأيدي المستعمرين. وعندما هرب هؤلاء، بعد الاستقلال، أخذوا مهاراتهم معهم. كان هناك شيء واحد مشترك في التجربة الاستعمارية: عندما انتهت، هلّل الأفارقة.

الحرية!

تحقق الاستقلال بأقل المشاكل، إذ عملت بريطانيا وفرنسا على تسليم السلطة للأفارقة على مراحل. فنتيجة الضغوط القوية التي

مارسها الساسة الأفارقة الطموحون، نصبّت الدولتان، في البداية، حكومات تتمتع بالحكم الذاتي فيها أغلبية أفريقية وبرئاسة وزراء أفارقة. وكان بين الأوائل، كوامي نكروما في ساحل الذهب، والتي أصبحت غانا لاحقاً. ربما كانت عملية الاستقلال في كينيا أسرع من غيرها نتيجة انفجار أعمال الإرهاب من قبل «ثوار الماو ماو» ضد المزارعين الإنكليز البيض، إلاّ أن عملية الانتقال إلى الاستقلال في الأماكن الأخرى قد كانت في الأغلب سلمية. أصبح العديد من المستعمرات الفرنسية تلقائياً أعضاء في الاتحاد الفرنسي العام ١٩٥٨، ومنحوا خيار البقاء، سياسياً، جزءاً مندمجاً مع الوطن الأم ـ فرنسا. لكنهم اختاروا الاستقلال، وتمّ منحهم ذلك في العام ١٩٦٠. وكذلك، منحت بلجيكا الاستقلال للكونغو العام ١٩٦٠، لكن بدون تحضير عملي، وأدت المذابح التي تلت، لأول تدخل دولي بواسطة الأمم المتحدة بقيادة أمينها العام في حينه داغ هامرشولد. كانت البرتغال استثناء؛ إذ إنها خلال حكم الرجلين القويين: انطونيو سالازار ومارسيلو كايتانوا، رفضت بعناد التخلي عن مستعمراتها وأنفقت أموالاً هائلة على قواتها المسلحة في سبيل ذلك. ولم تحصل المستعمرات على الاستقلال إلاّ في عهد الثوريين البرتغاليين الذين أطاحوا بالنظام القديم العام ١٩٧٤ في العاصمة لشبونة.

السلطة

كانت الحكومات الأفريقية بعد الاستقلال تبدو كأنها تريد الانسجام مع نموذج معين. فعمل الزعماء الأفارقة لتأكيد أفكارهم الخاصة ورفض أفكار من سبقهم، ووجدوا أنهم يتمتعون بالسلطة ورغبوا بالاحتفاظ بها. ولذلك حوّل العديد من هؤلاء الزعماء

بلدانهم إلى دولة الحزب الواحد، ووضع كل منهم نفسه على رأس الحزب. كل السلطة كانت من حقهم، والساسة المدنيون لا يقدرون على شيء سوى خدمة الرئيس أو الذهاب للمنفى. غير أن ضباط الجيش المستاءين، الذين اعتقدوا أن إدارتهم للبلاد ستكون أفضل، كانوا من نوع مختلف: كانوا يمتلكون المدافع وبإمكانهم التهديد باستخدامها. وسرعان ما أطلت الانقلابات العسكرية الأولى، لتصبح عادة بائسة في معظم أفريقيا، وظهر نموذج جديد لفترة ما بعد الاستقلال. فلقد حاول عديد من الحكومات الجديدة تأكيد سيطرتهم على الاقتصاد عن طريق تأميم البنوك وشركات التعدين، وتأسيس هيئات تسويق السلع المملوكة من قبل الدولة، والتحكم بالتجارة بحزم. غير أن هذه الحكومات كانت مفتقرة إلى الخبرة الكافية لكي تقوم بهذه المهمة بالفعالية المطلوبة، وسرعان ما اتضح أن سياساتهم كانت غير منتجة.

الانحدار

كانت الستينيات مرحلة التفاؤل، واستمر الاقتصاد بالنمو خلال السبعينيات، إلاّ أن الثمانينيات حملت معها المرارة. ففي العديد من البلدان، لم تعد الأنظمة الديكتاتورية الفاسدة تتمتع بالشعبية، وأصبح الاقتصاد يعاني كثيراً من وطأة هيمنة الدولة، فهبطت مداخيل الضرائب وتصاعد العجز في الموازنة. ثم بدأت هذه الدول التي تملك عملتها الخاصة بطباعة المزيد من الأوراق النقدية مما أدى إلى التضخم، وغياب الاستثمار الأجنبي. وكانت أسعار صرف العملات في عدد من البلدان الأفريقية تفوق قيمتها الحقيقية، مما صعّب عملية التصدير وشجّع الاستيراد (في حال كانت العملات الأجنبية متوافرة). نمت القوة العاملة الأفريقية بسرعة، غير أن

القطاع الخاص الصغير الحجم لم يستطع توفير الوظائف المطلوبة. حافظت الأنظمة في دول أفريقيا الفرنسية السابقة على ولاء النخبة عبر تقديم منح غلاء معيشة لطلاب الجامعات (معظمهم من الطبقة الوسطى) وتعيين الخريجين في وظائف الدولة.

مع انهيار الاقتصاد، فقد العديد من الأنظمة القدرة على تسديد الفواتير الداخلية والخارجية، وفرض عليها اللجوء لصندوق النقد الدولي والبنك الدولي. وكان رد الهيئتين الدوليتين إيجابياً، أي أنهما ستقدمان المساعدة شرط أن تعمل الأنظمة المذكورة على موازنة ميزانياتها بواسطة التقشف، وعلى تنفيذ إصلاحات السوق الحرة الأخرى. ولم يكن أمام الحكّام الأقوياء غير الموافقة، فخفضوا الصرف على المدارس والعيادات الطبية والخدمات الأساسية الأخرى. كما عملوا على تأخير دفع المعاشات للموظفين المدنيين، ومنح الطلاب وفواتير الموردين. وأخذ الحكّام يلومون البنك الدولي وصندوق النقد الدولي للورطة التي وقعوا فيها، ولكن ذلك لم يكسبهم أي شعبية.

أفريقيا الفرنسية

غضبت حكومات الدول المانحة للمساعدات، وبعضها عارض أن تنتهي أموال دافعي الضرائب من مواطنيها في حسابات المصارف السويسرية. لقد بدأت مرحلة جديدة من تطور أفريقيا. في أواخر الثمانينات، وجد الحكام الأقوياء أنفسهم في مشكلة. ومرة جديدة، كان هناك تشابه لافت في تجربة الدول الثلاث عشرة المعتمدة على فرنسا. إذ قام الطلاب وموظفو الحكومة المنتمون لنقابات، بمظاهرات ضد تأخر الدولة في صرف الأجور والمنح، وساند هؤلاء الطبقة الوسطى الساخطة والكنيسة الكاثوليكية.

وسريعاً ما تطورت مطالب المتظاهرين لتشمل ديموقراطية تعدد الأحزاب وعقد المؤتمرات الوطنية، ولم يجد الحكّام، الذين كانوا يعيشون مرحلة تراجع، سبيلاً سوى الموافقة على المطالب مرغمين. لقد ضمت المؤتمرات الوطنية النقابيين والطلاب وخصوم الحكام السياسيين وقادة الكنيسة ومنظمات مدنية عديدة. وبعض هذه المؤتمرات أعلنت نفسها سلطة، وأقامت مجلساً أعلى للجمهورية وعيّنت رئيس وزراء مؤقتاً وسارت بالبلاد نحو انتخابات حرة ونزيهة. هذا ما حصل تقريباً في بنين والكونغو (الفرنسية سابقاً)، والنيجر ومالي وجمهورية أفريقيا الوسطى. لكن الحكام الأقوياء رفضوا التخلي عن السلطة في ساحل العاج وتشاد والسنغال وتوغو (بعد أن أصبح الديموقراطيون على وشك الانتصار) وبوركينا فاسو والغابون (حيث برزت الشكوك حول الانتخابات متعددة الأحزاب). لكن رغم أن السجل كانت تتخلله الرقع، إلاّ أن التقدم كان ملحوظاً، وفي البلدان حيث صمد الحكام الأقوياء، استمرت الضغوط من أجل المزيد من الديموقراطية.

أفريقيا الإنكليزية

لقد مورس ضغط لتحقيق المزيد من الديموقراطية والإصلاح الاقتصادي من قبل المجموعات الاستشارية التي يرعاها البنك الدولي في كينيا وملاوي. إن هذه المجموعات، مع مجموعات أخرى من المانحين، أبلغت الحكومات المتلقية للمساعدات. (منها كينيا وملاوي) بتعابير واضحة وجازمة أن المساعدة المستقبلية تعتمد على تبني ديموقراطية التعددية الحزبية وإصلاحات السوق الحرة الحقيقية، وقد وافقت كلتا الحكومتين على هذه المطالب، وجرت الانتخابات الحرة في البلدين. في كينيا، أعيد انتخاب

الرئيس دانيال اراب موي، لأن المعارضة انقسمت إلى فرقاء، وفي ملاوي انتصرت المعارضة على الرئيس هاستينغز باندا. وفي الأماكن الأخرى من أفريقيا الناطقة بالإنكليزية، أعاد رئيس زامبيا كنيث كاوندا إدخال ديموقراطية التعددية الحزبية، وكانت النتيجة خسارة كاوندا الانتخابات الرئاسية أمام فريدريك تشيلوبا. ومن جهة أخرى، فإن زعيم غانا المحبوب الملازم الطيار جيري رولنز قد عمل بشكل وثيق مع صندوق النقد الدولي والبنك الدولي وحقق معدلات نمو عالية لبلده. ترشح رولنز لإعادة انتخابه وفاز (بمساعدة فورة من الإنفاق الحكومي). أما بواتسوانا، في أفريقيا الجنوبية، فقد بقيت ديموقراطية بثبات ويسودها السلام نسبياً.

الحروب

في أواسط التسعينيات، أتى دور نيجيريا التي هي واحدة من أهم بلدان أفريقيا، حيث فشل المدنيون، وأخيراً العسكريون، في إقامة حكم جديد. فلقد جرى إعداد ترتيبات مدروسة من قبل الرئيس القوي، الجنرال إبراهيم بابنجيدا، لتسليم السلطة إلى حكومة منتخبة. لكن هذه الترتيبات انهارت بعد أن قرر القادة العسكريون أنهم لا يميلون إلى الفائز في الانتخابات الرئاسية، الزعيم مسعود أبيولا. ونظراً لوجود النفط بكميات وافرة إضافة إلى كفاءات كبيرة في العمل، كان من المفترض أن تكون نيجيريا دولة مزدهرة، لكن بدلاً من ذلك فإن المستثمرين كانوا ينسحبون منها. غامبيا الصغيرة كانت تحت الحكم العسكري مع وعود بإجراء الانتخابات. أما سيراليون التي يحكمها الضباط الصغار، فكانت تعاني من حرب أهلية محدودة، وتنزلق أكثر فأكثر نحو البؤس. وفي ليبيريا، حيث استقر الكثيرون من عبيد أميركا المحررين، تدور

حرب أهلية متقطعة. في شرق أفريقيا، أنهت أوغندا حربها الأهلية لكن رئيسها القوي يوويري موسيفيني رفض ديموقراطية التعددية الحزبية كعلاج لبلاده الميّالة للعنف، ومع ذلك فإن أوغندا بدأت تتمتع بنمو اقتصادي.

الأمم المتحدة

تدين ثلاثة بلدان بالكثير، بطرق مختلفة، للأمم المتحدة. فقد حققت ناميبيا استقلالها وانتخبت حكومتها بحرّية برئاسة زعيم الثوار سام نوغوما، برعاية عملية ورقابة واسعة قامت بها الأمم المتحدة. وأنهت موزامبيق حربها الأهلية (أو يبدو ذلك) وأجرت انتخابات حرة برعاية الأمم المتحدة فاز فيها الرئيس يواكيم تشيسانو، واعترف بنتيجة هذه الانتخابات أفونسو دلاكاما زعيم الثوار. في أنغولا، هناك أمل بأن يقبل زعيم المتمردين سافمبي بنتيجة الانتخابات العامة التي جرت برعاية الأمم المتحدة وفاز فيها الرئيس دوس سانتوس، واعتبرها المراقبون الأجانب نزيهة.

النصر

انتصار أفريقيا حصل في العام ١٩٩٤، عندما فاز حزب نلسون مانديلا، المؤتمر الوطني الأفريقي في أول انتخابات عامة حرة وبمشاركة كل الأعراق في جنوب أفريقيا، وألحق الهزيمة بالرئيس السابق دوكليرك وحزبه، الحزب الوطني، ذي الأغلبية البيضاء، وبحزب الحرية «إنكاثا» وأغلبيته من قبائل الزولو. لم تحصل حمامات الدم التي كان يخشى البعض حصولها، ولم يهرب البيض إلى أوروبا، كما أن القتال بين الأحزاب الأفريقية لم يتحول إلى فوضى عامة. وفي جو من المصالحة، أصبح دوكليرك النائب

الثاني لرئيس الجمهورية، وزعيم إنكاثا، بوتوليزي، أصبح وزير الشؤون الداخلية. كانت الوزارة ائتلافاً من ثلاثة أحزاب، وقد تبنّت سياسات اقتصادية سليمة. وكان الأمل أنها ستجذب الاستثمارات الدولية، وتعمل كـ «محرك» للنمو الاقتصادي في كل إقليم أفريقيا الجنوبية، لتزيد المداخيل الحكومية وتنفق أموال أكثر على الفقراء. لقد كسبت قيادة مانديلا السياسية إعجاب العالم.

اليأس

ربما كانت الصومال أقل البلدان الأفريقية الواعدة، حيث قاد الأميركيون حملة، تسلمتها لاحقاً الأمم المتحدة، نتج عنها درجة معينة من النظام وسط حرب أهلية، وإطعام عدة ألوف من الجائعين. غير أن زعماء القبائل المحلية كانوا يفتقرون إلى الإرادة السياسية للسعي إلى مصالحة وطنية. وبسبب هذا الوضع، يئس أعضاء الأمم المتحدة من إيجاد حل، وسحبوا قواتهم من الصومال في العام ١٩٩٥. وفي القرن الأفريقي المضطرب، واجهت أثيوبيا وأريتريا مستقبلاً غامضاً. ومع أن الدول المانحة للمساعدات تعاطفت مع حكومتي البلدين بقيادة المتمردين السابقين الذين قاوموا النظام الماركسي المكروه، إلاّ أن مدى ديموقراطية هؤلاء القادة كان غير واضح تماماً. كانت رواندا على حافة الموت بعد حملات الإبادة الجماعية التي تعتبر الأسوأ منذ ألمانيا النازية وكمبوديا بول بوت، وكذلك بدت بوروندي تتأرجح على شفا تجربة مماثلة.

□ □ □

عالم مختلف

اكتسب شمال أفريقيا العربي، تجربة مختلفة تماماً في فترة ما بعد

الاستقلال. فالبلدان الستة: مصر، ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب وموريتانيا، تتطلع شرقاً نحو المشرق وشمالاً نحو أوروبا، أكثر من تطلعها جنوباً نحو أفريقيا السوداء. ويشكل صعود الإسلام المتطرف هاجساً لحكام هذه البلدان، ما عدا ليبيا وموريتانيا. ففي الجزائر يتصاعد التطرف ويمكن أن يؤدي إلى حرب أهلية، بينما في مصر وتونس والمغرب يبدو أن التطرف ما زال تحت السيطرة، مع انتهاك بعض حقوق الإنسان. الإصلاحات الاقتصادية، الهادفة بشكل رئيسي الحد من دور الدولة، ما تزال جارية بالانسجام مع ضغوط صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، ولكن ليس بحماس شديد. أما الإصلاح السياسي فيأتي في المرتبة الثانية بعد حاجة الأنظمة الواضحة للتغلب على التطرف الإسلامي. وهكذا نجد أن أحزاب المعارضة الديموقراطية يجري التسامح معها بدرجات متفاوتة في مصر وتونس والجزائر والمغرب، لكن إبعادها عن السلطة يستمر بحزم. ويبقى التساؤل قائماً فيما إذا كان إصرار بلدان شمال أفريقيا العربية على سحق التطرف سيخلق متطرفين أكثر من الذين يتم القضاء عليهم.

اتفاق واشنطن

إذا كانت أفريقيا السوداء تبدو واعدة بشكل معقول في ما يختص بالديموقراطية، فماذا عن مسيرتها الاقتصادية؟ الجواب هو أنها انطلقت في مسيرتها الطويلة المؤدية إلى تنمية تؤمن الاكتفاء الذاتي وأولوية الصادرات وتحاشي التضخم. في أواسط الثمانينيات، اتضح جلياً أن سيطرة الدولة على الاقتصاد لم تعد تسير كما ينبغي. وقد طرحت هذه المسألة داخلياً مع انهيار الاتحاد السوفياتي، والتوجه المتزايد عالمياً نحو اقتصادات السوق الحرة. في هذه الأثناء،

كان صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ووكالات المساعدة الأخرى المتمركزة في واشنطن إضافة للحكومات المانحة، يبشرون بما أصبح يعرف بإتفاق واشنطن الجماعي الذي طبّق بداية في أميركا اللاتينية بعد أزمة الديون العام ١٩٨٢. ثم طبّق تالياً في أفريقيا. ليس هناك شيء استثنائي في الاتفاق الجماعي، فهو وصفة للتنمية الاقتصادية من السهل فهمها ولكن من الصعب تطبيقها.

الاتفاق الجماعي هو أن البلدان النامية عليها موازنة ميزانياتها عن طريق نظام فعال لجباية الضرائب، وإلغاء الإعانات المالية الحكومية، وخصخصة مشروعات الدولة وإنفاق مقتصد مدروس من قبل الدولة. وهذا يؤدي إلى إبقاء معدلات التضخم منخفضة. إن الاستقرار الناجم عن هذه الخطوات سيشجع الاستثمار ويخلق وظائف جديدة ويعطي مداخيل الضرائب للحكومة. وإذا أدى الاستثمار إلى زيادة في الصادرات، فإن ذلك سيجلب عملة أجنبية إلى البلاد. معدلات الصرف ينبغي أن يكون لها قدرة تنافسية، وتعكس حركة العرض والطلب. أذونات الاستيراد، التي تشجع على الفساد، ينبغي إلغاؤها. كما أن ضرائب الواردات يجب أن تبقى منخفضة لكي تمكن المصانع المحلية من المنافسة وتشجعها على التصدير. مناطق التجارة الحرة يمكن أن تشجع النمو الاقتصادي. ومعدلات الفائدة يجب أن تكون إيجابية لتشجيع الادخار، ولكن الفائدة يجب أن لا تكون مرتفعة كثيراً حتى لا تحبط الاستثمار. يجب تشجيع الادخار عن طريق صناديق التعويضات الخاصة التي تستثمر في البورصات المحلية. هل ينجح اتفاق واشنطن الجماعي في أفريقيا؟

مهمة عسيرة

كان رد الفعل الأفريقي شجاعاً، لكن تخللته ثغرات. «السياسات تتحسن»، يقول البنك الدولي بحذر. الميزانيات أصبحت أقرب إلى التوازن، غير أنها ما زالت تعتمد على المساعدات الخارجية. المصارف الأفريقية مازالت تنوء تحت عبء طلبات القطاع العام للاعتمادات، وبعض المصارف أصبح على شفير الإفلاس. بدأت الخصخصة في بلدان مختلفة، لكن حركتها أبطأ بكثير مما هي في أميركا اللاتينية. والعديد من مشروعات الدولة مثقلة بالديون وفائض الموظفين وغير قابلة للبيع. ومن المعلوم أن هيئات الموظفين المتحدين في نقابات تعارض الخصخصة بشدة، وكمثل على هذه الحالة، الخطوط الجوية الزامبية، التي تركتها الحكومة لمصيرها فانهارت الشركة. وفيما يتعلق بالإصلاح في مشروعات الدولة، يقول البنك الدولي، «ليس هناك دليل على تقدم بارز». هناك جهود تبذل لتخفيض عدد موظفي الدولة، لكن العدد القليل من الحكومات استطاع التخفيض بنسبة ٥٪ أو أكثر (غانا قامت بفصل خمسين ألف موظف فائض). كما أن بعض هيئات التسويق الزراعي التي تديرها الدولة والمسؤولة عن تصدير المحاصيل، قد تمّ التخلص منها نتيجة عدم فاعليتها. في العام ١٩٩٤، جرى تخفيض قيمة الفرنك الأفريقي، المدعوم من فرنسا، والمستخدم في ١٤ دولة من دول غرب أفريقيا ووسطها، بنسبة ٥٠٪ وهو ما ينظر إليه كإصلاح حيوي تأخر تنفيذه.

العمل سوية

كانت بعض الدول المتعاملة بالفرنك الأفريقي تدرس إقامة وحدة اقتصادية أوثق فيما بينها. ويمكن أن نتوقع تحرك جماعة تنمية

أفريقيا الجنوبية باتجاه اندماج اقتصادي أعمق. كما توجد جماعة اقتصادية افريقية ما زالت جنينية، واتحاد مالي واقتصادي لغرب أفريقيا وجماعة مالية واقتصادية في أفريقيا الوسطى. إلاّ أن جميع هذه المؤسسات مازال أمامها طريق طويل كي تجتازه. ولقد جرى تحرير معدلات الصرف على مراحل في عدة بلدان، وتمّ إلغاء الأسعار المتعددة. كما جرى تقليص شروط الحصول على إجازات الاستيراد. خفّضت الضرائب على المزارعين، ورفعت أسعار منتجاتهم. لكن العديد من المصارف الأفريقية أصبح على وشك الإفلاس. هل يسير «التكيّف الاقتصادي» بنجاح في أفريقيا؟ لن نعرف الجواب إلاّ بعد عدة سنوات من نمو الدخل العام للفرد. وهذا ما يحتاج إلى استثمار ومعدلات منخفضة للنمو السكاني. لكن المستثمرين الأجانب لن يتدفقوا إلاّ بعد أن يُظهر البلد سجل مساره في الاستقرار السياسي والاقتصادي المعافى. وهذا ما يستغرق وقتاً. أما على المدى القريب فإن الأمور ستكون صعبة.

طوفان اللاجئين

في ذروة الأزمة الاقتصادية، أوجدت الحروب الأهلية والكوارث الطبيعية لاجئين في مختلف أنحاء أفريقيا، يعيش معظمهم على ما يقدمه برنامج الغذاء العالمي الخاص بالأمم المتحدة ومجموعة من المنظمات غير الحكومية، ويشرف عليه المفوض السامي لشؤون اللاجئين التابع للأمم المتحدة، ساداكو أوغاتا، وفي تشرين الأول/أكتوبر العام ١٩٩٤، أشار تقرير للمفوض السامي إلى وجود ٢٣ مليون لاجىء في العالم، ٧,٤ ملايين منهم في أفريقيا، ومن هؤلاء هناك مليونا لاجىء من رواندا. وحسب تقدير خاص بالمفوض السامي وبرنامج الغذاء العالمي، كان في أفريقيا العام ١٩٩٤ حوالى

٢٢ مليون لاجيء ومهجّر وآخرين، يحتاجون للمساعدة الغذائية. وكانت موازنة المفوض السامي للاجئين سنة ١٩٩٣، لأفريقيا، ٣٢٥ مليون دولار. لقد كان الخروج الكبير من رواندا مذهلاً. «١,٢ مليون إنسان هربوا من رواندا خلال فترة أربعة أيام في منتصف تموز/ يوليو ١٩٩٤ إلى إقليم كيفو في زائير، في واحدة من أكبر وأسرع عمليات نزوح اللاجئين في التاريخ الحديث»، كتبت السيدة أوغاتا، التي طلبت قوة من الأمم المتحدة لحراسة مخيمات اللاجئين غير الخاضعة لسلطة القانون في زائير، إلاّ أن أعضاء الأمم المتحدة لم يكترثوا لطلبها.

رواندا

إن التجاهل الواسع للحرب الأهلية في ليبيريا قد أدى، العام ١٩٩٤ إلى خلق ٤١٥ ألف لاجيء ليبيري في غينيا، و٢٥٠ ألفاً في ساحل العاج، و٢٠ ألفاً في غانا، و٦ آلاف في سيراليون، و٣ آلاف في نيجيريا. كما أن أعداداً كبيرة هجّرت داخل ليبيريا. أكثر من مليون مواطن موزامبيقي فرّوا من بلدهم نتيجة الحرب الأهلية فيها، وعاد الكثيرون في نهاية العام ١٩٩٤، على وسائل نقل دفعت أجرتها مفوضية اللاجئين التابعة للأمم المتحدة. ولقد سببت حالة الفوران في بوروندي، خروج اللاجئين الأكثر مأساوية في العام ١٩٩٣، إذ سعى ٤٠٠ ألف لاجيء للبحث عن ملجأ آمن في رواندا وتنزانيا وزائير. وأدت أزمة سياسية في توغو، لم ينتبه لها الكثيرون، إلى مغادرة ٢٥٠ شخصاً البلاد (عاد كثيرون لاحقاً). وفي أنغولا الحرب الأهلية الطويلة والوحشية، لم يعرف أحد عام ١٩٩٤ عدد الأشخاص الذين فقدوا منازلهم، إلاّ أن العدد كان كبيراً. واستضافة اللاجئين تسبب المشاكل: كانت أوغنفدا الفقيرة

العام ١٩٩٤ ملاذاً لـ ١٢٠ ألف لاجىء سوداني، و٩٠ ألف لاجىء رواندي، و١٥ ألفاً من زائير.

«الإيدز»

تشير معظم معطيات علم الأوبئة المتوافرة، إلى أن الانتشار الواسع لفيروس نقص المناعة المكتسبة «الإيدز» في أفريقيا جنوب الصحراء بدأ في أواخر السبعينيات، حسب منظمة الصحة العالمية التابعة للأمم المتحدة. وبحلول أواسط العام ١٩٩٤، سُجل وجود ٣٣٠ ألف حالة رسمياً. ونظراً لتدني حالات التشخيص والإبلاغ الرسمي أو الإبلاغ المتأخر، فإن منظمة الصحة العالمية قدرت وجود أكثر من مليوني حالة «إيدز» بين البالغين في الإقليم، وهي تشكل أكثر من ثلثي عدد المصابين حالياً في العالم. وفي الوقت نفسه، قدّرت منظمة الصحة العالمية أن أكثر من عشرة ملايين شخص بالغ في أفريقيا جنوب الصحراء مصابون بفيروس نقص المناعة المكتسبة ٥٠ ـ ٦٥ بالمئة من هؤلاء المصابين كانوا في شرق أفريقيا ووسطها، وهي مساحة تضم ١٥ بالمئة من مجموع سكان أفريقيا جنوب الصحراء. والمحتمل أن تكون الممارسة الجنسية بين الرجال والنساء هي الطريقة السائدة لانتقال الفيروس. إن نقل الدم المصاب بالفيروس لا يتسبب بأكثر من ١٠ بالمئة من حالات انتقال المرض، كما أن استخدام الإبر والسرينغات غير المعقّمة بشكل ملائم لا يتسبب بانتقال الفيروس إلاّ بنسبة مئوية ضئيلة. إن انتشار الوباء مستمر دون نتائج يمكن احتسابها. وفي أفريقيا، يمكن أن تكون ممارسة الجنس حكماً بالموت، والأطفال هم من بين الضحايا. الحكومات تفتقر الموارد لخوض حملات واسعة ضد «الإيدز»، وعدد الإصابات يتكاثر، مما يكشف عن مأساة إنسانية رهيبة.

كثيرون جداً

عام ١٩٩٤، استمرت أفريقيا جنوب الصحراء بتسجيل أعلى معدل نمو في السكان في العالم: ٣ بالمئة سنوياً، وعندها أيضاً أعلى مستوى من الخصوبة في العالم (٦,١ أطفال للزوجين)، ومن الوفيات (٧٠٠ وفيّة أمهات من كل ١٠٠ ألف ولادة حية، حسب اللجنة الاستشارية لسكان أفريقيا التابعة للبنك الدولي). والنمو السكاني في الإقليم المذكور كبير إذ قورن بنسبة النمو في آسيا وأميركا اللاتينية التي هي ١,٨ بالمائة. هذه الفروقات ستؤدي إلى تغيرات ضخمة في الخمسين سنة القادمة، في كيفية توزيع سكان العالم. العام ١٩٥٠، كان سكان آسيا يشكلون ٥٥ بالمائة من سكان العالم، وأفريقيا ٩ بالمائة. اليوم، أصبحت حصة آسيا ٦٠ بالمائة، وحصة أفريقيا جنوب الصحراء ١٢ بالمائة أو ٥٣٤ مليون إنسان. في السنوات القادمة، ستزداد حصة أفريقيا بينما تنخفض حصة آسيا. وبحلول العام ٢٠٢٥ سيكون تعداد سكان أفريقيا ومن ضمنها المغرب العربي ١,٦ مليار نسمة. ومتطلبات هذا العدد المتنامي من السكان، من الطعام والوقود والخدمات العامة، مثل المدارس والعناية الطبية والمياه المعدنية ومياه الصرف الصحي، سيكون ربما من المستحيل تلبيتها.

التشاؤم الأفريقي

«رغم المآسي التي حصلت في بعض البلدان ينبغي أن لا ندع التشاؤم يُعشي رؤيتنا العامة وأن لا نترك المتشائمين الأفارقة يسيطرون على المسرح»، يقول مايكل كامديسوس المدير الإداري لصندوق النقد الدولي. «على العكس من ذلك، ينبغي أن نتفاءل

من تلك البلدان الأفريقية التي تقوم بتنفيذ سياسات ملائمة للاقتصاد الكبير وللاصلاحات البنيوية، محررة أنظمة التبادل والصرف والتجارة لديها، ومواصلة سياسات اجتماعية مسؤولة، ضامنة الشفافية والاستعداد لتقديم الحساب في إدارة الموارد العامة». إنها كلمات شجاعة، وهناك ضوء من الأمل في أفريقيا. فالديموقراطية توسع رقعة انتشارها، وكذلك أفكار الرجال الواقعيين أمثال كامديسوس. هناك حروب أهلية أقل، والصراعات الإثنية، ما عدا بعض الاستثناءات القليلة المخيفة، أبقيت تحت السيطرة. وعلى أي حال، فإن الإصابات الداخلية (زائير كمثال رئيسي) سيكون من الصعب تجنبها. وما هو مطلوب اليوم أن تؤسس البلدان الأفريقية لسجل مسارها نحو الاستقرار السياسي والاقتصادي، وأن تحاول العثور على مواقع لائقة في السوق العالمية، وأن تجد وترحب بالمستثمرين الأجانب، وأن تتمكن من المنافسة. وعلى المدى الطويل، إنها الطريقة الوحيدة لخلق المزيد من الوظائف في القطاع الخاص وتوفير حياة أفضل لشعوب أفريقيا. لكن هذا يمكن أن لا يكون كافياً.

سحر الأسماء

ما إن انتهى الصديق الإنكليزي من أطروحته عن أفريقيا، بعد أن رسم هذه البانوراما العريضة لحال القارة السوداء اليوم وإسقاطات الماضي ورواسبه عليها، حتى قلت له: أي مكان في أفريقيا يغريك، وأنت الذي جلت فيها وقضيت وقتاً طويلاً في شرقها؟

أجابني وشيء من الحنين يشوب صوته: زنجبار، واحدة من الأسماء الساحرة في أفريقيا. إذا ذكرتها انهالت على مخيلتك رفوف

التاريخ وقصص الرحالة وأخبار الاستعماريين ومغامرات المرتزقة وذكريات شذاذي الآفاق. ولعل في أفريقيا، من وجهة نظري، ثلاثة أسماء إلى جانب زنجبار، تثير في الذاكرة التاريخية كل هذا الفيض من الصور: تومباكتو، كيليمنجارو ومراكش.

لكن ليس كل الذين زاروا زنجبار وخاصة من بين الرحالة الأوروبيين حملوا معهم منها أو لها، هذا السحر الرومانسي الذي تقرأه في الكتب، أو العالق في ثنايا تاريخ ما أهمله التاريخ، أو الذي يصفعك عندما تقع عيناك على أول مشهد عندما تطأ قدماك على أرض الجزيرة. إحترس، قد تخيّب زنجبار أملك.

وحاولت أن أكون حذراً وأنا أودع صديقي شاكراً. لكن حذري لم يدم طويلاً.



حكاية زنجبار التاريخية



٤

من الملكة فطومة إلى السلطان سعيد

مع بداية القرن الأول للميلاد كانت زنجبار وساحل أفريقيا الشرقي تحت سيادة مملكة سبأ في اليمن، والتي كانت الملكة بلقيس من أشهر حكامها. كان السبئيون من الشعوب البحرية، ولهم مملكة كبيرة في اليمن وجنوب غربي شبه الجزيرة العربية. استخدم السبئيون الرياح الموسمية للسفر بانتظام بين شبه الجزيرة العربية وساحل أفريقيا الشرقي. وكانت مراكبهم الشراعية تبحر جنوباً خلال الفترة ما بين تشرين الثاني/ نوفمبر وشباط/ فبراير مستغلة هبوب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية وهي محملة بالخرز والفخّار واللُّبان والأقشمة الهندية. ثم كانت المراكب تعود شمالاً في الفترة ما بين آذار/ مارس وأيلول/ سبتمبر بواسطة الرياح الموسمية الجنوبية الغربية وهي محمّلة بالحبوب والأشجار الاستوائية وأصداف السلاحف وخشب الأبنوس والعاج.

وفي الفترة نفسها، يعتقد أن السفن العربية والفارسية كانت تبحر بمحاذاة ساحل أفريقيا الشرقي آتية من الخليج الفارسي[1]. كان

هؤلاء الناس يتاجرون مع السكان المحليين، ولكنهم بقوا كزوّار ولم يستقروا هناك في تلك المرحلة.

خلال القرنين الثالث والرابع للميلاد، بدأت مجموعات أخرى من الشعوب الأفريقية بالوصول إلى الساحل الشرقي لأفريقيا، وهي قادمة بالأساس من المناطق الداخلية المحيطة بما يعرف اليوم بالكاميرون. هذه المجموعات كانت من البانتو (يأتي الاسم من المصطلح المستخدم لتعريف مجموعة لغاتهم)، ومارسوا التجارة مع العرب إذ بادلوا ما لديهم من العاج وقرون الكركدن وأصداف السلاحف وزيت جوز الهند بأشياء مثل الأدوات المعدنية والأسلحة والخمر والقمح.

شهد القرن السابع للميلاد ظهور الإسلام وانتشاره في شبه الجزيرة العربية والبلاد المجاورة. وفي الفترة نفسها كانت الحروب قد عمت هذه المنطقة ولحقت الاضطرابات في بلاد فارس، مما دفع بالكثيرين في هذه البلاد للهروب إلى ساحل أفريقيا الشرقي، لكن لكي يستقروا هناك، هذه المرة، وبشكل دائم. وكانت هذه المنطقة الخصبة التي يعمها السلام بمثابة ملجأ آمن لهؤلاء المهاجرين، بالمقارنة مع موطنهم الأصلي الصحراوي الجاف الذي تمزقه الحروب. وحمل هؤلاء المهاجرون الجدد معهم الدين الإسلامي الجديد.

«زين البر»

لا أحد يستطيع أن يجزم ما هو أصل كلمة زنجبار، ومَنْ هو أول من أطلق هذا الاسم على الجزيرة، ولكن المصادر التاريخية تُجمِع على أن التجار العرب العمانيين هم أول من أطلق على ساحل أفريقيا الشرقية اسم «زين البر»، من قبل أن يتوغلوا في زنجبار أو

الداخل الأفريقي. لقد أعجبهم الساحل الأخضر وهم الآتين من سواحل صحراوية جرداء. فإذا بهم أمام بر جميل وأرض خصبة. ولما اختلطوا مع السكان الأصليين ودخلوا إلى مجاهل القارة، وتعرفوا على الأرض الأفريقية وأهلها، تحوّر الاسم إلى «زين الزنج بر». ولما كانت زين كلمة عربية تعني المليح أو الجميل، والزنج كلمة أصلها فارسي (زانغ) تعني الأسود، والبر كلمة عربية تعني الأرض، جمعت الكلمات معاً. الجمال والأرض والزنوجة. وإذا بالعرب يطلقون على تلك الجزيرة الخضراء اسم «أرض الزنج الجميلة»، أو أرض الناس ذوي اللون الأسود. وحوّر هذا الاسم مع تعاقب الهجرات وتوالي موجات الاستعمار واختلاط الأقوام بين الداخل الأفريقي والساحل العربي، وتطور اللغة السواحيلية ولهجاتها المختلفة، حتى أصبح «زنجبار». وحتى نهاية القرن الخامس عشر، كان اسم زنجبار يطلق على كل ساحل أفريقيا الشرقية وجزرها، وليس على زنجبار الجزيرة وحدها، كما نعرفها اليوم، والتي كانت تُعرف قبل وصول العرب، وما زالت جغرافياً تعرف باسم «أنغوجا»، التي تشكل مع جزيرة بيمبا دولة زنجبار الحديثة.

توجد روايات مختلفة عن الهجرات من شبه الجزيرة العربية إلى شرق أفريقيا. تاريخ هذه الفترة يرتكز أساساً على قصص يتم تناقلها شفهياً من جيل إلى جيل، ويصعب فصل هذه القصص عن الخرافات والأساطير. وتروي إحدى الحكايات عن زعيمين عربيين من عُمان (وكانوا من الشيعة العمانيين) وصلا من هناك، أيام حكم اليعاربة، إلى شرق أفريقيا مع عائلتيهما عند نهاية القرن السابع واستقرا على جزيرة «بيت»، قرب لامو. حكاية أخرى تروي عن هجرة كبيرة من شيراز، في بلاد فارس، ما بين القرنين الثامن

والعاشر. فقد هاجر سلطان شيراز مع ستة من أولاده وعائلاتهم (وكانوا من السنة الفرس) في سبعة قوارب، هو في قارب، وكل من أولاده في قارب. أحد الأبناء توقف في بيمبا، بينما استقر الآخرون في مومباسا وكيلوا. وهذه الرواية تخالف الاعتقاد السائد حتى الآن، أن أوائل المهاجرين من الشيرازيين الفرس كانوا من الشيعة، والمهاجرين من العمانيين العرب كانوا من السنة. وحمل المهاجرون الشيرازيون معهم فخاريات إسلامية وبورسلان صيني وتمر وبهارات وأقمشة.

خلال القرنين الثامن والتاسع استمر العرب والفرس بالتجارة مع أوطانهم الأصلية، وكانت المراكب الشراعية تبحر من أفريقيا إلى الجزيرة العربية وبلاد فارس حاملة الذهب والعاج وقرون الكركدن وجلود الفهود وصدف السلاحف وعنبر الحيتان. كما أن المراكب كانت تحمل العبيد الأفارقة إلى الخليج الفارسي للعمل، ربما، في الأهوار، أراضي المستنقعات في بلاد ما بين النهرين (العراق). خلال هذين القرنين أيضاً وصل البحارة الأندونيسيون إلى شرق أفريقيا ومدغشقر قادمين من جاوا وسومطرة حاملين معهم جوز الهند والموز.

وفي هذه الفترة بدأت شعوب البانتو الأفريقية التي استقرت على سواحل شرق أفريقيا والجزر (منذ عدة قرون) بإطلاق اسم «سواحيلي» على نفسها، مقتبسة هذا الاسم من الكلمة العربية ساحل. ولقد تعايش شعب السواحيلي بسلام مع المستوطنين العرب والفرس، وتزوجوا منهم واقتبسوا العديد من عاداتهم وتقاليدهم بما فيها الدين الإسلامي. وفي أونغوجا (جزيرة زنجبار) تزاوج المستوطنون الشيرازيون مع عائلة ملك الجزيرة، وبعد مضي

عدة قرون استمر السيد الأكبر، حاكم أونغوجا التقليدي، الادعاء بالتحدر من أمير شيرازي.

يبدو أن العلاقات بين العرب والشيرازيين الفرس لم تكن علاقات سلمية تماماً، وهناك رواية تعود للقرن الحادي عشر تحكي عن بداية الصراع العربي ـ الفارسي، كيف أن الشيرازيين في زنجبار تصدوا للدفاع عن نفوذهم في وجه جماعة من عرب عُمان جاؤوا للاستقرار في الجزيرة. ولكن رغم هذه المعيقات، فقد استمر الشيرازيون في الاستيطان في جزيرة زنجبار. وابتداء من نهاية القرن الثاني عشر، أخذ المهاجرون العمانيون بالاستقرار في بيمبا.

استمرت التجارة بالاتساع وأضحت زنجبار مركزاً تجارياً هاماً تتزايد قوته مع الأيام. وصلت البضائع الصينية المستوردة إلى زنجبار من طريق الهند وطريق الحرير، ولكن في أوائل القرن الخامس عشر بدأت موانىء شرق أفريقيا التجارة مع الصين مباشرة. كان الذهب والعاج وقرون الكركدن تنقل إلى الشرق، إضافة إلى عدد قليل من العبيد، للعمل في البيوت والخدمة العسكرية. في العام ١٤١٤، انطلق مركب شراعي من ماليندي (كينيا حالياً) إلى الصين حاملاً زرافة هدية للأمبراطور.

في أواسط القرن الخامس عشر، شكلت جزر زنجبار مع مومباسا وماليندي ولامو وكيلوا، سلسلة من «المدن ـ الدول» الإسلامية المزدهرة، لكل منها سلطانها الخاص، والمنتشرة على الساحل الشرقي لأفريقيا. ومن موقعها هذا، كان لهذه المدن صلات تجارية وثيقة مع الجزيرة العربية وبلاد فارس والهند وجنوب شرقي آسيا، غير أنه لم تبذل محاولات جادة لاختراق شرق أفريقيا نحو الداخل. كان يتم إحضار البضائع، مثل الذهب والحديد والعاج

والعنبر إلى المدن الساحلية، مثل زنجبار، من قبل التجار الأفارقة، ومن هناك كان يجري تصديرها للخارج.

البرتغاليون

في العام ١٤٩٧، قام البحّار البرتغالي فاسكو داغاما، بالدوران حول رأس الرجاء الصالح وأبحر باتجاه الشمال صعوداً على الساحل الشرقي لأفريقيا في طريقه نحو الهند. لقد مرّ داغاما بزنجبار ورسا في في مومباسا حيث استقبل بعداوة من قبل السلطان. ولكنه تلقى استقبالاً حاراً في ماليندي، نتيجة عداوتها القديمة مع مومباسا. أقام داغاما عموداً على شاطىء ماليندي رمزاً للصداقة، واستخدم بحّاراً عمانياً يدعى أحمد بن ماجد لكي يرشده عبر المحيط الهندي. وفي طريق عودته من الهند العام ١٤٩٩ رسا ليوم واحد بعيداً عن جزيرة أونغوجا (جزيرة زنجبار حالياً).

في أعقاب داغاما انطلق المزيد من السفن البرتغالية التي احتاجت قواعد آمنة للتموين والصيانة في رحلاتها إلى الشرق الأقصى والعودة منه. ولهذا أقيمت حاميات في موانىء أونغوجا وبيمبا ومومباسا.

تتابعت خطوات السيطرة البرتغالية على المنطقة. ففي العام ١٥٠٥ استولوا على مومباسا، وفي العام ١٥٠٦ أصبحت بيمبا في قبضتهم. وبين العامين ١٥٠٧ و١٥١١ احتل البرتغاليون مناطق في الخليج الفارسي، من ضمنها مسقط وجزيرة هرمز.

في العام ١٥١٠ لم تسدد الجزية المفروضة على أونغوجا، وكذلك أصبح سكان بيمبا معادين للبرتغاليين. وكان رد البرتغاليين بقيادة

دوارتي دو ليموس إضرام النار بمستوطنات أونغوجا، ثم نهب بلدة بونجيني في بيمبا. وسريعاً ما استعاد البرتغاليون سيطرتهم على الجزيرتين، وبحلول العام ١٥٢٥ أصبح كل ساحل شرق أفريقيا، من لامو حتى سوفالا (موزانبيق حالياً)، تحت السيطرة البرتغالية وجزءاً حيوياً من أمبراطوريتهم التجارية. لقد حصلوا على الذهب والعاج والأبنوس والعبيد من الداخل لنقلها إلى الهند أو البرتغال. كما قام البرتغاليون بتصدير الحديد الخام والعقيق الأحمر المأخوذ من سوفالا، وألياف جوز الهند وصمغ الشجر المأخوذ من جزر الساحل الأفريقي. واستوردوا القماش والخرز والبورسلان والأدوات المعدنية من عمان والبرتغال.

وفي العام ١٥٦٠ بنى البرتغاليون كنيسة ومستوطنة تجارية صغيرة على شبه جزيرة غربي أونغوجا، وهي التي أصبحت لاحقاً بلدة زنجبار. ولكن رغم الاحتلال البرتغالي لجزيرة أونغوجا وإرغام السكان المحليين على ممارسة التجارة تحت إشرافهم، فقد استمر سكان الجزيرة على ولائهم لملكهم.

لم تكن البرتغال القوة الأوروبية الوحيدة التي لها مصالح في المحيط الهندي. ففي تشرين الثاني/ نوفمبر من العام ١٥٩١ كانت السفينة «أدورد بونافينتورا» بقيادة سير جيمس لانكاستر، أول سفينة بريطانية تزور زنجبار. لقد تمّ تزويدها بالطعام الطازج والمياه من قبل ملك الجزيرة، وسريعاً ما ازداد عدد السفن البريطانية الزائرة لزنجبار وهي في رحلاتها ما بين بريطانيا ومستعمرتها الجديدة في الهند.

مع دخول السفن البريطانية للمحيط الهندي، احتاج البرتغاليون لتقوية موقعهم على الساحل. وفي العام ١٥٩٤، أقاموا حصناً عند

شاكي شاكي في بيمبا، وبين العامين ١٥٩٣ ـ ١٥٩٥ بنوا حصن يسوع في مومباسا. وتدفق المستوطنون من البرتغال وتشكلت حامية برتغالية في حصن يسوع حيث أخضعت السكان المحليين بوحشية. أصبحت مومباسا تعرف بـ «دار الحرب»، والحاكم البرتغالي يعرف بـ «عفريتي»، في اللغة السواحلية، أي العفريت أو الشيطان.

ولكن رغم هذه التحصينات، بدأ موقع البرتغاليين في شرق أفريقيا يضعف. ففي شبه الجزيرة العربية، استعاد الفرس جزيرة هرمز العام ١٦٢٢. وفي كانون الثاني/ يناير ١٦٥٠ استعاد عرب عُمان مسقط. بعد هذا النصر أبحر الأسطول العُماني لمساعدة ملك زنجبار وملكتها، وأغار العُمانيون على المستوطنة البرتغالية في زنجبار، فقتلوا العديدين وحاصروا حوالى أربعمائة منهم في الكنيسة. كما هاجم العُمانيون المستوطنة البرتغالية في بيمبا وأحرقوها. وفي العام ١٦٦٨ أصبحت المنطقة الساحلية بأكملها في أيدي العُمانيين، عملياً. والحاميتان البرتغاليتان، حصن يسوع في مومباسا وزنجبار، هما الوحيدتان اللتان بقيتا بأيدي البرتغاليين.

فطومة

في العام ١٦٧٩ تنصّرت ملكة بيمبا وعاشت في مستعمرة جوا البرتغالية بعد أن منحت جزيرتها للبرتغاليين. وفي العام ١٦٨٢ أقنع البرتغاليون هذه الملكة بالعودة إلى جزيرتها، غير أن محاولة البرتغاليين لتعيين حاكم صديق لهم في بيمبا قد باءت بالفشل لأن رعايا الملكة عملوا على طردها مجدداً. وفي العام ١٦٩٥ طرد آخر السكان البرتغاليين من الجزيرة.

في هذه الفترة، خلف يوسف الذي اعتنق الإسلام أمه موانا مويما،

ملكة زنجبار. وبعد موت يوسف، في نهاية القرن السابع عشر، قسمت الجزيرة بين ولديه: بكري وفطومة، (وليس فاطمة كما تقول بعض المصادر، مصرّة على التأكيد بأن الاسم مشتق من فاطمية)، فحكم بكري الجزء الجنوبي من الجزيرة وعاصمته كيزيمكازي، بينما حكمت أخته فطومة الجزء الشمالي. كانت فطومة مؤيدة للبرتغاليين ولذلك أقامت عاصمتها قرب الحامية البرتغالية على شبه الجزيرة الجنوبيية، والتي أصبحت فيما بعد موقع بلدة زنجبار.

عندما وصل الأسطول العُماني إلى مومباسا وحاصر حصن يسوع العام ١٦٩٦، أرسلت الملكة فطومة ثلاثة مراكب شراعية مليئة بالمؤن لمساعدة البرتغاليين المحاصرين. غير أن العُمانيين استولوا على هذه المراكب وأحرقوها، ثم هاجموا زنجبار ذاتها مرغمين الملكة فطومة وأعوانها بالهرب إلى داخل البلاد.

استمر حصار مومباسا حتى كانون الأول/ ديسمبر ١٦٩٨ عندما استولت القوات العُمانية على حصن يسوع وعيّنت حاكماً عُمانياً. ومن جديد هاجم العُمانيون زنجبار وطردوا آخر المستوطنين البرتغال وأسروا الملكة فطومة وأخذوها إلى عُمان حيث أمضت ١٢ سنة في المنفى قبل عودتها لتسلم الحكم مجدداً. وأثناء غياب الملكة، حل ابنها حسن مكانها كملك على زنجبار، وولاؤه كان للعُمانيين.

وبذلك يكون تمّ طرد البرتغاليين نهائياً من كل ساحل شرق أفريقيا، وثبّت العُمانيون سيطرتهم على كامل المنطقة حتى موزامبيق جنوباً (وهذه بقيت بأيدي البرتغاليين حتى العام ١٩٧٢).

العمانيون

ابتداء من العام ١٦٩٨ حكم العمانيون جزر زنجبار من عاصمته مسقط عبر حكام معينين وشن غارات مسلحة من وقت لآخر لإخضاع بعض حالات التمرد المحدودة. وبهدف إحكام سيطرته على الجزر، بنى العمانيون حصناً في بلدة زنجبار على موقع الكنيسة البرتغالية، وبحلول العام ١٧١٠ كان حوالى خمسين جندياً عمانياً يتمركزون في الحصن.

أصبحت عمان في هذه الفترة دولة تجارية كبيرة، وإحدى صادراتها الرئيسية كان التمر. إن اتساع مزارع النخيل قد أوجد حاجة لعمل العبيد الرخيص. وجرى استيراد الأفارقة بأعداد كبيرة، وكانت زنجبار مركز تصديرهم الرئيسي. وتشير التقديرات إلى وجود حوالى خمسة آلاف من العبيد الأفارقة في عمان في أوائل القرن الثامن عشر، إضافة إلى وصول خمسمائة عبد إليها كل عام. كانت أغلبية هؤلاء العبيد تستخدم في المزارع، بينما البعض منهم استخدم في المنازل أو كمحظيات، والبعض الآخر كان يعاد تصديره إلى بلاد فارس والهند. والمعروف أن الرقيق كان سائداً في مختلف أنحاء العالم، ولم يترسخ استهجانه إلا في نهاية القرن التاسع عشر.

سنة ١٧٤٤ انتهى حكم سلالة اليعاربة في عمان بعد حرب أهلية طويلة (بدأت هذه السلالة حكمها لعمان العام ١٦٢٤). واستلمت الحكم سلالة الأسرة البوسعيدية الجديدة بقيادة الإمام أحمد بن سعيد على عمان وساحل شرق أفريقيا، وإحدى خطواته الأولى كانت تعيين حاكم جديد على زنجبار.

كان حكام المدن ـ الدويلات في هذه الفترة، في ساحل شرق أفريقيا، يدينون بالولاء لعمان، غير أنهم عملياً مارسوا قسطاً كبيراً من الحكم الذاتي. كان حكام زنجبار وبمبا ولامو وكيلوا من الأسرة البوسعيدية، غير أن حكام مومباسا كانوا من عائلة عمانية منافسة هي أسرة آل المزروعي. وفي عام ١٧٤٦ أعلن حكام مومباسا من آل المزروعي استقلالهم عن عمان، وأسقطوا حكم البوسعيديين في بيمبا. ثم حاولوا، العام ١٧٥٣، الاستيلاء على زنجبار غير أن حاكمها بقي موالياً لعمان وتمكن من صد الهجوم.

في هذه الفترة، مات ملك زنجبار حسن بن فطومة وخلفه ابنه سلطان الذي خلفه ابنه أحمد، وهذا خلفه حفيده حسن الثاني.

أضحت زنجبار الآن مركزاً تجارياً هاماً، كما ازدادت قيمتها الاستراتيجية. ومنذ أواسط القرن الثامن عشر ارتفع حجم تجارة الرقيق من زنجبار وكلوا إلى المسكارين (موريشوس وريونيون حالياً) حيث كان العبيد يستخدمون في مزارع قصب السكر والتوابل. وفي السبعينيات من القرن الثامن عشر وصل حجم تجارة الرقيق إلى ثلاثة آلاف عبد سنوياً. وفي الفترة نفسها كانت السفن الهولندية تأتي إلى زنجبار بحثاً عن العبيد للعمل في المزارع في جزر الهند الشرقية.

حتى هذا التاريخ كان تجار الرقيق الأفارقة هم الذين يحضرون العبيد المأسورين إلى الساحل، لكن مع نهاية القرن الثامن عشر ازداد الطلب على العبيد لدرجة جعلت التجار الأوروبيين والعرب والسواحليين سكان الساحل والجزر يتوغلون إلى داخل البلاد. وفي السبعينيات من القرن الثامن عشر كانت قوافل التجار تسافر داخل أفريقيا وصولاً حتى بحيرة نياسا (بحيرة ملاوي حالياً).

نابوليون

في عمان، اعتلى العرش سلطان جديد اسمه الإمام سلطان بن أحمد البوسعيدي العام ١٧٩٢. وقد احتاج هذا السلطان لحليف قوي يساعده على مقارعة أسرة آل المزروعي، وعلى إبقاء الفرس بعيدين عن عمان، فوجد ضالته في بريطانيا التي كانت في حرب مع فرنسا وتعرف أن الأمبراطور الفرنسي نابليون بونابرت كان يخطط للزحف عبر بلاد فارس والاستيلاء على مسقط في طريقه لغزو الهند. ولهذا، وقّعت بريطانيا وعمان العام ١٧٩٨، على معاهدة للتجارة والملاحة، وأخذ سلطان بن أحمد على نفسه عهداً بالنسبة للمصالح البريطانية في الهند، وأصبح محظوراً على الفرنسيين الدخول إلى مناطقه. وقد سمح لشركة الهند الشرقية البريطانية بتأسيس محطة تجارية في الخليج الفارسي، وتمركز قنصل بريطاني في مسقط.

وبالإضافة إلى هدف دحر نابليون بونابرت، كان لبريطانيا دافع آخر وراء اتفاقيتها مع عمان إلا وهو الضغط على السلطان لإنهاء تجارة الرقيق التي أُعلنت غير شرعية في بريطانيا العام ١٧٧٢. في هذا الوقت كانت تجارة الرقيق من أفريقيا إلى عمان ما تزال نشطة بانتقال حوالى ثلاثة آلاف من العبيد الأفارقة عبر زنجبار كل عام.

السلطان سعيد

قتل السيد سلطان بن أحمد في معركة العام ١٨٠٤، وخلفه ابناه سالم وسعيد (١٥ و١٣ سنة) مع عمهما بدر كوصي على العرش. بعد سنتين قُتل بدر على يد سعيد الصغير الذي اعتقد أن عمه يتآمر لقتله. وفي العام ١٨٠٦ أُعلن السيد سعيد سلطاناً على عمان وساحل شرق أفريقيا.

حكم السلطان سعيد مملكته من العاصمة مسقط ولم يزر مناطقه الأفريقية لعدة سنوات. احتفظ بعلاقات جيدة مع بريطانيا، وكان يأمل، مثل أبيه، بدعم بريطانيا ضد الفرس وأسرة آل المزروعي. وخلال هذه الفترة استنزفت الحروب والجفاف اقتصاد عمان، فهاجر العديد من تجار عمان إلى زنجبار ليشاركوا في التجارة الساحلية وفي القوافل المتوغلة للداخل.

أثناء ذلك، وفي أوروبا قاد وليم وليبرفورس حملة نتج عنها إلغاء تجارة الرقيق ضمن الأمبراطورية البريطانية العام ١٨٠٧، كما صدر قانون في الولايات المتحدة الأميركية ضد تجارة الرقيق العام ١٨٠٨، كذلك فعل الفرنسيون والألمان بعد سنوات قليلة.

في شرق أفريقيا، كان يتم إحضار ثمانية آلاف عبد من البر إلى زنجبار سنوياً، معظمهم يحملون العاج، وهذا ما أدى إلى فائض من العبيد ـ مما سبب مشكلة خطيرة للتجار وسلطان عمان. ولكن معالجة هذه المشكلة تمت في العام ١٨١٢ عندما أدخل أحد العرب، واسمه صالح بن حرامل العبري المولود في مسقط، أشجار التوابل إلى زنجبار من جزيرة بوربون (ريونيون حالياً). وهكذا تم تحويل فائض العبيد للعمل في مزارع التوابل ليعود الطلب على العبيد إلى الارتفاع من جديد.

ومع استمرار التوسع في طلب العبيد والعاج، بدأ التجار العرب بالانتقال من المناطق الساحلية إلى الداخل. وفي العام ١٨٢٠ أسسوا مركزاً تجارياً في كازح (قرب تابورا الحالية، في تنزانيا)، على بعد ٨٠٠ كيلومتر من الساحل. ومن كازح تفرّعت طرق التجارة شمالاً حتى شواطىء بحيرة فكتوريا الحالية، وشمال غرب إلى أوغندا، وجنوب غرب إلى الطرف الجنوبي لبحيرة تنغانيكا.

الرق

من أجل مواجهة هذا التوسع في تجارة الرقيق، تابع القنصل البريطاني في مسقط ضغوطه على السلطان سعيد لإنهاء هذه التجارة، التي أصبح العالم يمارسها على المستوى الدولي. وفي أيلول/ سبتمبر ١٨٢٢ وقّع السلطان سعيد معاهدة ضد تجارة الرقيق مع الكابتن فيرفاكس مورزبي، منع بموجبها نقل العبيد جنوب وشرق «خط مورزبي» المرسوم من رأس ديلغادو، الحد الجنوبي لممتلكات السلطان في أفريقيا، إلى ديو هيد على ساحل الهند.

كانت هذه الاتفاقية تعني حظر نقل العبيد من زنجبار إلى المسكارين والهند، بينما استمر السماح بنقل العبيد بين زنجبار وعمان. كما أن السلطان حَظّر عليه بيع العبيد للمسيحيين، بمن فيهم الفرنسيون الذين كانوا يأخذون العبيد إلى جزرهم في المحيط الهندي. لقد خُولت السفن الحربية البريطانية حق مصادرة أي مراكب شراعية تنقل عبيداً في المياه المحظورة.

والأمر المثير للسخرية أن منع بريطانيا تجارة الرقيق إلى المسكارين لم يؤد إلا إلى تطور متسارع لهذه التجارة في زنجبار ذاتها. فلقد فقد السلطان سعيد المداخيل التي كانت تأتيه من الرسوم المفروضة على بيع العبيد، ولكي يعوّض هذا النقص شجع سعيد تطوير المزيد من مزارع التوابل.

وفي العام ١٨٢٢ حاول السلطان سعيد أيضاً طرد سلطان مومباسا من آل المزروعي الذي طلب حماية بريطانيا من قائد السفينة باراكوتا عندما رست في ميناء مومباسا السنة التالية. نقل قائد

السفينة طلب السلطان إلى رئيسه الكابتن وليم أوين على السفينة «ليفين» الذي رأى أنه يمكن استخدام هذا النزاع المحلي لصالح بريطانيا. أبحر أوين إلى مسقط وأبلغ السلطان سعيد بأنه سيلبي طلب السلطان المزروعي بمنحه الحماية البريطانية إلا إذا وافق السلطان سعيد على إنهاء تجارة الرقيق. رفض السلطان سعيد أن يقوم بذلك، فأعلن أوين مومباسا محمية بريطانية إضافة إلى الشريط الساحلي من ماليندي إلى بانغاني، بشرط موافقة آل المزروعي على إلغاء تجارة الرقيق. وافق المزروعي على هذا الشرط، ولكنه سريعاً ما عاد إلى هذه التجارة. فرفعت الحماية البريطانية عن مومباسا في تموز/ يوليو ١٨٢٦.

الأميركيون

أبحر السلطان سعيد إلى زنجبار في العام ١٨٢٧، وكان من بين مستقبليه هناك أدموند روبرتس وهو تاجر أميركي من بورتسموث ـ نيو هامبشاير. اقترح روبرتس عقد معاهدة تجارية بين سعيد وأميركا، وسريعاً ما بدأت زنجبار تزويد أميركا وأوروبا الغربية بكميات كبيرة من العاج. كان العاج الأفريقي طريّاً يسهل حفره على شكل أمشاط ومفاتيح البيانو وكرات البليار. وبالمقارنة، كان العاج الآسيوي قاسياً وسريع الانكسار. أصبح العاج يصدّر إلى أميركا، ويستورد منها، بالمقابل، إلى زنجبار الأقمشة القطنية (تدعى أميركاني)، والبنادق والبارود ليصار توزيعها على طول الساحل وفي الجزيرة العربية. وكذلك استورد الأميركيون جلود الحيوانات وصمغ الشجر الذي استخدم في صناعة الورنيش.

وكان الطلب الأميركي على العاج كبيراً خلال الثلاثينيات من

القرن التاسع عشر إلى درجة أن بلدة أسست باسم «إيفوري تاون» ـ أي بلدة العاج ـ في ولاية كونيكتيكت، مع مصنع لإنتاج مفاتيح البيانو وكرات البليارد من العاج المستورد من زنجبار.

أدرك السلطان سعيد أن التجارة مع أوروبا وأميركا سينجم عنها تزايد ثروة زنجبار وقوتها. الأمر الذي سيعزز موقعه. ولذلك، قرر في نهاية العشرينات تطوير صناعة التوابل في زنجبار أكثر فأكثر، وكانت خطوته الأولى مصادرة مزارع صالح بن حرامل العبري الذي كان أدخل زراعة التوابل إلى الجزيرة العام ١٨١٢. كانت حجة السلطان سعيد في خطوته هذه، أن صالح كان زعيم حزب سياسي ينافسه على السلطة، وأن صالح، أيضاً، قد استمر في إرسال العبيد إلى المسكارين بعد اتفاقية مورزبي التي حرّمت ذلك.

التوابل

أقيمت المزارع الكبيرة في زنجبار وبيمبا، وارتفعت وتيرة ازدهار هذه الجزر بشكل مثير. أصدر السلطان سعيد قانوناً يفرض على أصحاب المزارع زراعة ثلاث شجرات توابل مقابل زراعة شجرة جوز هند واحدة، وكل من يخالف ذلك تصادر ممتلكاته. أصبح السلطان سعيد يملك ٤٥ مزرعة منتشرة في أنحاء الجزيرة، يعمل في المزرعة الكبيرة منها حوالى خمسمائة من العبيد وعلى الأصغر حوالى الخمسين. كانت أسعار التوابل مرتفعة في الخارج، ومع نهاية حكم السلطان سعيد كانت زنجبار قد أصبحت إحدى أكبر منتجي التوابل في العالم.

ثمّن السلطان سعيد زنجبار عالياً، بمينائها الكبير ومياهها العذبة الوافرة وأرضها الخصبة. كما أنه أدرك الأهمية الاستراتيجية لقاعدة

سلطة الأسرة البوسعيدية على ساحل شرق أفريقيا، وقرر أن يقضي بضعة شهور من كل سنة في الجزيرة. شيّد له بيت كبير في متوني على الساحل الغربي للجزيرة يبعد حوالى خمسة كيلومترات عن بلدة زنجبار.

المزروعي

أبحر السلطان سعيد عائداً إلى مسقط في العام ١٨٢٨، تاركاً ابنه خالد البالغ ١٣ سنة من العمر كحاكم على مناطق شرق أفريقيا. وفي أثناء غيابه، أعاد آل المزروعي سيطرتهم على حصن يسوع في مومباسا من جديد في العام ١٨٢٩، إضافة إلى تعرض السلطان سعيد لمزيد من الضغوط البريطانية. ففي العام ١٨٣٣ صدر «قانون تحرير الرق» الذي ألغى هذه التجارة في كافة مناطق الأمبراطورية البريطانية، حيث أصبح العبيد أحراراً. وانطلاقاً من إدراكه لأهمية الحلفاء الأقوياء، وقع السلطان سعيد مع ممثل أميركا، أدموند روبرتس، معاهدة صداقة وتجارة في العام ١٨٣٣ مما أعطى الأميركيين حرية إقامة مراكز تجارية في زنجبار وعلى البر الأفريقي. وفي المقابل، كان السلطان سعيد يأمل بدعم عسكري أميركي ضد آل المزروعي، ولتخفيف الضغوط البريطانية المناهضة لتجارة الرقيق عليه.

في كانون الأول/ديسمبر من العام ١٨٣٣، أرسل السلطان سعيد مبعوثاً إلى ملكة مدغشقر، رانافالونا، طالباً يدها للزواج ولدعمه بالجنود لمقاتلة آل المزروعي. رفضت ملكة مدغشقر عرضه للزواج، لكنها عرضت أن تعطيه العدد الذي يريد من الجنود. كما طلبت الملكة من السلطان سعيد أن يرسل لها عقداً من المرجان تدفع ثمنه،

غير أن السلطان سعيد الذي خاب ظنه جراء رفض الملكة انا فالونا للزواج منه لم يأخذ بعرضها تقديم التعزيزات العسكرية له.

في العام ١٨٣٧، تمكن السلطان سعيد أخيراً من طرد آل المزروعي من مومباسا وتمركزت حاميته الخاصة من الجنود في حصن يسوع. توثقت العلاقات بين زنجبار وأميركا أكثر فأكثر، وتم تعيين ريتشارد ووترز قنصلاً لأميركا في زنجبار في آذار/ مارس من السنة نفسها. أهدى السطان سعيد للقنصل حصاناً وقارباً، وغالباً ما حل ووترز ضيفاً على السلطان في قصر متنوني. وفي العام ١٨٣٩ أرسل السلطان سعيد سفينته التجارية «سلطانة» إلى أميركا، حيث وصلت ميناء نيويورك في أيار/مايو ١٨٤٠، لتكون أول سفينة عربية تزور ميناء أميركياً، ورجعت إلى زنجبار محملة بالأسلحة والذخيرة والخزفيات والخرز وأقمشة «أميركاني».

العاصمة

في كانون الأول/ديسمبر من العام ١٨٤٠ أقام السطان سعيد عاصمته في زنجبار، على بعد ثلاثة آلاف ميل من مسقط. لقد قام بهذه الخطوة في وقت شهدت زنجبار مزيداً من الازدهار المتسارع، بينما عمان كانت في تراجع. كما اعتقد السلطان سعيد أن وجود مركز سلطة مزدوج في زنجبار وعمان سيعزز حماية مناطقه على البر الأفريقي ويحفظ هيمنته على تجارة المحيط الهندي.

أصبح لقب سعيد الآن، سلطان زنجبار وعمان، فحكم زنجبار مباشرة بينما بقي أكبر أبنائه، ثويني، في مسقط حاكماً على عمان. أما ملك زنجبار الخاص، مويني ماكو، فقد بقي يشرف على المسائل المحلية، بينما سيطرت حكومة السلطان سعيد على التجارة والشؤون الدولية.

ثم أخذت بلدة زنجبار بالتوسع، إذ عندما زارها السلطان سعيد لأول مرة في العشرينيات من القرن التاسع عشر، كانت أغلب ابنيتها، عبارة عن أكواخ من الطين مسقوفة بأغصان شجر جوز الهند، ولكن في الخمسينيات شيّد العديد من الأبنية الحجرية المثيرة للإعجاب من قبل المهاجرين الجدد من عمان.

لحق السلطان سعيد إلى زنجبار الكابتن أتكنز هامرتون، الذي كان عُين بالأساس في مسقط كقنصل بريطانيا، وأصبح في كانون الأول/ ديسمبر أول قنصل بريطاني في زنجبار. كما أقامت فرنسا أيضاً علاقات ديبلوماسية مع زنجبار وافتتحت قنصلية فرنسية في العام ١٨٤٤.

أثناء ذلك، ورغم القيود التي فرضتها معاهدة مورزبي، استمرت تجارة الرقيق بالتوسع. ففي العام ١٨٤١ أسس التجار العرب مستوطنة تجارية في يوجي جي عند بحيرة تنغانيكا، التي تبعد حوالي ١٦٠٠ كلم عن الساحل. وفي العام ١٨٤٣ وصلت أولى القوافل العربية إلى أوغندا على شواطىء بحيرة فكتوريا. وفي نهاية الأربعينيات ابتعد التجار العرب أكثر فوصلوا أعالي الكونغو (شرق زائير حالياً)، والمرتفعات الوسطى حول جبل كينيا، وبحيرات وادي بادينغو وتودكانا، وجنوب أثيوبيا. في هذه الفترة كان يصل إلى زنجبار من البر الأفريقي حوالي ١٣ ألف عبد كل سنة.

المقاومة

ازداد قلق السلطان سعيد من أن محاولات بريطانيا لإلغاء تجارة الرقيق ستؤدي إلى إضعاف سلطته في المنطقة. ولهذا، أرسل في العام ١٨٤٢ مبعوثه علي بن نصور إلى إنكلترا على متن السفينة

«سلطانة» ليدافع عن قضيته. كانت هدايا السلطان سعيد للملكة فكتوريا تتضمن الزمرد وشالات الكشمير وعقود اللؤلؤ وعشر خيول عربية.

كان جواب بريطانيا أنها ترغب بإلغاء تجارة الرقيق في الجزيرة العربية وعمان وبلاد فارس والبحر الأحمر. وفي سبيل تخفيف الضربة على السلطان سعيد، أرسلت الملكة فيكتوريا إليه عربة للمناسبات الرسمية وطقم شاي مطلياً بالفضة. وصلت العربة مفككة قطعاً وكان ينبغي تجميعها، ولكنها بقيت دون استخدام لمدة سنة بعد وصولها نظراً لعدم وجود طرقات في زنجبار. أما طقم الشاي فقد اعتبر أنه منمّق ومزخرف لدرجة يصعب معها استعماله، ولذلك أرسل إلى القنصلية البريطانية لحفظه بأمان.

استمرت بريطانيا بوضع القيود على تجارة الرقيق. وفي تشرين الأول/ أكتوبر من العام ١٨٤٥، أرغم السلطان سعيد فعلياً من قبل الكابتن هامرتون على توقيع اتفاقية أخرى مناهضة لتجارة الرقيق سمحت بنقل العبيد فقط بين خطي العرض ١,٥٧ درجة جنوباً، و٩,٢ درجة جنوباً (بين لامو وكيلوا، حدود ممتلكات سعيد على الساحل). وكان هذا يعني استمرار تدفق العبيد إلى زنجبار، لكن لم يعد ممكناً تصديرهم إلى عمان.

لقد استخدمت سفن من الأسطول البريطاني لوضع الاتفاقية موضع التطبيق وأسر أي مركب شراعي ينقل عبيداً. وعندما يتم أسر أحد المراكب، كانت تضرم فيه النار وينقل العبيد إلى عدن أو الهند أو أية منطقة خالية من العبودية على الساحل، مثل الموقع الإنكليزي في مومباسا. كانت أربع سفن بريطانية فقط تقوم بالدورية في مناطق شاسعة من البحر، ولهذا وجد الأسطول صعوبة كبيرة في

فرض تطبيق الاتفاقية، واستمرت مراكب نقل الرقيق في الإبحار. كانت سفن من فرنسا وألمانيا وأسبانيا والبرتغال وأميركا مستمرة بنقل العبيد بسبب الأرباح الهائلة التي تجنيها من هذه التجارة. وعلى البر الأفريقي استمر تجار الرقيق بالتوغل أبعد فأبعد نحو الداخل.

أثناء ذلك، استمرت تجارة الرقيق في زنجبار، وفي الخمسينات من القرن التاسع عشر تمّ استيراد ما بين ١٤ ألفاً إلى ١٥ ألفاً من العبيد سنوياً إلى زنجبار من المناطق الداخلية في أفريقيا، مما وفّر للسلطان سعيد، مداخيل كبيرة من الرسوم. اندفع تجار زنجبار إلى المنطقة المعروفة اليوم باسم زامبياالشمالية، وفي العام ١٨٥٢ وصلت إحدى القوافل إلى بانغويلا (أنغولا حالياً) مجتازة بذلك القارة من الشرق إلى الغرب، بينما وصلت مجموعة أخرى، في السنة التالية، إلى ينيانتي، أي ما يعرف اليوم بشريط كابريفي في ناميبيا.

ومن خلال قوافل الرقيق، أصبح السلطان سعيد الحاكم الاسمي لأمبراطورية تجارية شاسعة تمتد بمحاذاة الساحل من موزامبيق إلى موانيء الصومال، وفي الداخل تمتد إلى البحيرات الكبرى في نياسا (مالاوي، ونيانزا (فكتوريا) وتوركانا). ومع نهاية حكمه، كانت أمبراطورية زنجبار تغطي مساحة مليون ونصف المليون كلم مربع، أو ١٠ بالمائة من القارة الأفريقية. بما فيها كامل تنزانيا الحالية إضافة إلى أجزاء كبيرة من مالاوي وزامبيا وزائير وأوغندة وكينيا. لكنها كانت أمبراطورية بالاسم لا أكثر.

«فن الرقيق»

منذ القدم، كان الرقيق واحدة من السلع العديدة المصدرة من أفريقيا إلى الجزيرة العربية وبلاد فارس والهند وما وراءها. غير أن الطلب على الرقيق ازداد بشكل ملحوظ في القرن الثامن عشر، وأخذت قوافل التجارة العربية من زنجبار تتوغل داخل البر الأفريقي بحثاً عن الرقيق. وتصف روايات معاصرة كافة مظاهر هذه التجارة، ابتداء من إلقاء القبض على العبيد وانتهاء ببيعهم في سوق بلدة زنجبار. وكلها سيئ السمعة ومسيء للعرب.

في داخل أفريقيا، كان التجار دائماً يستغلون النزاعات المحلية ويشجعون القبائل الأفريقية القوية على أسر أعدائهم وبيعهم كرقيق. وبهذه الطريقة كان يجري مبادلة الرجال والنساء والأطفال بالخرز والذرة وقطع القماش.

بعد أن يجمع التجار ما يكفي من الرقيق (ربما يصل العدد إلى ١٠٠٠ عبد) كانوا يعودون إلى الساحل. وينقلونهم في المراكب خلال رحلة العودة الطويلة إلى زنجبار: كان العبيد يربطون إلى بعضهم البعض في صفوف طويلة، وعلى رقابهم أنيار (جمع نير) خشبية ثقيلة، أو توضع سلاسل معدنية حول كواحل أرجلهم، وتبقى مكانها ليل نهار حتى الوصول إلى الساحل. كانت تجارة الرقيق مرتبطة بشكل وثيق مع تجارة العاج: إذ كان التجار يشترون أيضاً أنياب العاج من الأفارقة، وكان على العبيد الأسرى أن يحملونها على رؤوسهم أثناء سيرهم نحو الساحل. إضافة إلى أحمال العاج، كانت النساء الأسيرات غالباً ما يحملن أطفالهن على ظهورهن، وإذا ما عجزت امرأة عن الاستمرار بحمل الطفل والعاج معاً، كان يتم قتل الطفل أو يترك على الطريق، لكي يكون حمل العاج أسهل. وإذا عجز عبد عن متابعة السير، كان يقتل

ويترك طعاماً للنسور والضباع. كان طريق قوافل الرقيق يدل عليه خط طويل من الجثث المتعفنة.

بعد مسيرة أسابيع عديدة أو شهور، تصل قوافل الرقيق إلى الساحل عند موانىء مثل كيلوا وباجامويو. هنا كان يجري تحميل العبيد على مراكب شراعية لا يزيد طول الواحد منها عن ٣٥ متراً، وينقلون إلى زنجبار. كان المركب يحمل ما بين ٢٠٠ و٦٠٠ من العبيد، ويحشرون جميعاً في جوف المركب على رفوف من الخيزران مصنوعة خصيصاً لهذا الغرض، ولا يرتفع الرف عن الآخر أكثر من ثلاثة أقدام. لم يكن هناك متسع للجلوس أو للركوع أو للقرفصة، إنما مجرد خليط عجيب من الثلاثة. أحياناً، كان يتم حزم العبيد في قوارب مكشوفة حيث تكون أجسادهم معرضة خلال الليل والنهار للبحر والمطر، ويبقون في حالة من العطش والجوع ودوار البحر. مما يؤدي إلى موت كثيرين من الإنهاك. كانت تعطى لهم وجبة واحدة في اليوم هي عبارة عن حفنة من الرز وكوب من المياه الآسنة. الوسائل الصحية كانت معدومة، والمرض ينتشر بسرعة، وعندما يكتشف المرض، يلقى بالعبيد المصابين في البحر، هكذا ببساطة.

بوصول الرقيق إلى زنجبار، يكونون جميعاً في حالة مجاعة وتشنج، ويلزمهم مدة أسبوع بعد النزول إلى البحر حتى يستطيعوا مد أرجلهم بشكل مستقيم. وبما أن تجار الرقيق كانوا يدفعون رسوماً جمركية على كافة العبيد الذين ينزلون إلى البر، لذا فإن العبيد الذين كانوا يعانون من ضعف شديد واحتمال أن لا يعيشوا، كان يلقى بهم للبحر أثناء اقتراب المركب من الميناء. إضافة إلى موت آخرين أثناء وجودهم في مركز الجمارك، أو وهم على الطرقات بين المرفأ والسوق.

قبل عرض الرقيق للبيع، كان يجري تنظيفهم لكي يأتوا بأسعار أفضل، فالرجال والأولاد كانوا يدهنون بالزيت ويعطون قطعاً من

مادة ما ليضعوها على وسطهم. أما النساء والبنات فيكسين بالقماش، وأحياناً يزيّن بالعقود والأقراط والأساور، إضافة إلى تلطيخ جباههن وحواجبهن بالحنّة والكحل.

كان الرقيق يعرضون للبيع في السوق في وقت متأخر من بعد الظهر، حيث يرتبون في صفوف يتقدمها الأصغر سناً وحجماً، أما الأطول ففي المؤخرة، ثم يستعرضهم صاحبهم في أنحاء السوق ويدلّل على أسعار البيع. ويقوم البائع بتطمين المشترين المحتملين بأن العبيد ليس بهم عاهات في النطق أو السمع ولا يعانون راهناً من الأمراض. يتفحص المشترون أذرع العبيد وأفواههم وأسنانهم وعيونهم، وغالباً ما يؤمر العبد بالمشيء أو الركض لإثبات قدرته على العمل. وبعد التأكد من صلاحيتهم يباع العبيد لمن يدفع السعر الأعلى.

بعد بيع العبيد لمالكهم الجديد، يوضعون في العمل في البيوت والمزارع في زنجبار، أو ينقلون من جديد في رحلة بحرية أطول، إلى عمان أو أي مكان آخر في المحيط الهندي. وعلى أي حال، فإن العبيد حال وصولهم إلى موقعهم الجديد يعاملون بشكل أفضل، نسبياً. فيتم إطعامهم وإلباسهم وإيواؤهم، كما يعطون قطعاً صغيرة من الأرض ليهتموا بها أثناء فراغهم. فالأمهات، نادراً ما كنا يتعدن عن أطفالهن. والعبيد الجيدون كانوا غالباً ما يتم تحريرهم بعد سنوات قليلة. العديد منهم كان يحصل على وظائف مدفوعة الأجر كبساتنة ومزارعين، لدى أسيادهم السابقين، وبعضهم يتسلمون قيادة قوافل العبيد أو سفن العبيد.

٥

من مسقط إلى مارسيليا

قام السلطان سعيد بزيارات دورية إلى مسقط، تاركاً ابنه خالد كحاكم على زنجبار أثناء غيابه. وفي أيلول/سبتمبر ١٨٥٦ أبحر السلطان سعيد ثانية إلى زنجبار في قاربه «كيتوري»، مع عائلته ومن ضمنها ابنه برغش الذي كان في التاسعة عشرة من عمره. أمر السلطان سعيد بتحميل بعض ألواح الخشب على السفينة، قائلاً إنه في حال توفي أحد على متن السفينة ينبغي أن لا يدفن في البحر، حسب التقاليد الإسلامية، وإنما يحنط ويؤخذ إلى زنجبار في نعش.

لقد بدا أن السلطان سعيد يعرف الشخص الذي كان على وشك الموت: فقد بدأ يعاني من آلام حادة نتيجة جرح قديم في فخذه تلاها حالة إسهال حادة. وفي تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٥٦ توفي سعيد على متن السفينة وكان له من العمر ٦٥ عاماً.

وضع برغش جثة أبيه في نعش وتولى قيادة الأسطول، لكنه لم يرسو في ميناء زنجبار بل توجه بدلاً من ذلك إلى جزيرة شومبي، التي تبعد نحو ثمانية كيلومترات للجنوب. في تلك الليلة وصل

برغش إلى الشاطىء سراً وحاول السيطرة على قصر متوني وعلى الحصن في بلدة زنجبار، لكنه لم يستطع حشد العدد الكافي من المؤيدين.

أُحبطت محاولة برغش للاستيلاء على السلطة، وفي ٢٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٨٥٦ أعلن ماجد بن سعيد سلطاناً على زنجبار. ثم أرسلت سفينة إلى عُمان حاملة الخبر، غير أن ثويني، ابن سعيد الأكبر، رفض الاعتراف بماجد كسلطان، معتقداً أنه كان الوريث الشرعي. وافق ماجد على دفع أربعين ألف ريال ماريا تيريزا سنوياً (العملة التجارية في ذلك الوقت) إلى ثويني كتعويض، ولكن بعد مرور سنة توقف ماجد عن الدفع.

التقسيم

تطور الصراع على السلطة بين الحكّام العمانيين. خطط سلطان عمان، ثويني لقلب ماجد سلطان زنجبار لأنه لم يدفع الجزية التي وعد بها. وفي شباط/ فبراير ١٨٥٩ أبحر ثويني جنوباً ولكن طراداً بريطانياً اعترض طريقه عند الطرف الشرقي للجزيرة العربية. لقد أرادت الحكومة البريطانية الحفاظ على سيطرتها على الطريق البحري للهند، ولهذا تمّ إقناع ثويني بإخضاع مطالبه لتحكيم اللورد كاننغ، الحاكم العام على الهند. وافق ثويني ورجع إلى مسقط.

غير أن الخطر كان يهدد ماجد بواسطة فرد آخر من العائلة هو أخوه برغش الذي مازال يتآمر للإطاحة به وإعلان نفسه سلطان زنجبار. علم ماجد بالمؤامرة واضطر برغش للهرب إلى مزرعة مرسيليا حيث ألقي القبض عليه ونفي إلى الهند لمدة سنتين.

وفي نيسان/أبريل ١٨٦١ أعلن اللورد كاننغ أن عُمان وزنجبار

يجب أن يصبحا دولتين منفصلتين تماماً. وأعيد قرار دفع الجزية السنوية من زنجبار لعُمان، وفي آذار/ مارس ١٨٦٢ وقعت بريطانيا وفرنسا إعلاناً مشتركاً يعترف بماجد كسلطان على زنجبار ومناطقه كسيادة مستقلة.

ومع أن ملك زنجبار مويني ماكو كان لا يزال يعيش في قصر دونغا فإن سلطته الآن أصبحت جديرة بالاهمال. خلف حسن الثاني محمد الذي توفي العام ١٨٦٥ عن عمر يناهز الثمانين. وقد خلفه ابنه أحمد الذي مات متأثراً بمرض الجدري في آذار/ مارس ١٨٧٣، دون أن يترك وريثاً ذكراً. وهكذا انقطع خط سلالة مويني ماكو في زنجبار، وبالكاد لاحظ أحد هذا الانقطاع.

في السنة نفسها، تمّ اغتيال السلطان ثويني في عُمان أثناء نومه على يد ابنه سالم الذي خلفه على العرش.

وفي هذا الوقت لم يتم إلغاء تجارة الرقيق في زنجبار. ففي بداية الستينيات من هذا القرن، وصل عدد العبيد الذين كانوا يستوردون سنوياً إلى زنجبار من البر الأفريقي، إلى خمسة عشر ألفاً، ووصل عددهم إلى العشرين ألفاً سنوياً العام ١٨٦٦. لقد وصل عدد السكان العبيد إلى ذروته، كما أن إنتاج التوابل دخل مرحلة فائض الإنتاج والركود مما أدى إلى هبوط الأسعار.

كان العرب قد استثمروا كل أموالهم في مزارعهم التي كان العديد منها مرهوناً للمرابين الهنود الذين سريعاً ما أصبحوا فائقي الغنى. (كان الهنود رعايا بريطانيين تشجعوا على الاستيطان في زنجبار لوجود قنصل بريطاني، ولهذا لم يستطيعوا تملك العبيد).

وكنتيجة لانخفاض ربحية إنتاج التوابل، برز اهتمام أكبر بإنتاج زيوت جوز الهند وبذور السمسم، لتصديرها إلى فرنسا بشكل

أساسي. كما جرى إحياء إنتاج السكر، وانشئت مزارع المطاط على الساحل.

برغش

في هذه الأثناء، توفي سلطان زنجبار، ماجد، وهو في السادسة والثلاثين من عمره، وبما أن طفله الوحيد كان ابنة، فقد نصّب أخوه برغش سلطاناً على زنجبار في السابع من تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٧٠. (برغش الذي كان حاول مرتين الاستيلاء على العرش وعاد إلى زنجبار من منفاه في الهند العام ١٨٦١).

خطط السلطان برغش لإقامة مزارع جديدة، وبذلك انتعشت تجارة الرقيق من جديد. وفي العام ١٨٧٢، تم استيراد حوالى ١٦ ألفاً من العبيد إلى زنجبار. وكان إعصار قد خرب الطرف الجنوبي لجزيرة بيمبا، وبقي القسم الأكبر من أشجار التوابل سليماً على تلك الجزيرة. وفي الثمانينيات، كانت بيمبا تنتج حوالى ٨٠ بالمائة من إجمالي محصول التوابل في زنجبار وبيمبا.

وفي الفترة ذاتها، واصلت الحركة المناهضة للرقيق نموّها. في كانون الثاني/ يناير ١٨٧٣، وصل مبعوث الملكة فكتوريا الخاص، السير بارتل فرير، إلى زنجبار ليفاوض حول عقد اتفاقية كان يأمل أن تضع حداً نهائياً لتجارة العرب بالرقيق. وبطبيعة الحال، لم يكن السلطان برغش راغباً بإنهاء هذه التجارة نظراً للمداخيل الكبيرة التي كانت تأتي من الرسوم على استيراد العبيد، كما أنه كان يحتاج للعبيد من أجل العمل في مزارع التوابل. أبحر بارتل فرير عائداً إلى إنكلترا في أوائل آذار/ مارس ١٨٧٣ دون أن يتمكن من عقد اتفاقية مع برغش. وسريعاً ما بدأ الأسطول البريطاني بضرب الحصار على كافة موانىء تجارة العبيد على البر الأفريقي،، فتقلص

عدد العبيد الذين مروا بمركز الجمارك في بلدة زنجبار بين كانون الثاني/ يناير وآذار/ مارس، إلى ٢١ عبداً بالمقارنة مع أربعة آلاف عبد في الفترة ذاتها من العام المنصرم.

وفي حزيران/يونيو ١٨٧٣، أبلغ القنصل البريطاني جون كيرك السلطان برغش بأن حصار زنجبار قد أصبح وشيكاً، مما أرغم برغش على توقيع اتفاقية بريطانية ـ زنجبارية وفرت شروط إلغاء تجارة الرقيق تماماً في مناطق برغش، وإقفال كافة أسواق الرقيق وحماية العبيد المحررين. أصبح نقل الرقيق محرماً، ولم يعد ممكناً تصدير العبيد من البر الأفريقي إلى زنجبار وبيمبا، إلاّ للأغراض البيتية.

أقفل سوق الرقيق الكبير في زنجبار، واشترى موقعه مبشرو إرسالية الجامعات البريطانية في أفريقيا الوسطى، وباشروا بناء كنيسة أنغليكانية ما تزال قائمة حتى يومنا هذا.

وكانت إحدى نتائج الاتفاقية، بعد أن أصبحت تجارة الرقيق محرّمة، ارتفاع أسعار العبيد واستمرار تجارة الرقيق بطريقة سرية. وخلال السبعينيات، قام المهرّبون بتصدير ما بين ١٠ آلاف و١٢ ألف عبد سنوياً.

لندن

في العام ١٨٧٥، أحضر جون كيرك للسلطان برغش دعوة رسمية لزيارة بريطانيا والمصادقة على المعاهدة البريطانية ـ الزنجبارية. وفي حزيران/ يونيو من السنة ذاتها وصل السلطان برغش والقنصل كيرك إلى لندن حيث تسلم برغش وسام «حرية المدينة» في «غيلد هول» (مقر بلدية مدينة لندن) وحضر مأدبة رسمية في «مانشن هاوس».

وخلال زيارته لبريطانيا قام السلطان برغش بزيارة سباق الخيول في أسكوت ودونكاستر، وهايد بارك والمتحف البريطاني. وكذلك زار مركز البريد الرئيسي، ومعسكر «الدرشوت كامب» ومنتجع برايتون. كما زار أيضاً المدن الصناعية برمنغهام وليفربول ومانشستر حيث شهد قوة الثورة الصناعية. وفي «كريستال بالاس» جرى عرض للألعاب النارية على شرفه. وزار برغش أيضاً الملكة فكتوريا في قصر وندسور، وأمير ويلز، وأميرتها في «مارلبرو هاوس». اندهش السلطان برغش لرؤية الأميرين ألبرت وجورج يرتديان بذلات البحارة، التي ظنّها زياً لعمال المصانع.

في منتصف تموز/يوليو ١٨٧٥، وبعد أربعة أسابيع من المشاهدة والتسلية، أبحر السلطان برغش وحاشيته من فوكستون إلى كاليه ومنها إلى باريس. وبعد أيام قليلة سافروا بالقطار إلى ميناء مرسيليا الذي أبحروا منه عائدين إلى زنجبار، ووصلوها في شهر أيلول/ سبتمبر.

لم تعد زنجبار بالنسبة للبريطانيين جزيرة بعيدة وغامضة، وأصبحت العلاقات بين البلدين أكثر ثباتاً. ففي العام ١٨٦٩ فتحت قناة السويس لتصبح الرحلة البحرية بين بريطانيا وساحل شرق أفريقيا أقصر وأسهل. وفي العام ١٨٧٢، بدأت شركة الملاحة البخارية الهندية البريطانية خدماتها البريدية الشهرية بين زنجبار وعدن، وهي وفّرت أول خدمات مجدولة لنقل الركاب والحمولة إلى زنجبار، الأمر الذي سمح بتصدير البضائع بسرعة. وفي العام ١٨٧٩، تحسنت الاتصالات مجدداً، عندما انجزت شركة التلغراف الشرقية مد خطها من زنجبار إلى أوروبا عبر عدن، وأقيمت صلة تلغرافية مع أوروبا.

القصور

كان السلطان برغش قد شاهد أثناء منفاه في الهند غنى القصور الهندية الباذخ، وحاول محاكاتها في زنجبار. فقد أشاد العديد من القصور الفخمة، من ضمنها شوكواني، جنوب بلدة زنجبار، وقصر ماروحوبي لحريمه، في الشمال. كما أشاد قصراً في البلدة أصبح يعرف باسم «بيت العجايب»، لأنه كان أول بيت يُنار بالكهرباء في زنجبار. وفي كافة قصوره، رفع السلطان برغش مستوى أدوات خدمة الطعام من فضية إلى ذهبية، واستبدل أغطية مقاعد الديوان المصنوعة من شعر الماعز والجمال بأغطية من الحرير والتفتا، كما غطى السجاد الفرنسي أرضيات القصور.

وأدخل السلطان برغش لأول مرة نظام المياه النظيفة ليحل مكان الآبار المحلية ومياه الأمطار، إذ تم جرّ المياه النقية بواسطة قنوات الجر والأنابيب من نبع بوبوبو إلى بلدة زنجبار لمسافة حوالى ستة كيلومترات. كما أدخل برغش تطويرات أخرى من ضمنها قوة شرطة، مصنع ثلج، إنارة الشوارع بالكهرباء وهاتف يصل مدينته بقصوره الريفية. وكذلك بنى السلطان برغش الطرقات وحسّنها، وقدم إحدى سفنه البخارية لنقل المسلمين الراغبين بالحج إلى مكة.

في شباط/فبراير ١٨٨٨، أبحر السلطان برغش إلى مسقط لزيارة ينابيع بوشهر الشافية على الساحل الفارسي(*) لكي يتعافى من مرض السل وداء الفُيال، ثم عاد برغش إلى زنجبار في ٢٦ آذار/ مارس، الساعة الثامنة مساء. بعد خمس ساعات توفي السلطان برغش وكان عمره ٥١ سنة. وفي ٢٩ آذار/ مارس ١٨٨٨، أُعلن خليفة بن سعيد، أخو برغش سلطاناً.

المحمية

في ١٣ أيلول/سبتمبر ١٨٨٩، وقّع السلطان خليفة اتفاقية مع الحكومة البريطانية لإنهاء تجارة الرقيق في مناطقه: كل شخص يدخل ممتلكات السلطان، وأي طفل يولد، يكون حراً. ومنحت بريطانيا وألمانيا الحق الدائم بالتفتيش عن العبيد في مياه زنجبار. وكبادرة رضى من بريطانيا، مُنح السلطان خليفة لقب فارس، ولكن بعد أقل من شهر توفي خليفة وعمره ٣٦ سنة.

أعلن أخو خليفة، علي بن سعيد سلطاناً. وكان السلطان علي رابع وآخر أبناء السلطان سعيد قد أصبح سلطاناً على زنجبار. في آب/أغسطس ١٨٩٠ وقّع علي اتفاقية ضد تجار الرقيق. تحرّم بيع العبيد وشراءهم. مع انتهاء تجارة الرقيق، كانت الصادرات الوحيدة القابلة للحياة في الداخل هي العاج.

في العام ١٨٩١ تشكلت حكومة دستورية في زنجبار، وكان الجنرال السير لويد ماثيوز الوزير الأول فيها. ولكن رغم أن زنجبار كانت تتمتع بوضع محمية بريطانية، إلاّ أن أهمية الجزيرة كمركز تجاري كانت تتراجع أكثر لصالح مومباسا.

أصبحت بريطانيا تسيطر الآن على زنجبار، وعندما توفي السلطان علي في العام ١٨٩٣ دون أن يترك وصية، أعلنت بريطانيا حمد كسلطان، وهو ابن ثويني (سلطان عُمان السابق)، رغم وجود مطالبين آخرين بالعرش: خالد بن برغش وحمود بن محمد بن سعيد، ابن أخ ثويني.

في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٩٥، وخلال حكم السلطان حمد، أصدرت زنجبار لأول مرة طوابعها البريدية (منذ العام ١٨٧٥

كانت الجزيرة تستخدم الطوابع الهندية الممهورة بختم «زنجبار». ثم صدرت جريدة «زنجبار وشرق أفريقيا»، تلتها جرائد أخرى بالإنكليزية والعربية والسواحيلية والأردو.

وفي العام ١٨٩٥، أيضاً، قام آل المزروعي بمحاولة أخيرة للانفصال عن زنجبار وحكم مومباسا بأنفسهم. وبعد سنة على المحاولة تعرضوا للهزيمة مجدداً وهرب قادتهم من مومباسا البريطانية إلى المنطقة الألمانية حيث أخذوا إلى دار السلام ووضعوا في السجن.

أصيب السلطان حمد بالمرض في العام ١٨٩٦، واستدعى ابن أخيه خليفة بن حارب بن ثويني بن سعيد من مسقط إلى زنجبار ليكون رفيقه، لكنه مات في آب/ أغسطس من السنة ذاتها وأوصى البريطانيون بتنصيب حمود كسلطان، وهو ابن عم حمد.

وقام خالد بن برغش، الذي حاول سابقاً الاستيلاء على السلطة من حمد، بمحاولة ثانية لخطف العرش من حمود. نجح هذه المرة ولو لوقت قصير، لولا أن الإنكليز طردوه على أثر «أقصر حرب في التاريخ». هرب خالد إلى دار السلام، في المنطقة الألمانية.

في ٢٧ آب/أغسطس ١٨٩٦، أخذ حمود إلى مركز الجمارك وأعلن سلطاناً على زنجبار وسط تحية أدتها السفن الراسية في الميناء. لقد أيّد السلطان الجديد الحكومة البريطانية، وفي نيسان/ أبريل ١٨٩٧ وقع السلطان حمود اتفاقية لإلغاء الوضع الشرعي لتجارة الرقيق في زنجبار وبيمبا. وبعد ذلك بقليل كافأته الملكة فكتوريا بوسام الصليب الأكبر. كما أرسل السلطان حمود ابنه علي للمدرسة في هارو في إنكلترا حيث مثّل أباه في احتفال تتويج الملك إدوارد السابع.

توفي السلطان حمود في ١٨ تموز/يوليو ١٩٠٢، وأعلن

البريطانيون ابنه علي، ابن الثامنة عشرة، سلطاناً جديداً. ومنذ أيام الدراسة كان علي يتكلم الإنكليزية بطلاقة، وتابع رحلاته إلى أوروبا أثناء حكمه. كان السلطان علي يتلقى العلاج الطبي في سويسرا وألمانيا، كما زار باريس والقسطنطينية. وفي أيار/ مايو ١٩١١ حضر علي مع زوج أخته خليفة بن حارب تتويج الملك جورج الخامس في إنكلترا. وأثناء وجوده في أوروبا تقهقرت صحته وتخلى عن العرش في كانون الأول/ ديسمبر ١٩١١، ثم أمضى السنوات السبع الأخيرة من عمره في أوروبا، ومات في باريس العام ١٩١٨. وفي ١٦ كانون الأول/ ديسمبر ١٩١١، أصبح ابن عمه خليفة بن حارب السلطان خليفة الثاني.

القرن العشرون

برهن السلطان خليفة بن حارب على أنه حاكم معتدل ولكن ذو نفوذ، وشرع في قيادة زنجبار خلال النصف الأول من القرن العشرين العاصف، بحكمة وديبلوماسية.

وحالما تسلم السلطة، قام السلطان خليفة بتغييرات تتكيف مع نظرة البريطانيين لمصالحهم في زنجبار. وفي تموز/ يوليو ١٩١٣، انتقلت مسؤولية زنجبار من وزارة الخارجية البريطانية إلى وزارة المستعمرات. ومركز القنصل البريطاني أصبح المندوب السامي البريطاني ويخضع لسلطة حاكم محمية شرقي أفريقيا البريطانية، وفي الوقت نفسه، تشكل مجلس المحمية الذي كان هيئة استشارية رئيسها السلطان والمندوب السامي نائبه.

(*) استعمل اسم الخليج الفارسي لأنه الاسم التاريخي المعروف جغرافياً.

قصة غرام سالمة

ولدت سالمة ابنة السلطان سعيد، في قصر متوني في زنجبار في آب/أغسطس ١٨٤٤، وعاشت فيه حتى السابعة من عمرها. وكانت أمها (محظية بوضع زوجة) من بلاد الشركس جنوب روسيا. وكتبت سالمة فيما بعد كتاباً شهيراً بعنوان «مذكرات أميرة عربية»، أول ما صدر بالألمانية، ثم بالإنكليزية، وأخيراً بالعربية، (مجتزأً) عن وزارة التراث والثقافة في عُمان. عرضت سالمة في هذا الكتاب الكثير من التفاصيل المهمة عن الحياة في بلاط السلطان وأحداث ذلك الزمان.

وقصر متوني بناه السلطان سعيد على موقع بيت أقدم يعتقد أنه يخص صالح بن حراميل، التاجر العربي الذي استورد أول شجرات كبش القرنفل إلى زنجبار. متوني، الذي يعني «السلام بجانب النهر»، هو أقدم قصور زنجبار.

في كتابها تصف سالمة قصر متوني في الخمسينيات من القرن التاسع عشر: «كان له ساحة كبيرة، حيث كانت الغزلان والطواويس والنعامات والبشروش تتجول في أنحائها، وحمام كبير في طرف قصر السلطان حيث كان يعيش مع زوجته الرئيسية، التي كانت أميرة عُمانية أسمها عزّة».

تروي سالمة أن أكثر من ألف شخص كانوا ملحقين بحاشيته في القصر. وهي تصف كيف كان السلطان يصعد ويهبط الدرج الكبير المستدير الذي يطل على البحر حيث كان يرى أسطوله الراسي بعيداً عن الشاطئ. ولدى وصول زواره في قارب، كان يستقبلهم على درج قصره، إذ لم يكن يوجد رصيف لرسو السفن. وكانت سالمة وأميرات أخريات ينقلن إلى قواربهن على كراسي. هناك تعلمت الخياطة والتطريز والتخريم على يد أمها، والى جانب

معلّم كان يعطيها دروساً خصوصية مع إخوتها وأخواتها في قاعة مفتوحة لا تحتوي إلاّ على حصيرة كبيرة واحدة وكتاب القرآن الكريم على حامل من خشب. كان أطفال السلطان يتعلمون الألفباء العربية، القراءة والقليل من الحساب. أما الصبيان فكانوا يتعلمون أيضاً الكتابة باستخدام الحبر المصنّع محلياً ولوح للكتابة مصنوع من عظمة كتف الجمل مصقولة بشكل جيد. غير أن سالمة كانت فتاة متمردة، علمت نفسها على الكتابة سراً.

كان كافة أطفال السلطان، فوق الخامسة من العمر، يتلقون دروس ركوب الخيل مرتين في اليوم، في الصباح الباكر والمساء. وعندما كانوا يحرزون تقدماً كافياً، يتسلم الأولاد خيولاً عربية، أما البنات فيتسلمن حميراً بيضاء من مسقط. وعندما كانت الأميرات يركبن حميرهن لزيارة مزارع التوابل، كان العبيد يركضون بجانب كل حيوان حاملين المظلات الكبيرة الخفيفة ليحموا الأميرات من الشمس. كما تعلم الأطفال أيضاً السباحة في البحر في سن مبكرة.

أعطيت سالمة عبيداً أفارقة كمرافقين شخصيين لها. عند النوم كان أحد العبيد يدلكها، بينما يقوم آخر بعملية التهوية بواسطة مروحة، إلى أن تغفو الأميرة وهي بكامل ملابسها. كان العبيد يستمرون بالتهوية طيلة الليل، وفي الصباح كانوا يدلكونها من جديد بلطف حتى تستيقظ. كان حمّامها يملأ بمياه النبع العذبة، وكانت ملابسها الخاصة بالنهار توضع مفرودة وعليها أزهار الياسمين والبرتقال خلال الليل، وكانت الملابس تضمخ بالعنبر والمسك قبل ارتدائها. النوافذ والأبواب تبقى مفتوحة خلال السنة، حتى في الأيام الباردة والرطبة عندما تكون نار الفحم مشتعلة. فالهواء النقي كان يساعد على تبديد الروائح الكريهة. كان العبيد يغسلون الملابس الكتانية

الداخلية والبياضات يومياً، وتجفّ في الشمس خلال نصف ساعة، ثم تمسّد وهي مفرودة (دون كوي) لكي تحفظ جانباً.

كان مسموحاً لسالمة أثناء طفولتها الاختلاط مع الأولاد الذين من عمرها، ولكن عندما أصبحت في التاسعة لم يعد يسمح للرجال برؤيتها، باستثناء أبيها وأقاربها الخاصين من الذكور وعبيدها. أصبحت تلبس البنطال والعباءة التي تصل حتى كاحليها، والمنديل على رأسها، وكانت العباءة والبنطال من طرازين مختلفين. وأثناء مسيراتها، كانت تضع شالاً كبيراً من الحرير الأسود، ولا تظهر أمام الغرباء ألا وهي تضع الحجاب الذي يغطي قسماً من الوجه والرقبة والذقن، والأهم من كل ذلك، أن الكاحلين يجب أن يغطيا بالكامل.

في تشرين الأول/أكتوبر ١٨٥٩، تورطت سالمة في مكيدة عائلية بين أخويها برغش وماجد. وساعدت سالمة برغش على الهرب إلى مزرعة «مارسليا» للتوابل، بعد فشل محاولته الإطاحة بسلطة ماجد. لم يعاقب ماجد أخته سالمة نتيجة مشاركتها في المؤامرة، ولكن بانحيازها إلى برغش خسرت صداقة العديد من أخوتها وأخواتها المتعاطفين مع ماجد. وعندما تمت مصالحتها مع ماجد، أبعدت سالمة نفسها عن كل من شارك في المؤامرة.

وبحلول العام ١٨٦٦ كانت سالمة تعيش في بلدة زنجبار، عزباء رغم أن عمرها كان ٢٢ سنة. وكونها كانت على خلاف مع عائلتها، بعد انفضاح دورها في هرب شقيقها برغش إلى «مارسيليا»، فقد أقامت سالمة علاقات شخصية مع العديد من الأجانب في الجزيرة، حتى أصبحت عشيقة تاجر ألماني شاب من هامبورغ يدعى هاينريش دوته، كان يسكن في البيت الملاصق لبيتها. بدأت صداقتهما سرية، وكانا يتحادثان مع بعضهما عبر

شرفتي منزليهما ويلتقيان بشكل سري في المنطقة الريفية خارج البلدة.

في تموز/يوليو ١٨٦٦، اكتشفت سالمة أنها حامل فاضطرت لمغادرة زنجبار على عجل، لأن الحمل غير الشرعي سيجلب العار لعائلتها ولكل الأسرة البوسعيدية. هربت على ظهر سفينة حربية بريطانية بمساعدة القنصل البريطاني. وعلى أثر مغادرتها البلاد، وقد ذاع صيتها وصيت عشيقها، انتشرت في زنجبار على مدى شهور مشاعر العداء للأوروبيين، فتم إرسال سفينة حربية بريطانية أخرى لإخماد أية عمليات انتقامية محتملة ضد الأوروبيين.

وصلت سالمة إلى عدن حيث أقامت عند بعض أصدقائها الأوروبيين، وتخلت عن الإسلام وتنصرت وتعمدت في الكنيسة الانغليكانية باسم أميلي. وفي زنجبار، صفّى هاينريش أعماله بسرعة ولحق بسالمة إلى عدن حيث تزوجا في الحال وسافرا إلى موطن هاينريش في هامبورغ.

في السنوات الثلاث التالية، رزق هاينريش وسالمة بابنتين وولد. وفي آب/ أغسطس ١٨٧١ توفي هاينريش أثر حادث دهس تحت عجلات الترام. بقيت سالمة في ألمانيا، لأن ذهابها إلى زنجبار لم يكن ممكناً، وقامت بزيارة واحدة قصيرة إلى لندن العام ١٨٧٥ للقاء أخيها السلطان برغش الذي كان يقوم بزيارة رسمية لبريطانيا. أثناء وجود برغش في لندن، ذهبت سالمة مع ولديها، على أمل المصالحة مع أخيها. غير أن برغش رفض مقابلة أخته، بتحريض من الحكومة البريطانية، خوفاً أن تقنع سالمة أخيها برفض اتفاقية إلغاء الرقيق التي كان قد وقعها مع الإنكليز.

وفي العام ١٨٨٥، وصلت سفينة ألمانية إلى زنجبار تنقل على متنها

سالمة مع ابنها سعيد ـ رودولف البالغ ستة عشر عاماً وابنتيها. وكانت زنجبار في حينه تحت الحماية الألمانية. فخاف القنصل البريطاني بأن يقترح الألمان تعيين سعيد ـ رودولف كسلطان على البلاد، إذا ما قام برغش بإعتقاله أو اعتقال سالمة، وهما الآن مواطنان ألمانيان، مما يبرر للألمان إعلان الحرب على زنجبار. وبناءً على نصيحة القنصل البريطاني تسامح برغش مع وجود سالمة وأولادها ولم يعتقلها. لكنه رفض أن يقابلها أو يستضيفها، على الرغم من دورها الأساسي في تهريبه، الذي أدى إلى تسلمه السلطة فيما بعد. لكن برغش لم يستطع أن يغفر لأخته زواجها من الألماني وتنصرها. وعندما لم تكلل محاولتها لإجراء المصالحة مع عائلتها بالنجاح، عادت إلى ألمانيا، ومنها جاءت إلى سورية وعاشت فيها منفية حتى العام ١٩١٤، وتوفيت في ألمانيا العام ١٩٢٤. بين ممتلكاتها التي وجدت بعد وفاتها، كان هناك كيس من رمال شاطىء زنجبار.

وفي متحف القصر في زنجبار اليوم توجد غرفة مخصصة لحياة سالمة وكتابتها. وفي العام ١٩٩٤، تم تأسيس «معهد السيدة سالمة» بهدف المزيد من لفت الانتباه لحياة هذه المرأة وكتاباتها غير العادية، ولتشجيع التدريب والبحث في ما يختص بزنجبار.

الهرب إلى «مارسيليا»

في تشرين الأول/أكتوبر ١٨٥٩، كان برغش يتآمر للإطاحة بأخيه ماجد، سلطان زنجبار. فقد كان برغش يعيش في بيت في بلدة زنجبار بقرب قصر بيت الساحل، مع أخته ميجي وأخيه عبد العزيز الذي كان عمره ١١ سنة. وفي بيت آخر خلف بيته تماماً كانت تعيش أختاه، سالمة وخولة، ويفصل بين البيتين شارع ضيق. وفي الجوار كانت تعيش أيضاً الأميرتان شيمبو وفارشو، ابنتا أخت برغش. ولقد شكلت البيوت الثلاثة مركز المؤامرة ضد ماجد.

كان ماجد متنبهاً لمؤامرة أخيه، ولذلك وضع مراقبة على البيوت الثلاثة وأمر بمحاصرة بيت برغش، فتمركز بضع مئات من الجنود أمام البيت ومعهم أوامر صارمة بإطلاق النار على أي شخص مشبوه، وقطع الاتصالات عن البيت. غير أن برغش كان لديه الكثير من المؤن داخل البيت، كما عمل رفاقه المتآمرون على تزويده بالمياه العذبة سراً عبر منافذ خلفية للبيت. أثناء ذلك، كان المتآمرون قد خزّنوا الأسلحة والذخائر والمؤن في مزرعة «مارسيليا» المحصّنة استعداداً للحصار.

وكانت «مارسيليا» مزرعة أطلق خالد، أخ آخر لبرغش، هذا الإسم عليها. وكان خالد حاكماً على زنجبار في غياب أبيه السلطان سعيد. وكان خالد مولعاً بكل شيء فرنسي، وكان يستورد البضائع الفرنسية، وقد أطلق على قصره الريفي هذا اسم مارسيليا، تيمناً بالميناء الفرنسي الشهير على البحر المتوسط. كانت أرضية البيت مطعمة بالرخام الأبيض والأسود المستورد من إيطاليا وجدرانه الداخلية مغطاة بالسجاد الفرنسي «الأوبيسون» وبمرايا كبيرة مستوردة من فرنسا. وتوفي خالد بمرض السل في العام ١٨٥٤.

في منتصف ليل الثامن من تشرين الأول/أكتوبر ١٨٥٩ توجهت الأميرتان سالمة وخولة مع مرافقة كبيرة من ضمنها الأميرتان شيمبو وفارشو، إلى بيت برغش، حيث خدعوا الحراس المناوبين بعد أن داعبوهم. وكانت التقاليد العربية تحرّم النساء، وخاصة حريم السلطان التحدث مع الغرباء من الرجال والجنود. أحضر الأخوات معهن عباءات وأحجبة نسائية كي يستخدمها برغش أثناء خروجه من البيت حتى لا يلاحظه أحد. رفض برغش في البداية ارتداء ملابس النساء، ولكنه وافق أخيراً على أن يلف جسمه بعباءة سوداء فضفاضة لا يظهر منها سوى عينيه. سارت بجانبه النساء الأطول قامة حتى لا يثير طوله أي شكوك. ولارتياحهم العظيم، فإن الحرس عند الباب حيوا بكل احترام موكب الحريم السلطاني وسمحوا له بالخروج.

كانت سالمة وخولة قد عينتا مكان لقاء مع بعض مؤيدي برغش خارج المدينة. وكان الاتفاق أنه في حال عدم وصول الحريم السلطاني في الوقت المحدد، يتفرق هؤلاء المؤيدون. لكن الوقت كان قد تأخر، وأصبح برغش قلقاً وعصبياً. سار موكب الحريم السلطاني عبر الجزء المأهول من البلدة بخطى عادية، ولكن ما إن خرجوا إلى الضواحي حتى أطفأوا قناديلهم وأخذوا يركضون. كانت الحقول موحلة، ولكنهم اندفعوا عبر الحواجز والخنادق بأخفافهم المزركشة، ولم يبطئوا إلاّ عند وصولهم إلى مكان اللقاء المحدد بين الأشجار. كان المرافقون بالانتظار. نزع برغش لباس التنكر، ثم ودّع أخواته واختفى وسط الظلام. ورجعت الأخوات المنهكات من التعب إلى البيت لمواجهة النتائج.

سريعاً ما علم ماجد بهرب أخيه ووصوله مع الكثير من مؤيديه إلى مزرعة «مارسيليا»، فحشد خمسة آلاف جندي وطلب مساعدة

القنصل البريطاني، السير كريستوفر رغبي، لقمع الثورة. فزوّده القنصل بمدفع وتسعة جنود من السفينة الحربية البريطانية «أساي».

سار ماجد إلى «مرسيليا» وبدأ بقصف البيت، إلاّ أن مؤيدي برغش خرجوا من تحصيناتهم وقاتلوا جنود ماجد حتى مغيب الشمس. قتل عدة مئات في المعركة، وتراجع ماجد وجنوده لقضاء الليل، ولكن أثناء نومهم تسلل برغش ومؤيدوه عائدين إلى البلدة. وفي صباح ١٦ تشرين الأول/ أكتوبر، عاد ماجد وتقدم نحو «مارسيليا» وحطّم أبوابها ليدخل ويجد أن الجميع قد غادروها.

أثناء ذلك، رجع برغش إلى بيته وبقي مختفياً فيه رافضاً حتى النظر من النافذة. ورتّب القنصل البريطاني أمر رسو السفينة الحربية «آساي» عند الشاطيء حيث نزل منها مفرزة من جنود البحرية وساروا حتى مدخل بيت برغش. في ١٧ تشرين الأول/ أكتوبر، طلب القنصل من برغش الاستسلام، وعندما لم يسمع جواباً من الداخل بدأ جنود البحرية بقصف واجهة البيت الأمامية. عندها صرخت خولة من بيتها عبر الشارع، طالبة من أخيها الاستسلام. علت صيحات: «الأمان، الأمان»، وتوقف إطلاق النار. تقدم القنصل البريطاني ونقر بعصاه على الباب طالباً الاستسلام الفوري. فتح الباب بعد دقائق وخرج منه برغش، فأعتقله القنصل ونقله إلى السفينة الحربية. أخذ برغش إلى الهند حيث بقي منفياً لعامين. أصرّ أخوه الصغير عبد العزيز على مرافقته، وبقي في الهند بعد أن رجع برغش إلى زنجبار العام ١٨٦١.

«اقصر حرب في التاريخ»

توفي السلطان حمد في ٢٥ آب/أغسطس ١٨٩٦، بينما كان القنصل البريطاني آرثر هاردنغ يقضي إجازة في إنكلترا، فأوصى القنصل بالوكالة، باسل كيف، بأن يتم تعيين حمود، ابن عم حمد، سلطاناً، ولكن عندما وصل القنصل البريطاني بالوكالة إلى قصر «بيت الساحل» في بلدة زنجبار، وجد الأبواب مقفلة.

كان خالد بن برغش (ابن عم آخر لحمود) قد وصل إلى القصر قبلهما مع حوالى ٦٠ رجلاً، ودخلوه متسلقين إحدى النوافذ المكسورة، لينضم إليهم سريعاً حوالى ألفين من المؤيدين.

صبيحة ٢٦ آب/أغسطس، تم تعزيز السفن البريطانية الثلاث في الميناء بوصول سفينتين أخريين. وعند فجر اليوم التالي، أرسل الأسطول البريطاني بقيادة الأميرال هاري هولد زورث راوسون، الإنذار التالي: «على خالد أن يستسلم، ينزع السلاح، يخلي القصر ويكون في مركز الجمارك بحلول الساعة التاسعة صباحاً، وإلاّ تفتح السفن البريطانية النار». في الساعة الثامنة أرسل خالد مبعوثاً إلى القنصل البريطاني طالباً فرصة لمناقشة السلام، غير أن طلبه رفض.

وعند الساعة التاسعة ودقيقتين بدأ القصف المدفعي، وخلال نصف ساعة كان «بيت الساحل» والقصور المجاورة لبيت الحكم قد أصيبوا بأضرار فادحة. اشتعلت النار بالمنارة خارج القصر، وقصف «بيت العجائب» القريب عدة مرات. فرّ الكثيرون من أنصار خالد، تاركين خلفهم حوالى خمسمائة شخص بين قتيل وجريح في ساحات القصر.

في التاسعة وأربعين دقيقة استسلم خالد وأنزل العلم ليتوقف

إطلاق النار وتنتهي الحرب. وقد سجل هذا النزاع على الحكم في «كتاب غينيس للأرقام القياسية» كأقصر حرب في التاريخ.
هرب خالد عبر الشوارع الضيقة إلى القنصلية الألمانية حيث منح حق اللجوء. وبما أن أدراج القنصلية كانت توصل للشاطىء، فقد تمكن خالد من الصعود إلى السفينة الحربية الألمانية «سيدلر»، دون المخاطرة بالاعتقال، ونقل إلى دار السلام حيث عاش هناك منفياً.
مات خالد في مومباسا في العام ١٩٢٧ عن عمر يناهز الثالثة والخمسين.

٦

الزحف على أفريقيا

في أربعينيات القرن التاسع عشر، بدأ المبشرون والمستكشفون الأوروبيون بالمغامرة داخل مناطق شرق أفريقيا. ففي بريطانيا تشكلت جمعية تشجيع اكتشاف المناطق الداخلية من أفريقيا منذ العام ١٧٨٨، ثم اندمجت مع الجمعية الجغرافية الملكية التي ستلعب دوراً رياديًا في البحث عن منابع نهر النيل. وأثناء ذلك، أرسلت جمعية مبشري الكنيسة الإنكليكانية شخصين من الألمان، بعدما عجزت عن إيجاد متطوعين إنكليز، هما كرابف وريبمان إلى شرق أفريقيا لتنصير السكان المحليين ودعوتهم إلى المسيحية.

ففي هذه الأثناء، وفّرت زنجبار نقطة الانطلاق المعتادة للرحلات إلى داخل أفريقيا. وكان على المبشرين والمستكشفين الأوروبيين التعبير عن احترامهم وتقديرهم للسلطان سعيد الذي كان «يملك» معظم الأراضي التي سيمرّون فيها. وفي زنجبار كان هؤلاء يجهزون حملاتهم بالمؤن والحمّالين قبل الإبحار إلى باجامايو على البر الأفريقي. وقد اتبع العديد من المستكشفين الطرق نفسها التي

استخدمت لجلب العبيد. كما أنهم استخدموا تجار الرقيق كمرشدين.

في العام ١٨٤٤، وصل المبشر الألماني جوهان كرابف إلى زنجبار، ثم لحق به زميله جوهان ديبمان بعد سنتين. وقد جرى تقديم ريبمان للسلطان سعيد من قبل القنصل البريطاني هامرتون، قبل أن ينضم إلى زميله كرابف في مومباسا. لقد سافرا بعيداً عبر المناطق التي تعرف اليوم بجنوب كينيا وشمال تنزانيا. وفي أيار/ مايو ١٨٤٨، أصبح ريبمان أول أوروبي يقع نظره على جبال كيليمنجارو، وفي كانون الأول/ ديسمبر ١٨٤٩ أصبح كرابف أول أوروبي يرى جبل كينيا.

برتون، سبيك وغرانت

في هذه الأثناء، عملت تقارير المستكشفين الأوائل أمثال ريبمان وكرابف على تشجيع الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية لإرسال حملة إلى شرق أفريقيا للبحث عن منابع النيل بقيادة الملازمين (ريتشارد فرانسيس برتون وجون هاننغ سبيك).

وفي كانون الأول/ديسمبر من العام ١٨٥٦، وفي آخر أيام الحداد على السلطان سعيد، وصل برتون وسبيك إلى زنجبار، وبعد شهر أبحرا إلى باجامويو ليتبعا طريق الرقيق باتجاه بحيرة تنغانيكا التي وصلاها في كانون الثاني/ ديسمبر العام ١٨٥٨. وبعد أن أصيب برتون بالمرض تابع سبيك الرحلة وحده ليصبح أول أوروبي يرى البحيرة الكبرى التي أسماها بحيرة فكتوريا (نسبة لملكة بريطانيا) متأكداً أنها منبع نهر النيل. ثم عاد سبيك وبرتون إلى زنجبار بتاريخ آذار/ مارس ١٨٥٩ ومنها إلى لندن.

وبهدف تأكيد نظريته، عاد سبيك إلى زنجبار في العام ١٨٦٠ بصحبة المستكشف الاسكتلندي جنيس غرانت، وسافرا سوية نحو الداخل إلى بحيرة فكتوريا. بلغ سبيك الشلالات حيث يغادر نهر النيل البحيرة ودعاها شلالات ديبون نسبة لرئيس الجمعية الجغرافية الملكية.

«البرّ النتن»

في العام ١٨٦٦ وصل المبشر والمستكشف الاسكتلندي الدكتور ديفيد ليفنغستون إلى زنجبار. وكان من قبل قد سافر عبر معظم مناطق أفريقيا الوسطى والجنوبية وكتب كثيراً عن تجارة الرقيق المرعبة. والآن طلبت منه الجمعية الجغرافية الملكية توضيح نموذج الشلالات في منطقة بحيرة نياسا وبحيرة تنغانيكا وعلاقتها بمنبع النيل الأبيض.

وفي هذه الفترة فإن تنامي تجارة زنجبار وزيادة عدد سكانها قد خلقا مشاكلها الخاصة، حتى إن ليفنغستون لم يستمتع بإقامته فيها، وقال: «لا أحد يمكنه التمتع بالصحة الجيدة هنا»، ثم كتب لاحقاً: «إن الرائحة النتنة المنبعثة من ميلين مربعين من الشاطىء المكشوف الذي يشكل مستودع قذارة البلدة، شيء مرعب تماماً. في الليل يكون الوضع بالغ الفداحة لدرجة يستطيع المرء قطع شرحة من الزبل لتسميد حديقته، ويمكن إطلاق تسمية «البرّ النتن» بدلاً من اسم «البر الجميل» (زنجبار). ويدّعي زوار أوروبيون وصلوا على السفن، أنهم يستطيعون شم رائحة زنجبار قبل أن يتمكنوا من رؤيتها.

في بلدة زنجبار ذاتها، فإن ينابيع المياه العذبة لم تكن عذبة. كتب الدكتور جيمس كريستي، وهو طبيب إنكليزي وصل إلى زنجبار

عام ١٨٦٩ فقال: «احتوت الينابيع على مياه الصرف المخصصة لأكوام الروث والمقابر». ولم يكن مفاجئاً أن يؤدي ذلك إلى نوبات إسهال متكررة وانتشار أوبئة الجدري والكوليرا، كما أن أمراض مثل الملاريا والبلهارسيا كانت تمثل مشكلة كبيرة. لقد انتشر وباء الكوليرا في العامين ١٨٢١ و١٨٣٦، والجدري في العام ١٨٥٨، أما انتشار الكوليرا لاحقاً في أعوام ١٨٥٨ و١٨٦٩ ـ ١٨٧٠ فقد قتلت ١/٦ من سكان بلدة زنجبار، وأكثر من ٣٥ ألفاً من سكان الجزيرة.

ليفنغستون وستانلي

غادر ديفيد ليفنغستون زنجبار في آذار/مارس ١٨٦٦، وأدى انقطاع أخباره عن العالم الخارجي إلى تخمينات عن مكانه. في كانون الثاني/ يناير ١٨٧١، وصل الصحافي الأميركي هنري مورتون ستانلي إلى زنجبار مبعوثاً من قبل صحيفة «نيويورك تايمز» للبحث عن «المستكشف الضائع». وفي تشرين الثاني/ نوفمبر من العام نفسه وصل ستانلي إلى يوجي جي حيث وجد ليفنغستون وحيّاه بالعبارة الخالدة لغاية اليوم: «دكتور ليفنغستون، كما أفترض؟».

في هذه الأثناء، لم تتبلغ الجمعية الجغرافية الملكية في لندن خبر العثور على ليفنغستون من قبل ستانلي، ولذلك أرسلت حملة إغاثة وبحث عن ليفنغستون في شباط/ فبراير ١٨٧٢ بقيادة الملازم لوويلن داوسون إلى زنجبار على متن السفينة البخارية أبيدوس.

بعد شهرين، وصلت الحملة إلى زنجبار حيث تعرضت لإعصار استثنائي في منتصف نيسان/أبريل. تسجّل روايات تلك الفترة أن الإعصار بدأ في الحادية عشرة ليلاً واستمر حتى الواحدة والنصف

من ظهر اليوم التالي عندما توقف لمدة نصف ساعة. بعدها هبت العاصفة فجأة على الجزيرة بقوة أشد من قبل. واستمرت تهدر لفترة ثلاث ساعات أخرى. كافة السفن والمراكب الشراعية التي كانت راسية في الميناء قذفتها العاصفة على الشاطىء، ما عدا السفينة أبيدوس، مع أن سجلات تلك السفينة قد طيّرتها العاصفة. حصل دمار كبير في البلدة، وقتل العديد من الناس، واقتلع أكثر من ثلثي أشجار جوز الهند والتوابل في الجزيرة.

في أيار/مايو ١٨٧٢، وبعد مرور أسابيع قليلة على الإعصار، وصل ستانلي إلى باجامويو حيث قابل داوسون وأخبره أن ليفنغستون بخير وسيصل خلال بضعة شهور. عندها ألغى داوسون حملة البحث والإغاثة وعاد إلى لندن. لكن بنهاية العام ١٨٧٢، لم يصل ليفنغستون إلى زنجبار كما كان متوقعاً، فأرسلت حملة إغاثة ثانية في شباط/ فبراير ١٨٧٣ بقيادة الملازم فيرني لوفيت كاميرون، انطلقت من زنجبار للعثور عليه.

الشيء الذي لم يعرفه كاميرون وبقية العالم، أن حملة ليفنغستون قد طال أمدها أكثر بكثير مما كان مقرراً لها. فقد أصابه المرض وعادوته نوبات الإسهال، وفي الثاني من أيار/ مايو ١٨٧٣ توفي ليفنغستون في قرية تشيتامبو، قرب بحيرة بنغويلا (في زامبيا الحالية)، على بعد ٨٠٠ كلم جنوبي يوجي جي. حمل جثته اثنان من مرافقيه وعادا باتجاه زنجبار، وفي آب/ أغسطس ١٨٧٣ وصلا كازح حيث قابلا كاميرون وأخبراه بموت ليفنغستون.

قرر كاميرون متابعة السير حتى يوجي جي التي وصلها في شباط/ فبراير ١٨٧٤، وعثر على أوراق ليفنغستون. ومن يوجي جي، تابع كاميرون رحلته باتجاه الغرب حتى وصل أخيراً إلى ساحل الأطلسي

في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٧٥، ليصبح أول أوروبي يسافر عبر هذا الجزء من أفريقيا، من الساحل الشرقي حتى الساحل الغربي.

الزحف على أفريقيا

في العام ١٨٨٤، وصل الدكتور كارل بيترز، مؤسس جمعية الاستعمار الألماني، إلى زنجبار ثم أبحر إلى البر الأفريقي حيث عقد «اتفاقيات صداقة دائمة» مع الزعماء الأفارقة المحليين مقابل مساحات كبيرة من الأراضي. ولدى وصوله إلى كليمنجارو كان قد ضمَّ أكثر من ستة آلاف كلم مربع من الأرض التي ما زالت اسمياً تحت سيطرة السلطان برغش.

وفي الفترة ذاتها، في كانون الثاني/ يناير ١٨٨٥، سقطت الخرطوم عاصمة السودان البريطاني ـ المصري بأيدي قوات المهدي. قُتل الجنرال البريطاني غوردون، وعزل حاكم الإقليم الاستوائي جنوبي الخرطوم. كان الحاكم ألمانياً يدعى أدورد شنايتزر، رغم أنه اتخذ اسم أمين باشا وكان يعمل لصالح الإنكليز.

رأى مستشار ألمانيا بيسمارك في انتصار المهدي علامة ضعف لدى بريطانيا، واعتقد أن بإمكان ألمانيا التحرك نحو شرق أفريقيا بدون معارضة بريطانيا. وفي شباط/ فبراير من السنة ذاتها، صدر مرسوم عام في برلين وموقّع من قبل القيصر فلهم، يعلن رسمياً حماية ألمانيا على المناطق التي كان كارل بيترز قد ضمّها. لم يُبلّغ السلطان برغش رسمياً بفقدانه الأرض إلاّ في نيسان/ أبريل من العام نفسه. وكان يأمل بدعم من بريطانيا، ولكن هذه الأخيرة لم ترغب بمعاداة ألمانيا ورفضت تقديم الدعم.

في حزيران/يونيو ١٨٨٥، ادعى الألمان حماية أخرى على ويتو

ومصب نهر تانا، قرب لامو، وفي آب/ أغسطس من السنة ذاتها وصلت إلى ميناء زنجبار خمس سفن من الأسطول الألماني بقيادة كارل باسكين الذي طالب السلطان برغش الاعتراف بالمحميات الألمانية. وكان على كيرك أن يطيع تعليمات الحكومة البريطانية القاضية بإقناع السلطان برغش بالخضوع للمطلب الألماني.

بعد انقضاء أيام قليلة على وصول الأسطول الألماني إلى الميناء، وصلت سفينة ألمانية أخرى تنقل على متنها شقيقة برغش، سالمة (التي هربت إلى ألمانيا مع عشيقها الألماني العام ١٨٦٦)، مع ابنها سعيد ـ رودلف البالغ ستة عشر عاماً، وطفلين آخرين. اعتقد كيرك بأن الألمان سيقترحون سعيد رودلف كسلطان، وإذا قام السلطان برغش باعتقاله أو اعتقال سالمة، وهما الآن مواطنان ألمانيان، فإن هذه الخطوة ستبرر إعلان الألمان الحرب على زنجبار. هكذا، وبعد نصيحة كيرك، تسامح السلطان برغش مع وجود سالمة ولم يعتقلها، لكنه لم يقابلها أو يستضيفها.

أرسل السلطان برغش اعترافه الرسمي بالحماية الألمانية إلى كارل باسكين، وبعد شهرين، ورداً على التصرف الألماني مهدت الحكومة البريطانية لتشكيل لجنة مشتركة من بريطانيا وألمانيا وفرنسا لتحديد حدود مناطق كل منهم على البر الأفريقي، وهي مناطق كانت ما تزال «تخص» سلطان زنجبار.

الألمان

بعد مفاوضات طويلة، تمّ توقيع الاتفاقية البريطانية ـ الألمانية الأولى من قبل ألمانيا وبريطانيا في أواخر العام ١٨٨٦. تقلصت أراضي السلطان برغش واقتصرت على زنجبار، بيمبا، مافيا، لامو وشريط

ساحلي بعرض عشرة أميال يمتد ١٢٠٠ كلم من نهر تانا، قرب لامو إلى نهر روفوما، قرب رأس ديلفادو. أما بقية الأراضي التي تقع شرقي بحيرة فكتوريا وبحيرة تنغانيكا، فقد قسّمت بين بريطانيا وألمانيا. أخذت بريطانيا القسم الشمالي، بين نهري تانا وأومبا، الذي أصبح أفريقيا الشرقية البريطانية، ولاحقاً كينيا. وأخذت ألمانيا القسم الجنوبي بين نهري أومبا وروفوما، الذي أصبح أفريقيا الشرقية الألمانية، ولاحقاً تنغانيكا وعاصمتها دار السلام. في البداية تقرر أن يكون كيليمنجارو ضمن القسم البريطاني، لكنه «أُعطي» للأمبراطور الألماني بناء على طلبه المباشر.

لم يكن لدى السلطان برغش أي خيار آخر سوى الموافقة على الاتفاقية في كانون الأول/ ديسمبر ١٨٨٦، وبعد بضعة أيام وقّعتها الحكومة الفرنسية. في حزيران/ يونيو ١٨٨٧ أجّر برغش الجزء الشمالي من شريطه الساحلي (بين نهري تانا وأومبا) لجمعية شرق أفريقيا البريطانية التي أسسها وليم ماكينون في أيار/ مايو من السنة ذاتها. أثناء ذلك التقى الألمان والبرتغاليون بغياب برغش لكي يناقشا حدودهما، وقد كسبت البرتغال المزيد من أراضي برغش في الجنوب.

رجع كارل بيترز إلى زنجبار في آذار/مارس ١٨٨٩ كرئيس لحملة إغاثة أمين باشا الألمانية، لإنقاذ مواطنيه الذين عزلوا وحوصروا في أفريقيا الاستوائية من قبل قوات المهدي السودانية في العام ١٨٨٥. وتحت غطاء هذه الحملة، خطط كارل بيترز للسفر إلى الداخل، منطلقاً من المقاطعة الألمانية ويتو (قرب لامو)، شمالي المنطقة البريطانية، بهدف الاستيلاء على أوغندا لصالح ألمانيا. وفي آب/ أغسطس من السنة ذاتها، أرسلت شركة شرق أفريقيا البريطانية

الأمبريالية حملة إلى الداخل بقيادة السير فريدرك جاكسون من أجل الاتصال بأمين باشا أيضاً.

في هذه الأثناء، وبمعزل عن الحملات الألمانية والبريطانية ودون علمها، استطاع هنري ستانلي (الذي كان غادر زنجبار على رأس حملة إغاثة خاصة به العام ١٨٨٧) العثور على أمين باشا على الشاطىء الغربي لبحيرة ألبرت في نيسان/ أبريل ١٨٨٨.

في هذه الأثناء، دخل كارل بيترز أوغندا في شباط/ فبراير ١٨٩٠ وادعى أن المنطقة لألمانيا، سابقاً بذلك السير فريدريك جاكسون الإنكليزي. غير أن بريطانيا لم تكن سعيدة بمطالب ألمانيا، فقد أدرك السياسي البريطاني لورو روبرت ساليسبوري أن السيطرة على النيل الأعلى ستؤدي، بشكل غير مباشر، إلى السيطرة على قناة السويس. وبالتالي على طريق التجارة للهند. ولذلك، تم إقناع ألمانيا بالتخلي عن مطالبها في أوغندا مقابل الدعم البريطاني للقيصر ضد فرنسا وروسيا.

حسب الاتفاقية البريطانية ـ الألمانية الثانية (اتفاقية زنجبار) التي عقدت في أول تموز/ يوليو ١٨٩٠، وافقت ألمانيا على الاعتراف بالحماية البريطانية على سلطنة زنجبار، وعلى أن تتخلى عن أي مطلب في ويتو والمنطقة الداخلية حتى النيل الأعلى. كما تخلت ألمانيا عن أي مطلب بغرب بحيرة نياسا لكن بالمقابل، كسبت السيادة على ساحل شرق أفريقيا الألماني الذي أصبح لاحقاً تنغانيكا. ثم استكمل خط الحدود البريطاني ـ الألماني باتجاه الغرب عبر بحيرة فكتوريا حتى حدود الكونغو البلجيكي، وبذلك تمّ ضمان أوغندا لبريطانيا. وانتزع الشريط الساحلي البريطاني (الذي ما زال يخص سلطان زنجبار) من سيطرة شركة شرق أفريقيا

البريطانية ليتبع إدارة محمية شرق أفريقيا البريطانية التي ستصبح لاحقاً كينيا وأوغندا.

ومقابل هذه الآلاف من الأميال المربعة من مناطق شرق أفريقيا، بما فيها جزر زنجبار (أونفوجا وبيمبا)، حصلت ألمانيا أيضاً على هيليفولند، وهي جزيرة صغيرة بعيدة عن الساحل الألماني وتقع قرب مدخل قنال كييل. وهذه كانت ذات أهمية استراتيجية بالنسبة لألمانيا، لكن كارل بيترز كان منزعجاً وكتب، «لقد تمت مقايضة مملكتين بمغطس حمام في بحر الشمال».

خلال الحرب العالمية الأولى، خاض الجيشان الألماني والبريطاني مع جنودهما الإلزاميين الأفارقة، عدة حملات عسكرية على البر. لم تتأثر زنجبار بالحرب مباشرة، إلاّ في حادث واحد عندما قصفت السفينة البريطانية بيفاسوس وأغرقت بواسطة السفينة الألمانية كوننفسبرج في ميناء بلدة زنجبار. (القبور التي تشير إلى جثث البحارة الذين قتلوا في هذا الحادث، لاتزال رؤيتها ممكنة حتى اليوم على «جزيرة المقبرة»).

وفي العام ١٩١٧، قبل قليل من نهاية الحرب، تمكن الجيش البريطاني من طرد الألمان خارج منطقتهم ودخلوا دار السلام. كان خالد، الذي حاول الاستيلاء على عرش زنجبار خلال «أقصر حرب في التاريخ» العام ١٨٩٦، ما زال هنا، فقبض عليه، ونفي إلى جزر سيشل، ثم سمح له بالعودة إلى مومباسا في العام ١٩٢٥ حيث عاش بهدوء حتى العام ١٩٢٧.

بعد الحرب، صارت بريطانيا تدير إقليم شرق أفريقيا الألماني بموجب تفويض من عصبة الأمم، وبات يعرف باسم تنغانيكا.

لاحقاً، في العام ١٩٢٠ أصبحت محمية شرق أفريقيا البريطانية تعرف باسم مستعمرة كينيا.

خلال الحرب العالمية الثانية، لم تتورط زنجبار في أي من الأعمال العسكرية، وأبرز تأثيرات الحرب كان عرقلة نقل المؤن من الأرز، وهو غذاء رئيسي للشعوب الآسيوية والأفريقية، الذي كان لغاية ذلك الوقت يستورد من بورما.

ديفيد ليفنغستون

ولد ديفيد ليفنغستون في ١٩ آذار/مارس ١٨١٣ في قرية بلانتاير قرب غلاسكو، اسكتلندا. سنة ١٨٤١ ذهب إلى جنوب أفريقيا كطبيب مبشّر، وهناك تزوج ماري موفات ابنة أحد المبشرين. في رحلاته الأولى عبر صحراء كالاهاري، وفي تشرين الثاني ١٨٥٥ أصبح أول أوروبي يرى شلالات («الدخان الذي يصدر منه الرعد»، حسب تسمية المحليين)، فأعاد تسميتها بشلالات فكتوريا. قام ليفنغستون برحلته الرئيسية الرابعة بين سنتي ١٨٥٨ ـ ١٨٦٤ في منطقة حول الزامبيزي الأسفل وبحيرة نياسا (حالياً بحرية مالاوي). وكان برفقته اسكتلندي آخر اسمه جون كيرك انضم للرحلة كضابط طبي وعالم طبيعة. بعد انتهاء الرحلة في نيسان/ أبريل ١٨٦٤، أمضى ليفنغستون أسبوعاً في زنجبار قبل أن يعود إلى بريطانيا.

العام ١٨٦٦، رجع ليفنغستون إلى زنجبار بعد أن كلفته الجمعية الجغرافية الملكية باستكشاف المنطقة بين بحيرة نياسا وبحيرة تنغانيكا، وبحسم الخلاف حول موقع منبع نهر النيل. انطلق من زنجبار إلى البر الأفريقي في ١٩ آذار/ مارس ١٨٦٦، وسافر حول الطرف الجنوبي لبحيرة نياسا.

بعد قضاء عدة سنوات في أعمال الاستكشاف في الإقليم، لم يصل خلالها إلاّ القليل من أخباره إلى العالم الخارجي فظن الكثيرون في أوروبا أنه مات، التقى ليفنغستون بالصحافي الأميركي، الويلزي المولد، هنري ستانلي في يوجي جي عند بحيرة تنغانيكا، في ١٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٧١.

عانى ليفنغستون من قروح في قدميه ومن الحمى والإسهال، ولم

يبق معه إلاّ القليل من القماش القطني الذي يبادل به الطعام. لكن بعد أسبوعين استعاد قوته لينطلق في حملة صغيرة مع ستانلي، فاستكشفا الشواطىء الشمالية لبحيرة تنغانيكا، وأثبتا أن نهر روزيزي يصب في البحيرة، ولا يخرج منها كما كان معروفاً. غادر الاثنان يوجي جي في ٢٧ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٧١ ووصلا إلى كازح، التي تقع في منتصف الطريق إلى الساحل، في شباط/ فبراير من السنة التالية. كان ليفنغستون بصحة جيدة، ولذلك تابع ستانلي الطريق وحده فوصل إلى زنجبار في أيار/ مايو ١٨٧١.
مكث ليفنغستون في كازح حتى آب/أغسطس ١٨٧٢، ثم انطلق في رحلة قصيرة حول الشواطىء الجنوبية لبحيرة تنغانيكا، وكان مازال يفتش عن منبع نهر النيل عندما مرض ثانية بالإسهال. توفي في قرية تشيتامبو، على بعد أميال قليلة جنوب بحرية بانغويلو، في زامبيا حالياً، في الثاني من أيار/ مايو ١٨٧٣. وقام اثنان من مرافقيه المخلصين، سوسي وشوما، بنزع قلبه ودفنه تحت شجرة في مكان موته. ثم قاما بتجفيف جسده تحت الشمس لمدة أسبوعين، وحملاه إلى زنجبار وهو مغطى بالقماش ولحاء الشجر، حيث تم التعرف على جثته من خلال عظمة مكسورة في ذراعه اليسرى، كانت قد تحطمت في السابق بين فكي أسد. أبقيت جثة ليفنغستون في القنصلية البريطانية قبل نقلها إلى لندن لتدفن هناك. كان ستانلي وكيرك من بين حملة النعش أثناء جنازته في وستمينستر آبي في الثامن عشر من نيسان/ أبريل ١٨٧٤.

هنري مورتون ستانلي

إن الرجل المعروف في العالم بهنري مورتون ستانلي، ولد باسم جون رولند في التاسع والعشرين من كانون الثاني/ يناير العام ١٨٤١ في دينبغ، من مقاطعة ويلز. أمضى تسع سنوات في إصلاحية للأحداث، وسنتين كعامل مزرعة، قبل أن يلتحق بسفينة من ليفربول إلى نيو أورليانز التي وصلها العام ١٨٥٨. وفي نيو أورليانز تبناه رب عمله، تاجر قطن، وأعطاه اسمه: هنري ستانلي. «مورتون» أضيف لاحقاً.

وفي سنة ١٨٦٩ أصبح ستانلي مراسل جريدة «نيويورك هيرالد» التي أرسله مديرها، جيمس غوردون بينيت، إلى أفريقيا لتغطية تدشين قناة السويس، ثم العثور على ليفنغستون إذا كان حياً، أو إرجاع عظامه إذا كان ميتاً.

وصل ستانلي إلى زنجبار في ٦ كانون الثاني/يناير ١٨٧١، واستعار قبعة رسمية من القنصل الأميركي، جون فرانسيس ويب، وذهب لزيارة السلطان برغش الذي زوّده برسائل توصية إلى عملائه في الداخل. انطلق ستانلي من زنجبار في آذار/ مارس من تلك السنة، قبل بدء موسم الشتاء بيومين، حاملاً معه قماش أميركي وخرز زجاجي ومرجان صيني للتجارة، إضافة إلى كأسين من الفضة وزجاجة من الشمبانيا من أجل اليوم الذي سيقابل فيه ليفنغستون.

أخيراً، قابل ستانلي ليفنغستون في «يوجي جي» في ١٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٧١، وعاد إلى زنجبار في ٧ أيار/ مايو ١٨٧٢، قبل أن يسافر إلى لندن.

تخلى ستانلي عن الصحافة ليعود إلى أفريقيا كمستكشف، ووصل

إلى زنجبار ثانية في أيلول/ سبتمبر ١٨٧٤ ليغادرها إلى البر الأفريقي في تشرين الثاني/ نوفمبر. في رحلته هذه دار ستانلي حول شاطىء بحيرة فكتوريا الجنوبي، وسار عبر أوغندا حالياً، وتتبع نهر الكونغو عبر (زائير حالياً) حتى المحيط الأطلسي الذي وصله في ١٢ آب/ أغسطس ١٨٧٧، وبذلك يكون قطع أفريقيا في ٩٩٩ يوماً.

من سنة ١٨٧٩ ولغاية ١٨٨٤، رجع ستانلي إلى الكونغو عاملاً لحساب ليوبولد الثاني ملك بلجيكا، فأسس «دولة الكونغو الحرة» وحكمها، وحملت بلدة ستانليفيل اسمه (الآن كيسانغاني).

وبعد رحلة أخرى استمرت من العام ١٨٨٧ إلى العام ١٨٨٩، عاد ستانلي إلى بريطانيا رجلاً مشهوراً. تزوج في كنيسة «وستمينستر آبي» العام ١٨٩٠، وانتخب للبرلمان كنائب ليبرالي عن شمال لامبيث في لندن العام ١٨٩٥، ثم أعطي لقب فارس العام ١٨٩٩. توفي في لندن في العاشر من أيار/ مايو العام ١٩٠٤.

ليام لويد ماثيوز

كان ماثيوز ويلزياً ولد في ماديرا العام ١٨٥٠. انضم للأسطول البريطاني العام ١٨٦٤، ومنذ العام ١٨٧٠ خدم على السفينة لندن التي كانت تقوم بدوريات لمطاردة مراكب تجار العبيد. في آب/ أغسطس ١٨٧٧ أوصى به الأسطول وعين لقيادة وتنظيم جيش على الطراز الأوروبي للسلطان برغش الذي كان يريد تعزيز سلطته في الداخل. لغاية هذا الوقت، كان جيش السلطان يتشكل من العرب والفرس لا غير، أما الجيش الجديد فقد ضم في صفوفه ٥٠٠ من الأفارقة بلباس رسمي يتألف من قبعة حمراء وسترة سوداء وبنطلون أبيض. أما الضباط العرب فكان لباسهم عبارة عن سترة طويلة زرقاء داكنة وبنطلون مع بريم ذهبي أو فضي، وربما كان هذا اللباس تقليداً لزي الأسطول الملكي البريطاني. منحت الحكومة البريطانية ٥٠٠ بندقية لجيش برغش، وبحلول بداية الثمانينيات، كان هناك حوالى ١٣٠٠ رجل تحت قيادة ماثيوز.

كانت إحدى مهام الجيش الجديد الأولى وقف تهريب العبيد بين جزيرة بيمبا وبانغاني على البر الأفريقي، ولقد أحرز الجيش نجاحات في مهمته وألقى القبض على العديد من مهربي العبيد وعرقل التجارة الممنوعة. سرّح ماثيوز من الأسطول البريطاني وأصبح العميد ماثيوز، رئيس أركان جيش زنجبار.

في ذلك الوقت، كان أبرز تجار العبيد يدعى هندي بن حاتم الذي أسر مركبه من قبل إحدى سفن الأسطول بقيادة الكابتن براون ريغ بين زنجبار وبيمبا. وجد براون ريغ حوالى مائة عبد على مركب هندي بن حاتم، وقبل القيام بأي خطوة قتل رجال هندي الكابتن ومعظم بحارته الإنكليز وأبحروا بعيداً. إلاّ أن الجنرال

ماثيوز طارد هندي بن حاكم حتى «ويت» في بيمبا وألقى القبض عليه بعد معركة بين الفريقين. توفي هندي بن حاتم لاحقاً متأثراً بجروحه، ودفن براون ريغ في مقبرة الجزيرة.

سنة ١٨٩١، وعندما تشكلت حكومة دستورية في زنجبار، عيّن الجنرال السير لويد ماثيوز رئيس وزراء السلطان، ومنح لقب فارس في ٣ آذار/ مارس ١٨٩٤. وفي ١١ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٠١ توفي السير لويد ماثيوز بالملاريا في زنجبار، وكان عمره ٥١ سنة. دفن حسب كافة المراسم العسكرية، في المقبرة الإنكليزية خارج بلدة زنجبار.

الحمّالون

منذ أيام المستكشفين الأوائل في القرن التاسع عشر وحتى بناء الطرق وسكة الحديد، كان استخدام الحمالين حيوياً لاكتشاف شرق أفريقيا. فلقد اعتمد المستكشفون والمبشرون والتجار في رحلاتهم إلى داخل أفريقيا على الحمّالين كوسيلة وحيدة للنقل، وفي الحقيقة فإن رحلات الداخل اعتمدت بشكل أساسي على صحة وقوة الحمّالين وجدارتهم بالتعويل عليهم. إذ إن استخدام حيوانات الجرّ كان مستحيلاً بسبب انتشار ذباب تسي تسي.

قدم الحمّالون من قبائل عديدة مختلفة، لكن بالمعنى العريض للكلمة فقد كانت هناك مجموعتان رئيسيتان. الأولى، هي مجموعة نيامويزي/ سوكوما التي عادة ما تكون مقرونة بهذين الاسمين نظراً لكون الثقافة واللغة متشابهتين كثيراً عندهما. والمجموعة الثانية هم الحمالون الزنجباريون/ السواحليون. الحمّالون الزنجباريون هم عادة الرجال الذين سافروا في رحلة إلى الساحل ثم عادوا، أما السواحليون فكانوا عادة رجال مسلمون من الشريط الساحلي.

اعتبر حمالو نياموزي/سوكوما أفضل من غيرهم، وشكلوا على مدى سنوات عديدة عماد تجارة القوافل. كانوا شعباً مخلصاً وبريئاً مولعين بالموسيقى وينشدون الأغاني أثناء مسيرهم. كانوا ينقلون أحمالهم على كتف واحدة (على عكس الحمالين الزنجباريين/ السواحليين الذين كانوا ينقلون الأحمال على رؤوسهم)، وقد قيل عنهم إنه بوصولهم إلى مكان ما حيث يقضون الليل، كانوا يجهدون لإراحة أنفسهم، فيقيمون مآوي ويجمعون الأعشاب ليناموا عليها، بينما كان الزنجباريون/ السواحليون أقل اهتماماً براحتهم الخاصة في نهاية نهار من السير، ويعود هذا حسب بعض المراقبين، إلى كسلهم.

لم تكن المجموعتان المذكورتان الوحيدتين في مجال تعهدات نقل الأحمال، فقد وجدت مجموعات أخرى من بينها رجال من مناطق حول رابسي قرب مومباسا في كينيا. كان هؤلاء عبيداً سابقين وجدوا في نقل الأحمال عملاً مربحاً. وعلى أي حال، فقد كان يقال إنهم أسوأ أنواع الحمّالين ـ لديهم إحساس ضئيل بالالتزام بتنفيذ العقد، يأخذون أجرتهم مقدماً ولكنهم عادة ما يفرّون ومعروف عنهم أنهم يتذمرون طيلة الرحلة.

كان حمّالو أوغندا هم الأفضل، فلقد نقلوا أحمالاً أثقل وتحمّلوا مصاعب الرحلات الأطول محافظين على روحهم المرحة أكثر من باقي المجموعات.

تنوعت الأحمال التي كان ينقلها الحمّالون كثيراً، فحوالى العام ١٨٧٥ وجدت أمثلة معروفة، وهي أن ناب الفيل العاجي الذي يزن ٥٥ كلغ يحمله رجل واحد، كان هذا استثنائياً، وعادة ما يشارك رجلان في حمله. منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى زمن الحرب العالمية الأولى، كان حمل الرجل الواحد يتراوح بين ٢٣ و٣٠ كلغ، رغم أن هذا الوزن يمكن أن يكون أكبر لدى عبور مناطق غنية بالأغذية الجيدة حيث يصبح بالإمكان زيادة حصص الطعام للحمالين. في الحرب العالمية الأولى، كان الحمل في فرقة البنادق الأفريقية الملكية لا يزيد عن ٢٠ كلغ للرجل الواحد، وفي القوات الألمانية كان حوالي ٢٧ كلغ. وإضافة إلى هذا الوزن كان على الحمال أن ينقل أيضاً ممتلكاته الخاصة وتموينه.

عندما كان يأتي وقت اختيار الحمّالين، كان اختيار رئيس الحمّالين هو الأهم لنجاح الرحلة، إذ كان عليه الإشراف على الحمالين والحفاظ على معنويات القافلة أثناء المصاعب. وفي حال مرض أحد الحمالين، كان من واجب الرئيس نقل الحمل الزائد، وغالباً ما يقود رئيس الحمالين الغناء ويحدد موعد سير الحمالين. ثم كان

يتم اختيار الحمالين الآخرين، يليه التفاوض على الشروط. ثم الفحص الطبي لاختيار الرجال الأكثر ملاءمة. كانوا عادة يأخذون أجرة شهرين مقدّماً، وذلك يعتمد على طول الرحلة.

كان الروتين الذي تتبعه معظم القوافل متشابهاً إلى حد كبير، فعند الفجر كان يقرع الجرس أو ينفخ البوق لإيقاظ المخيم. أحياناً كان يجري فحص طبي لمعالجة الأمراض الثانوية، ثم يبدأ الحمالون بجمع أحمالهم، دون تناول أي طعام أو شراب. وعادة ما يتناول مستخدم الحمالين كوباً من الشاي أثناء حزم خيمته، وبعد ذلك يصدر أمر التحرك. وأثناء المسير يقوم الرجال بالغناء، بقيادة رئيس الحمالين، أو يثرثرون فيما بينهم. بعد ساعتين يتناول قائد الرحلة إفطاراً خفيفاً، لكن الحمالين يتابعون الرحلة. يبدو أنه لا يمكن تصديق أن هؤلاء لديهم القوة للسير عدة ساعات دون أي طعام وهم ينقلون أحمالاً كبيرة، لكن يبدو أن ذلك كان ممارسة عامة. تتوقف القافلة حوالى الساعة العاشرة صباحاً، وإذا أمكن قرب الماء، بعد أنا تكون قد قطعت ٢٥ كلم، بمعدل خمسة كيلومترات بالساعة، قبل حلول درجة حرارة النهار القصوى. ثم يقيمون المخيم لقضاء الليل، ليتناول الحمّالون، أخيراً، شيئاً للأكل.

ليس هناك أدنى شك بأن طرق التجارة ما كان يمكن أن تكون معروفة بدون الحمالين الذين لا يمكن التقليل من أهميتهم. كان مستخدمو الحمالين يمتدحونهم ويعاملونهم معاملة حسنة. كما أن تأثير وظيفة العتالة على قرى الحمالين كان هاماً، إذ إن غياب الرجال الأصحاء خلال موسم الحصاد كان يعوّض جزئياً بأجور هؤلاء الرجال وبالبضائع التي اشتروها. إن مرور قافلة كبيرة في منطقة ما يمكن أن يزيد الطلب على المواد الغذائية، الأمر الذي مهد لنشوء أسواق محلية. لم تختف الحاجة للرحلات الراجلة إلاّ مع قدوم سكة الحديد والعربات ذات المحركات.

حكاية
زنجبار الحضارية



٧

السواحيلية
لغة العرب والفرس والأفارقة

لا شك أن العصر الذهبي للوجود العُماني العربي في شرق أفريقيا هو عصر البوسعيديين حيث المؤثرات الحضارية عربياً وإسلامياً في قمة تألقها. ويعتبر عهد السلطان السيد سعيد بن سلطان (١٨٠٤ ـ ١٨٥٦) نموذجاً رائعاً لازدهار الحضارة العربية التي أسهمت في ترقية وإثراء شتى نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في أفريقيا. لقد كان للسلطان سعيد أبعد الأثر في إرساء وتعميق مفاهيم الحكم العربي الإسلامي.

تجلت كفاءة السلطان سعيد السياسية والإدارية حينما اختار زنجبار في العام ١٨٣٣ لتكون عاصمة لشرق أفريقيا، حيث نجح في تطويرها من جزيرة متواضعة لتكون حاضرة ومركز إشعاع سياسي واقتصادي لشرق أفريقيا وأواسط أفريقيا قاطبة. واستطاع العمانيون ترسيخ حكمهم في أفريقيا الذي امتد من مقديشيو شمالاً وحتى رأس دلغادو في جنوب الساحل الشرقي. كما امتد في الاتجاه الشمالي الغربي حتى بوغندا وغرباً حتى أعالي الكونغو.

لقد كان لنفوذ الدولة العربية العُمانية في شرق وأواسط أفريقيا صدى على المستوى العالمي، وخصوصاً في مجال السياسة الخارجية والنشاط الديبلوماسي المكثف الذي شهدته هذه المنطقة لأول مرة في تاريخها، والذي امتد إلى إنكلترا وألمانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأميركية. وكانت رحلة السفينة «سلطانة» للولايات المتحدة الأميركية في العام ١٨٤٠ بمثابة البدايات المبكرة للعلاقات العربية ـ الأميركية حيث حظيت باهتمام تجاري وديبلوماسي.

الحكم

لقد تميز حكم الأسرة البوسعيدية في شرق أفريقيا بعدة خصائص، من أهمها الاستعانة بعدد كبير من المستشارين والعلماء في كافة الميادين، حيث أوكل إليهم مهمة تسيير العمل الحكومي. والحقيقة أن كثيراً من القيم الحضارية قد سادت المجتمع الأفريقي بفضل هجرات كثير من العلماء والفقهاء الذين استقروا في المجتمع الأفريقي. وكانت علاقة هؤلاء العلماء بالحكام البوسعيديين من أهم المؤثرات التي أكسبتهم قدراً كبيراً من الشرعية بحكم تأثير هؤلاء العلماء في المجتمع الأفريقي.

ونتيجة لهذه السياسة فقد ساد جو من الألفة والتجانس والصلات الوثيقة بين كافة الأوساط الاجتماعية، وخصوصاً بين العلماء والفقهاء من الإباضية والسنّة، على الرغم من أن المذهب الأباضي هو المذهب الرسمي للدولة. لذلك كان من الطبيعي أن يكون بعض قضاة السلطان سعيد من السنّة وبعضهم من الإباضية.

القبائل

لقد نجح البوسعيديون في جمع كلمة القبائل العربية في شرق أفريقيا والقضاء على المنازعات والمشاحنات القبلية القديمة، وذلك بإشراك القبائل واستشارتهم في مهام الدولة ومشاكلها سواء في عمان أو في زنجبار وملحقاتها.

ومن بين القوى العربية ذات التأثير الكبير في زنجبار وشرق أفريقيا، العرب اليمنيون من حضرموت الذين استقروا في زنجبار وانخرطوا في خدمة الدولة العُمانية. والحضارمة هم من أولى الجماعات العربية التي استقرت واستوطنت زنجبار. ومما ضاعف من أهميتهم أنهم كانوا على علاقات مصاهرة مع حكام زنجبار السابقين «المويني مكو».

المجالس

لقد تجلت مظاهر الشورى خلال عصر الأسرة البوسعيدية في شرق أفريقيا في ما عرف بالمجالس السلطانية، التي كان يعقدها الحكام البوسعيديون للاطلاع على مشاكل الرعية ولسماع رأي المستشارين في ما يتعلق بمصالح الدولة. وكان لكل فرد حق حضور هذه المجالس التي كانت تعقد في البلاط السلطاني. وكانت هذه المجالس تعقد في يومي الجمعة والاثنين من كل أسبوع على فترتين، الأولى في الساعة التاسعة صباحاً والثانية عقب صلاة العصر. وكانت هناك حرية تامة في الكلام. وعندما تنتهي الجلسة ينهض الحاكم فيقف الجميع ويستأذنونه في الانصراف. ويبقى في القاعة كل من يريد رؤية الحاكم لأمر ما، حتى يستدعي الواحد بعد الآخر لمقابلته مقابلة خاصة.

الاقتصاد

كان النشاط الاقتصادي في شرق أفريقيا من الأهداف الأساسية الهامة لحكّام زنجبار وتوابعها في شرق أفريقيا، وخصوصاً منذ عهد السلطان سعيد الذي حرص على أن يأخذ التجار الهنود إلى زنجبار من الذين كانوا يساهمون بنشاط وافر في تجارة مسقط.

وكان التجار الهنود قد حققوا نمواً اقتصادياً عالياً في عهد السلطان سعيد الذي استعان بهم واستخدم الأكفاء منهم في الأعمال الاقتصادية والإدارية. وكانت مراكزهم ومؤسساتهم التجارية تمتد حتى موزمبيق ومدغشقر وجزر القمر. ويبدو أن الهنود قد مارسوا عمليات الربا بشكل واسع، أضرَّ باقتصاد شرق أفريقيا حيث كثر عددهم وأخذوا يستولون على الممتلكات عن طريق الرهن أو الشراء. وزاد عددهم في عهدالسلطان سعيد حتى وصل إلى أربعة آلاف نسمة، مما دفع السلطان إلى أن يستقدم من عمان المئات من التجار الذين لديهم خبرة بأعمال التجارة، لوضع حد لتسلط التجار الهنود، وخلق توازن عربي في الجزيرة. ونجح بعضهم نجاحاً كبيراً ولم يكتفوا بالاستيطان على السواحل وإنما امتد نشاطهم إلى داخل أفريقيا.

وكانت جهود العُمانيين واضحة في المجال الاقتصادي وخصوصاً في عهد السلطان سعيد، الذي وضع نظاماً ضرائبياً كان معمولاً به في مسقط وحقق نجاحاً كبيراً وخصوصاً في ما يتعلق بالنظام الجمركي، حيث كانت الضريبة المفروضة على الواردات التي تأتي إلى الموانيء الأفريقية لا تتجاوز ٥ بالمائة في حين أعفيت الصادرات من الضرائب. وكان الهدف من تلك السياسة تنشيط حركة

التجارة عن طريق فرض أقل المكوس وأهونها على التجارة الخارجية.

وقد أدرك السلطان سعيد أهمية تسهيل عمليات التبادل التجاري. لذا فقد وضع نظاماً بسيطاً للنقد وخصوصاً عندما وجد أن النقد المتبادل في زنجبار هو الريالات الألمانية والنمساوية (ماريا تيريزا) والإسبانية. ورغبة منه في تسهيل عمليات التبادل التجاري استحدث نظاماً نقدياً جديداً يحل محل تلك العملات.

وتضاعف سكان زنجبار في عهد السلطان سعيد، وخلال عشرين عاماً قضاها في زنجبار استطاع أن يجعل منها واحدة من ثلاثة أو أربعة مراكز رئيسية للتجارة في المياه الغربية للمحيط الهندي، ضاعفت من عائداتها الاقتصادية عشرات المرات.

المجتمع

على الرغم من التنوع والتعدد في الأصول العرقية والعادات والتقاليد واللغات التي تشكل المجموعات المكونة لمجتمع زنجبار وشرق أفريقيا في القرن التاسع عشر، إلاّ أنه نتيجة للتجانس الديني والحضاري الذي عمّ هذه المنطقة في ظل الدولة العربية العُمانية الإسلامية، فقد اكتسب المجتمع الجديد الكثير من سمات التمازج والانصهار. وقد كان هذا من الأسباب الأساسية التي دفعت الأفارقة للاستجابة العفوية الإيجابية للإسلام، خاصة في المجتمعات التي ارتادها العُمانيون في منطقة الظهير الأفريقي. وقد أشار رحالة إنكليزي منذ أكثر من مائة سنة إلى هذه الظاهرة التي استرعت انتباهه في المجتمعات الأفريقية حيث قال:

«... كيفما كانوا، وحيثما ذهبوا، فإن الدعاة المسلمين أظهروا رفقاً

وتعاطفاً واحتراماً للعادات والعصبيات المحلية(...) الشيء الذي كان ـ دون ريب ـ أحد أسباب نجاحهم، والذي يحسن بمبشرينا الكنسيين ومعلمينا المسيحيين أن يقلدوه»[1].

السكان

تتكون المجموعات السكانية الرئيسية في زنجبار من الأفارقة والعرب والآسيويين الهنود، وإلى جانب هذه المجموعات هناك بعض القمريين (من جزر القمر) والصوماليين والنوبيين والصينيين وغيرهم. ويوضح آخر إحصاء أوردته المصادر الرسمية للسكان في زنجبار وجزيرة بيمبا العام ١٩٥٨ أن عدد السكان قد بلغ ٦٤٠ ألف نسمة (زنجبار ٣٧٥ ألف وبيمبا ٢٦٥ ألف) موزعة على النحو التالي[2]:

- ☐ الأفارقة الأصليون ـ ٥٦,٣ بالمائة.
- ☐ الأفارقة من البر ـ ١٩,٤ بالمائة.
- ☐ العرب ـ ١٦,٠٩ بالمائة.
- ☐ الآسيويون والهنود ـ ٥,٨ بالمائة.
- ☐ القمريون (من جزر القمر) ١,١ بالمائة.
- ☐ الأوربيون والصينيون ـ ٠,٥ بالمائة.

وقد كان أكثر العرب المهاجرين من عُمان إلى جزيرة زنجبار في فترة السلطان سعيد، من قبيلة الحرث، ممن أسهموا في ترقية الحياة الاجتماعية في هذه الجزيرة. إلى جانب العديد من القبائل العمانية، التي هاجرت قبل هذه الفترة وبعدها.

أما المجموعات الأفريقية في التركيب الاجتماعي في جزيرة زنجبار

فأهمها تلك المجموعة التي تطلق على نفسها اسم الشيرازيين، وهي تنقسم إلى قسمين: المخاديم والتمباتو، وهم بمثابة السكان الأصليين في الجزيرة. ومن الناحية الاجتماعية، فهم أقرب إلى العرب في العادات والتقاليد وأكثر ميلاً لهم وذلك بفضل تمسكهم بالإسلام. وما يؤكد هذا التقارب بين الفئتين كثرة التزاوج والمصاهرة بين العرب والشيرازيين.

هناك أيضاً المجموعات السكانية الأفريقية الأخرى الوافدة من داخل القارة وهم يمثلون معظم القبائل الأفريقية الساحلية والداخلية تقريباً. وفدت هذه القبائل إلى جزيرتي زنجبار وبيمبا في أعداد كبيرة للعمل في مزارع كبش القرنفل منذ أن تمّ التوسع في زراعته في القرن التاسع عشر. وقد ارتبط البعض الآخر بالعمل في نقل البضائع والسلع في فترة تجارة القوافل. إلاّ أن ارتباطهم بالزراعة والأرض كان أكثر من التجارة، مما أدى إلى استقرارهم نهائياً في الجزيرتين.

اللباس

ومن الآثار الاجتماعية البعيدة المدى للوجود العُماني في المناطق التي أصبحت خاضعة لسلطة البوسعيديين في شرق وأواسط أفريقيا، الدور المتميز الذي قاموا به في نشر العادات التي تتعلق بالملابس والأزياء. فالمجتمعات الأفريقية لم تقتدِ بهم في العقيدة واللغة فحسب، بل قلدتهم في ملبسهم وأزيائهم. فلم يعد أفراد القبائل الأفريقية يرتضون العري بل لجأوا إلى ارتداء الملابس العربية البيضاء الفضفاضة الطويلة ووضعوا العمائم على رؤوسهم.

ومما لا شك فيه أن الأثر العربي قد انعكس جلياً على أزياء الرجال

والنساء على حد سواء. فبالنسبة لملابس الرجال نجد أن (الكنزو) يمثل الزي المميز للرجال في المجتمع السواحيلي والمجتمعات الأفريقية في االداخل. وهو عبارة عن الثوب العربي الذي يتدلى إلى الأقدام وإلى مرفق اليدين وغالباً ما يكون من قماش أبيض (وهو الثوب العُماني ـ الخليجي نفسه الذي يسمى الدشداشة). ولقد ارتبط هذا الزي بالإسلام في أفريقيا. وقلما يكتمل هذا الزي في المنطقة السواحيلية وغيرها من المجتمعات الإسلامية في أوغندا وتنغانيكا وزائير في شرق وأواسط أفريقيا بغير الكوفية. مما أكسب المسلمين والأفارقة مظهراً متميزاً وقدراً كبيراً من الوقار والحشمة.

أما بالنسبة للأسر السواحيلية المنحدرة من أصول عربية عُمانية والمرتبطة بتلك الأصول، فالسيف والخنجر المعقوف كانا من الأشياء الضرورية لاكتمال وتمام الأزياء. ويتضح أن المواطن السواحيلي قد استعمل هذا الزي بكل ملحقاته وتفاصيله حتى مطلع القرن الحالي.

أما أزياء النساء فهي الأخرى تعكس الأثر العربي العُماني. فمن أهم الأزياء السواحيلية التي ترتبط بهذا الجانب، العباءة النسائية السوداء أو ما يسمى بالسواحيلية (البويّ بويّ). وتتكون من قطعتين. الجزء الرئيسي يلف حول الجسم ويغطيه حتى القدم والجزء الثاني وهو عبارة عن عصابة من الحرير يلف بها الشعر. ويشبه هذا الزي إلى حد كبير العباءة النسائية المستعملة في عُمان والخليج العربي حتى اليوم.

المصاهرة

ومن الظواهر الاجتماعية الجديرة بالتسجيل، روح الاندماج

والانصهار التي تميز بها هؤلاء الرواد من أهل عمان في هذه المجتمعات الأفريقية التي هاجروا إليها نتيجة لعملهم التجاري. فقد ذكرت الباحثة الاجتماعية الفرنسية كوليت ميزون على سبيل المثال، بأن الذكور كانوا أثناء ترحالهم كثيراً ما يتزوجون نسوة من الأفريقيات سواء في القرى أو المدن التي كانوا يمرون بها، أو يتزوجون من بنات رؤساء القبائل الأفريقية دعماً لعلاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية في تلك المناطق[٣]. نتيجة لهذا الموقف، انصهر إلى حد كبير سكان بعض هذه المجتمعات في شرق أفريقيا في الدم العربي. هذه الرغبة في الزواج والمصاهرة بالإضافة إلى هيبة الإسلام وثراء حضارته، تعللان كيف أن الكثيرين من الأفارقة يشعرون بفخر الانتماء إلى النسب العربي، إضافة إلى هويتهم الإسلامية.

الإسلام

إن قمة الدور الحضاري الذي أسهم به عرب عُمان في القرن التاسع عشر كان في مجال الدعوة الإسلامية. فقد شهدت فترة البوسعيديين مرحلة مهمة من مراحل انتشار الإسلام في شرق أفريقيا.

وتتميز زنجبار عن سائر مقاطعات شرق أفريقيا ببروز المظاهر الإسلامية والطابع العربي في شتى أنحاء الجزيرة. الكل مسلمون ولا زال الإسلام حتى يومنا هذا هو الدين السائد في الجزيرة كلها. وتضم زنجبار وشقيقتها بيمبا على صغرهما ٣٧٥ مسجداً، وبهذا نعلم إذا استعرضنا عدد السكان أن لكل مائة شخص مسجداً واحداً باستثناء النساء[٤].

وقد تمّ انتشار الإسلام من طريق قوافل التجار العُمانيين القادمين من زنجبار والمدن الساحلية الأخرى. وكان ذلك قبل منتصف القرن التاسع عشر من طريق التسرب السلمي بدعوة قامت على الاقناع. وهو ما كان يقوم به ـ عادة ـ دعاة متفرقون لا يملكون حولاً ولا طولاً سوى إيمانهم العميق.

التعليم

أما في مجال التعليم فقد كانت نواته الأولى وبداياته المبكرة تتمثل في المدرسة القرآنية (الكُتّاب) وحلقات الدرس في المساجد ودور العلماء، والتي كانت تشكل في مجملها القاعدة الأساسية للتعليم الإسلامي التقليدي في زنجبار والمراكز الإسلامية الأخرى في شرق أفريقيا، مثل بيمبا ولامو وممباسا ومالندي وكلوا. فقد كانت هذه المؤسسات التربوية هي التي ارتكز عليها التعليم على امتداد المجتمع السواحيلي في شرق أفريقيا، والتي ما زالت تؤثر تأثيراً واضحاً على صياغة الإنسان الأفريقي المسلم وعلى تكوين الثقافة السواحيلية.

وهكذا نلاحظ أنه في ظل سلطنة زنجبار الإسلامية لعب العُمانيون وغيرهم من اليمنيين والحضارمة دوراً رائداً في نشر التعليم في الساحل الشرقي الأفريقي. وأصبحت زنجبار في القرن التاسع عشر ملتقى للعلم وطلابه ومركز إشعاع للمناطق الساحلية والبر الأفريقي. لذلك جذبت أعداداً كبيرة من العلماء والطلاب والدارسين وفدوا من شتى أنحاء شرق أفريقيا، ومن مناطق نائية وبعيدة مثل جاوة وجزر الهند الشرقية، هذا فضلاً عن عُمان وحضرموت وبعض مشيخات الخليج العربي.

وتطورت المناهج وطرق التدريس لتشمل كافة التخصصات في

العلوم القرآنية والتفسير والفقه والعلوم الشرعية قاطبة، إضافة إلى علوم اللسان العربي كالنحو والبيان والشعر، وقد كانت وسائل طرق التدريس أشبه بما كان يطبق في عُمان وحضرموت ومكة والمدينة في الحجاز، وكذلك الأزهر الذي أصبح فيما بعد النموذج المثالي الذي يحتذى في الأوساط العلمية في زنجبار. ومن أشهر المراكز العلمية التي اشتهرت معهد مسجد جوفو في زنجبار.

المطبعة والصحافة

ومن التطورات التي ساعدت كثيراً على النهضة العلمية في شرق أفريقيا تأسيس المطبعة السلطانية في زنجبار في عهد السلطان برغش ابن سعيد والذي حكم في الفترة (١٨٧٠ - ١٨٨٨). وقد قامت هذه المطبعة بنشر العشرات من الكتب العُمانية وبخاصة المؤلفات الدينية. ويذكر سعيد بن علي المغيري، الذي كان عميق الصلة بسلاطين زنجبار المتأخرين، التالي، عن دور هذه المطبعة في نشر التراث الديني والأدبي مشيداً بمآثر السلطان برغش في هذا المجال، قائلاً:

«... وقد أنشأ في زنجبار مطبعة عربية لطبع الكتب الدينية والأدبية وسائر العلوم وهي باقية إلى الآن. ولو لم تطبع هذه المطبعة شيئاً إلاّ كتاب هيميان الزاد وقاموس الشريعة وحاشية الترتيب ومختصر الخصال، وجامع البسيوي وإزالة الاعتراض ومنظومة مدارج الكمال، لكانت قد قامت بواجبها، فكيف وقد طبعت عدداً كثيراً من الكتب»(٥).

هذا الإنجاز الكبير في مجال الطباعة والنشر قد مهّد السبيل لتطور جديد كانت له آثار بعيدة المدى في مجال التوعية ونشر الثقافة العربية الإسلامية. فقد شهدت زنجبار ظهور الصحافة لأول مرة في

تاريخها، بل في تاريخ شرق أفريقيا بأسره، حيث أنشأوا صحفاً منها «الفلق» و«النهضة» وغيرها.

وقد كان من أبرز رؤساء التحرير لتلك الصحف الناشئة في المهجر الأفريقي، رجال من أمثال الشيخ الأديب أحمد بن حمدون الحارثي والشيخ الخطيب هاشل بن راشد المسكري والشيخ عبد الله ابن حمود الحارثي والشيخ الداعية الأمين بن علي المزروعي. وقد كان يكتب في هذه الصحف الكثيرون من أدباء عُمان وكتّابها سواء ممن كانوا في زنجبار أو الذين كانوا يقيمون في عُمان. وقد ساهمت هذه الصحف بدور ملحوظ في النهضة الأدبية وتوعية المسلمين في شرق أفريقيا بأمور دينهم ودنياهم.

العربية والسواحيلية

انتشرت اللغة العربية بين قطاعات مختلفة من السكان في شرق أفريقيا، وكانت لغة الصفوة المتعلمة والمستنيرة، كما كانت لغة التجارة والإدارة والحكم والأدب. أما بالنسبة إلى عامة الناس من المسلمين الأفارقة، فقد اكتفى معظمهم بالقدر اليسير من هذه اللغة، الذي يمكنهم من ممارسة شعائر وتعاليم الإسلام وتلاوة القرآن. ومن الملاحظ أن انتشار اللغة العربية قد سار جنباً إلى جنب مع انتشار الإسلام. وفي ما عدا ذلك ظل التعامل اليومي بين عامة الناس، وخاصة في المناطق الداخلية في شرق أفريقيا يتم بواسطة اللغة السواحيلية المفعمة بالكلمات العربية والفارسية والمصطلحات الإسلامية. والواضح أن هذه الأمبراطورية قد اتخذت اللغة السواحيلية لغة لها إلى جانب اللغة العربية التي كانت بمثابة لغة البلاط والدواوين الحكومية. فحكام المناطق العربية الأفريقية كانوا

عرباً من عمان، يدينون بالإسلام ويتحدثون بالعربية. وبالتالي سارت اللغتان العربية والسواحيلية جنباً إلى جنب مع النفوذ العُماني في جميع المناطق التي وصل إليها العُمانيون في شرق أفريقيا.

فالثقافة السواحيلية في صورتها المطلقة والتي ما نزال نجدها في الجزر الساحلية وبعض الحواضر والمدن في أواسط أفريقيا، تنعكس في العقيدة الإسلامية وأسماء الأشخاص والعادات والتقاليد والملابس والأزياء والعمارة والآداب والفنون والأمثال، وقبل هذا وذاك في اللغة، وهي لا تخرج عن كونها ثقافة أفريقية عربية مسلمة. ومن ثم أصبحت كلمة سواحيلي تطلق على كافة سكان الساحل الشرقي الذين تربطهم بالعالم العربي علاقات ثقافية وتجارية. وجلّ هؤلاء السكان كانوا قد اعتنقوا الإسلام وانسجموا مع نمط العيش والتقاليد العربية والإسلامية. ولكن في مرحلة النفوذ العُماني وانتظام الحركة التجارية إلى داخل القارة الأفريقية، كثرت وتعددت القوافل، وقوامها التجار والجند وخبراء الدرب والحمّالون والعديد من القبائل الأفريقية ذات المصلحة في هذا النشاط الاقتصادي. كل هؤلاء ربطتهم لغة تخاطب مشتركة واحدة ألا وهي اللغة السواحيلية. وبالتالي قد صحب حركة القوافل التجارية انتشار هذه اللغة إلى أواسط أفريقيا.

فاللغة السواحيلية تعتبر من أهم اللغات المستعملة في أفريقيا اليوم حيث تحتل المكانة الثانية بعد اللغة العربية من حيث انتشارها وعدد الناطقين بها. إنها اللغة القومية في جمهورية تنزانيا الاتحادية واللغ الرسمية في جمهورية كينيا. (في زنجبار يسمونه «كيسواحيلي»). كما تستعمل على نطاق واسع في الجنوب

الصومالي وأوغندا وفي المناطق الحضرية في رواندا وبوروندي وكذلك في شرق زائير وشمال الموزمبيق وجزر القمر. ويقدر عدد الناطقين بها على اختلاف مستوياتهم بأكثر من أربعين مليون نسمة. وتدرس اللغة السواحيلية في الجامعات ومعاهد اللغات في أفريقيا وأوروبا وأميركا وآسيا، كما اتخذتها منظمة اليونسكو لغة عمل في نشراتها.

وقد تأثرت اللغة السواحيلية التي هي في الأصل، لغة بانتو وهي لغة سكان البر والداخل الأفريقي، إلى جانب العربية، باللغة الفارسية التي حملها معهم الشيرازيون إلى ساحل أفريقيا الشرقية وخاصة تلك المتعلقة بالمصطلحات الملاحية. كذلك تأثرت بحكم الاستعمار، باللغات الألمانية والإنكليزية إلى جانب البرتغالية، والتي استعارت منها العديد من الكلمات وحورتها، وقد كتبها المستعمرون بالحرف اللاتيني، بعد أن كانت تكتب قبلاً بالحرف العربي. ووضع لها أول قاموس ألماني سواحيلي في العام ١٨٨٠ المبشّر الألماني لودفيغ كرابف، ثم أضاف إليه وعدّل فيه في العام ١٨٨٤، مبشر آخر إنكليزي هو الأسقف الأنكليكاني ادوارد ستير، وجعل منه أول قاموس إنكليزي ـ سواحيلي. وما زال هذا القاموس مستعملاً إلى اليوم. وقد ترجم الدكتور جوليوس نيريري، رئيس تنزانيا الأسبق، مسرحيات وليم شكسبير من الإنكليزية إلى السواحيلية، وتعتبر ترجمته لمسرحيتي «هاملت» و «ماكبث» الأكثر رواجاً بين الكتب السواحيلية في شرق أفريقيا.

وعلى الرغم من ذلك ظلت السواحيلية لغة محدودة، لا تصلح للتعليم الجامعي والعالي وخاصة العلمي، حيث يتم ذلك باللغة الإنكليزية في جامعات شرق أفريقيا ما عدا جامعة دار السلام التي

تدرّس بعض المواد بالسواحيلية. ويجري تعليمها في المدارس الابتدائية إلى حدود الصفوف الثانوية. لكنها تبقى لغة البيت ولغة الشارع ولغة الناس.

(١) نقلاً عن كتاب مدثر عبد الرحيم - «الإسلام والتجانس الاجتماعي في أفريقية» - المركز الإسلامي الأفريقي - الخرطوم.

(٢) هذه الأرقام والنسب تعود إلى آخر إحصاء متوافر. راجع كتاب:

Zanzibar: Facts Figures and Fiction - Amir. A. Mohamed - Zanzibar Press - 1994.

(٣) كوليت ميزون - «هجرات الحرث إلى أواسط القارة الأفريقيا» - وزارة التراث القومي والثقافة - عمان - (بالعربية).

(٤) محمد الحداد - «حقائق عن العرب والإسلام في أفريقيا الشرقية».

(٥) سعيد بن علي المغيري، «جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار». تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة.

زوجات وأولاد السلطان سعيد

خلال حياته، اتخذ السلطان سعيد لنفسه (سلطان عُمان وزنجبار من سنة ١٨٠٤ حتى سنة ١٨٥٦) ثلاث زوجات شرعيات إلى جانب حريم واسع.
سنة ١٨٢٧، تزوج السلطان سعيد من عزّة بنت سيف بن أحمد، حفيدة السلطان أحمد، وابنة عم سعيد. ومثل أية زوجة، كانت لعزّة وضعية مساوية لوضعية زوجها. كانت ذات إرادة قوية وحكمت بيتها بيد من حديد، ولم ينفذ أي من أعمال الدولة دون مشورتها وموافقتها.

العام ١٨٤٧، اتخذ السلطان سعيد زوجة ثانية هي، بنت إيراج ميرزا الملقّبة شيزادة، وكانت أميرة فارسية جميلة نابضة بالحياة، وحفيدة شاه بلاد الفرس. أتت إلى زنجبار العام ١٨٤٩، وبنى لها السلطان سعيد الحمامات في كيديشي العام ١٨٥٠، مستخدماً في ذلك بناءين ومورّقين من فارس. لم ترزق شيزادة بأولاد فطلقها سعيد وأرجعها إلى بلاد فارس. وفي الخمسينيات من القرن التاسع عشر، كانت شيزادة شخصية بارزة لعبت دوراً في تحريض الجيش الفارسي، على قتال زوجها السابق سلطان زنجبار.

زوجة سعيد الثالثة كانت بنت سيف بن علي، وهي لم يعرف عنها الكثير.

كما كان في حريم السلطان سعيد محظيات عديدات. وعندما تلد المحظية تصبح إحدى السرائر، وتعطى حريتها في الحال، وتأخذ وضعية مساوية للزوجات الشرعيات.

رزق السلطان سعيد بـ ١٢٠ طفلاً (٩٩ بنتاً و٢١ ولداً). وعندما توفي العام ١٨٥٦، ترك وراءه أرملة واحدة هي عزّة بنت

سيف، و٧٥ من السرائر. ومن أطفاله الـ١٢٠، كان ٣٦ مازالوا على قيد الحياة: ١٨ ابناً و١٨ ابنة. أصبح اثنان من أولاده، ثويني وتركي، سلطانين على عمان. كما أن أربعة من أولاده هم: ماجد، برغش، خليفة وعلي، أصبحوا سلاطين على زنجبار.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حكاية
زنجبار السياسية



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٨

الثورة الأفريقية والمذبحة العربية

في الفترة الأولى بعد إعلان الحماية البريطانية على زنجبار في العام ١٨٩١ تمّ تشكيل مجالس استشارية، أغلبية أعضائها كانوا معينين من قبل الإدارة البريطانية. وكانت السلطة الحقيقية بيد القنصل أو المقيم البريطاني، مستعيناً بكبار الموظفين والخبراء البريطانيين. وكان يتم توزيع مقاعد المجلس التشريعي بين الطوائف العربية والشيرازية والأفريقية والآسيوية. ونتيجة لهذه الإجراءات التي اتبعتها الإدارة البريطانية لتدعيم ولتوسيع نطاق نفوذها في زنجبار، ظهرت الجمعيات العِرقية التي عملت كل منها على إبراز كيان الجماعة التي تمثلها وبالتالي الدفاع عن مصالحها.

ونتيجة لهذا الوضع استنكرت «الجمعية العربية الزنجبارية» أسلوب السياسة البريطانية التي قامت على قاعدتها المعروفة «فرِّق تَسُدْ» فطالبت بإلغاء نظام قوائم الناخبين على أساس عِرقي وطائفي واستبدالها بقائمة موحّدة لجميع الناخبين على أساس مبدأ الاقتراع العام، وإنشاء نظام وزاري يعد للانتخابات.

في العام ١٩٢٥، أصبح المعتمد البريطاني (أو القنصل وفيما بعد المندوب السامي)، مرتبطاً مباشرة بوزارة المستعمرات في لندن بعد أن كان تابعاً لوزارة الخارجية. كما تم تشكيل مجلس تشريعي جديد. بعد الحرب العالمية الثانية سمحت بريطانيا لسكان زنجبار بالانخراط تدريجياً بإدارة الجزيرة، فتشكلت عدة أحزاب سياسية محلية.

الأحزاب

وفي مستهل العام ١٩٥٥ تأسس أول حزب عربي في زنجبار أطلق عليه اسم «الحزب الوطني الزنجباري» برئاسة علي بن محسن، الذي كان أمينه العام محمد عبد الرحمن بابو، والذي عمل متحداً مع «الجمعية العربية الزنجبارية» ودعا إلى انتخابات عامة على أساس شعبي، وطالب بريطانيا بالجلاء عن الجزيرة. في الوقت نفسه شجعت الإدارة البريطانية العناصر الأخرى على تأسيس أحزاب وجمعيات خاصة بهم، وركّزت على الكتلة الأفريقية ـ الشيرازية التي قامت بتأسيس «الحزب الأفرو ـ شيرازي» برئاسة عبيد أمين كرومي، والذي عرف كمنافس للحزب الوطني الزنجباري قبل إجراء انتخابات العام ١٩٥٧ التي أسفرت عن فوز الحزب الأفرو ـ شيرازي بجميع المقاعد، عدا مقعد واحد فاز به مرشح عن الآسيويين من باكستان. وكان الحزب الأفرو ـ شيرازي هو حزب الأفارقة، والحزب الوطني هو حزب العرب.

في تشرين الأول/نوفمبر ١٩٦٠، توفي السلطان خليفة بن حارب ابن ثويني بعد حكم دام ٤٩ سنة، وخلفه ابنه الوحيد عبد الله بن خليفة. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر من العام نفسه، منحت بريطانيا زنجبار دستوراً جديداً يسمح بانتخاب أعضاء المجلس الدستوري. وعلى الرغم من ذلك فقد استمر الحزب الوطني الزنجباري في

المطالبة بحق الشعب في تمثيل نفسه، إلى أن أقرت بريطانيا مبدأ الانتخابات العامة بطريقة الاقتراع العام المباشر لكل البالغين رجالاً ونساء، مع توسيع عدد مقاعد المجلس من ١٢ مقعداً إلى ٢٢ مقعداً. جرت انتخابات في كانون الثاني/ يناير ١٩٦١، لكنها لم تأتِ بنتائج واضحة وحاسمة، ثم جرت ثانية في حزيران/ يونيو ١٩٦١، حيث تخللتها اضطرابات عرقية خطيرة. رغم ذلك فقد فاز فيها ائتلاف الحزب الوطني وحزب الشعب (الذي انشق عن الأفرو ـ شيرازي) بـ ١٣ مقعداً، بينما فاز الحزب الأفرو ـ شيرازي بعشرة مقاعد وشكل ائتلاف الحزبين (الوطني والشعب) أول حكومة وطنية في تاريخ زنجبار.

وفي انتخابات العام ١٩٦٣ انتصر الحزبان الوطني والشعب على ائتلاف الأفرو ـ شيرازي وحزب الأمة الذي انشق عن الحزب الوطني، بزعامة الأمين العام السابق للحزب محمد عبد الرحمن بابو، وتمّ تشكيل الحكومة الوطنية الثانية تحت حكم السلطان جمشيد بن عبد الله، بعد وفاة والده السلطان عبدالله في حزيران/ يونيو من ذلك العام، والذي لم يحكم سوى سنتين ونصف السنة. وطالبت الحكومة الوطنية الجديدة بريطانيا بتحديد موعد لاستقلال زنجبار.

الاستقلال

وفي العاشر من كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٣ حصلت زنجبار على الاستقلال. وانضمت إلى الأمم المتحدة، بعد انضمامها إلى الكومنولث البريطاني بعضوية كاملة. وفي منتصف كانون الثاني/ يناير ١٩٦٤ قدّم أول سفير زنجباري أوراق اعتماده للرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وكان هذا هو التمثيل الدبلوماسي الأول

والأخير في تاريخ زنجبار كدولة عربية مستقلة وعضو في الأمم المتحدة. لكن السلطنة العربية لم تعش طويلاً لتتقدم بطلب انضمام إلى جامعة الدول العربية. وفور استقلالها أعلنت عن تخليها رسمياً عن الشريط الساحلي في البر الأفريقي الذي عاصمته مومباسا، لصالح كينيا التي نالت استقلالها بعد زنجبار بيومين. وكان هذا الشريط الساحلي قد تم تأجيره إلى كينيا في العام ١٨٩٥، بـ ١١ ألف جنيه في السنة وقد كان يعتبر ملكاً شخصياً لسلطان زنجبار.

الثورة

لم يستمر الحكم العربي في زنجبار طويلاً بعد الاستقلال، فقد قامت ثورة دموية في ١٢ كانون الثاني/ يناير ١٩٦٤ بقيادة جون أوكيللو لإسقاط السلطنة العربية وإعلان النظام الجمهوري برئاسة عبيد أمين كرومي رئيس الحزب الأفرو ـ شيرازي، الذي انضم إلى مجلس قيادة الثورة فيه، محمد عبد الرحمن بابو، العربي، وأحد مؤسسي الحزب الوطني الزنجباري وأمينه العام السابق. وكانت مجازر هذه الثورة التي ذهب ضحيتها في ليلة واحدة الآلاف من العرب، لا تعني إلاّ أمراً واحداً، ألا وهو إبادة العنصر العربي في زنجبار إبادة كاملة.

ومن المؤكد أن الحزب الأفرو ـ شيرازي نجح في السيطرة على الحياة السياسية في زنجبار، باقتلاع عروبتها من جذورها، فقد أعلن اتحاده رسمياً مع تنغانيكا في ٢٦ نيسان/ أبريل ١٩٦٤ وقامت بذلك جمهورية تنزانيا الاتحادية، واتخذت دار السلام عاصمة لها. ونص الدستور الاتحادي على أن تكون رئاسة الجمهورية من تنغانيكا، وبذلك أصبح جوليوس نيريري رئيس تنغانيكا آنذاك رئيساً للدولة الجديدة. وكان نائبه الأول من زنجبار والذي يليه في

الحكم عبيد كرومي. وبانقلاب ـ ثورة ١٩٦٤ عادت زنجبار إلى أفريقيا، وانفصلت نهائياً عن العالم العربي. وعندما استردت أفريقيا زنجبار، انقطعت الصلات نهائياً مع العرب، الذين حملوا لمئات السنين بسفنهم تجارتهم وحضارتهم وإسلامهم. وهكذا أسدل الستار على هذه الدولة العربية الزنجبارية أو على هذا الجزء الأفريقي من الدولة العُمانية.

المذبحة

وصفت ثورة زنجبار بأنها «أقل الثورات نفعاً في التاريخ». ففي الساعة الثالثة فجراً من يوم ١٢ كانون الثاني/ يناير ١٩٦٤، تجمع فريق من الأفارقة مسلح بالعصي والهروات والسكاكين التي يقال لها «بانغاز» (آلة حادة معكوفة تشبه المنجل مسنونة من الطرفين تستعمل لقص الحشائش والأغصان) ورماح أفريقية طويلة وجنازير سيارات وأقواس نشابة، وزحفوا على قيادة مركز للشرطة في منطقة تدعى الزيواني في طرف مدينة الحجر (المدينة القديمة) في زنجبار. ولم يكن في المركز سوى شرطيين مناوبين.

وعندما تجمهر المهاجمون أمام مركز الشرطة، أطلق أحد الشرطيين النار وقتل اثنين منهم. وللحظة كاد الهجوم أن يفشل. لولا أن جون أوكيللو، زعيم الثوار المهاجمين، عندما رأى أن مؤيديه يتراجعون، هجم إلى داخل المخفر وانتزع البندقية من يد الشرطي وقتله بها فوراً. بينما أصاب نشاب أحد المهاجمين الشرطي الآخر في الشارع فأرداه قتيلاً. في هذه الأثناء ارتفعت معنويات الثوار، فهجم الثوار وكسروا باب المركز، وقتل أوكيللو شرطياً ثالثاً كان نائماً في الداخل، واحتلوا المخفر. وخلال لحظات، هرب باقي أفراد الشرطة النائمين في الداخل، فكسر المهاجمون باب مستودع

السلاح في المبنى واستولوا عليه. عند حصول الثوار على السلاح (بنادق، مسدسات، رشاشات) انتقلوا لدعم مراكز أخرى كان مخططاً للهجوم عليها في وقت واحد: محطة الإذاعة، مخافر الشرطة (إذ لم يكن هناك جيش للجزيرة) والسجن. في بعض هذه الأمكنة حدثت مقاومة ضعيفة من قبل المدافعين الذين لا يملكون خبرة عسكرية، ولم يكن عندهم الاستعداد للقتال في وجه جحافل من البشر المسلحة وغير المنظمة. فسقطت هذه الأبنية بسهولة. وانتشى الثوار بانتصارهم السريع. وما إن انتصف النهار حتى كانت أكثر أحياء ومراكز المدينة قد سقطت بأيدي «قوات» أوكيللو.

الهرب

وبينما كان القتال يدور في زواريب وتعرجات شوارع المدينة الحجرية التاريخية الضيقة، نصح رئيس الوزراء علي بن محسن وحكومته، السلطان جمشيد وأسرته وحاشيته التي كان عددها يربو على الخمسين شخصاً بضرورة مغادرة البلاد فوراً. وتمّ إعداد مركبين حكوميين في مرفأين متباعدين من مرافىء زنجبار. وبحلول المساء أبحر السلطان وصحبه متجهين إلى الشمال الغربي نحو مومباسا على ساحل كينيا القريبة. وارتبكت حكومة كينيا، التي لم تحصل على استقلالها إلاّ قبل شهر واحد من الثورة، عندما بلغها حدوث الانقلاب في زنجبار ووصول سلطانها إلى مومباسا. وقررت حكومة كينيا أن لا تتورط بأحداث الجزيرة، فارتأت أن تتصرف بطريقة لا توحي لانقلابيي زنجبار، ومعالم النظام الجديد لم تتضح بعد، بأنها تؤيد السلطان وحكومته. فقررت عدم استقباله في أراضيها، ورفضت أن ينزل على يابستها، وأعادت المركب إلى

عرض البحر. من هناك اتجه السلطان بمركبه جنوباً نحو دار السلام في تانغانيكا. وكان الإنكليز قد رتبوا له باخرة حملته وحاشيته إلى المنفى الطويل في بريطانيا. وكان السلطان جمشيد أول وآخر ملك دستوري، يملك ولا يحكم في زنجبار. ولعل أكثر ما حزّ في نفس السلطان جمشيد أن مومباسا وساحل كينيا الشرقي كانا من أملاكه وأملاك أجداده الشخصية، تنازل عنها للدولة الكينية (من طريق بريطانيا)، عند إعداد ترتيبات الاستقلال لدول شرق أفريقيا، قبل قليل من وصوله إليها لاجئاً.

بعد الهجوم الناجح على مركز الشرطة في الزيواني، من صبيحة يوم ١٢ كانون الثاني/ يناير، وسقوط باقي الأهداف الاستراتيجية في الجزيرة في يد أوكيللو وجماعته، بدأ العمل للاستيلاء على البلاد سياسياً. وكان أول ما قام به هذا الأخير إعلان نفسه زعيماً للثورة ووزيراً للدفاع والإذاعة (الإعلام)، مانحاً نفسه أيضاً رتبة عسكرية هي فيلد ـ مارشال. وشكّل حكومة من الحزب الأفرو ـ شيرازي وأسند رئاسة الوزراء لعبيد كرومي. في الوقت الذي كانت تجري الترتيبات الحكومية، كانت عملية الانتقام التاريخية من العرب قد بدأت، حيث ذبح الأفارقة في عملية انتقامية لا مثيل لها في التاريخ المعاصر، ما بين ١٢ ألفاً و١٧ ألف عربي في مختلف أنحاء الجزيرة خلال ٣٦ ساعة من بدء الانقلاب الجديد. وسقط مقابل ذلك ألف أفريقي قتيلاً، ومئات الآسيويين من الهنود.

كولونيا!

رفض البريطانيون التدخل في أحداث الجزيرة، بعد أن تجاهلوا طلب السلطان جمشيد تقديم مساعدات عسكرية لحكومته ضد الثورة، على الرغم من وجود بارجة عسكرية بريطانية محملة عتاداً وجنوداً

راسية في مرفأ جزيرة بمبا، على بعد مسافة ساعة واحدة من زنجبار. بدل ذلك أرسل المندوب السامي البريطاني في زنجبار رسائل تلغرافية (مورس) إلى قبطان السفينة يطلب منه مواد غذائية، وأغراضاً شخصية. وسمح له أوكيللو باستقبال مبعوث من قبل قائد السفينة حاملاً زجاجتي كولونيا، ظنّ أوكيللو أنهما يحتويان سائلاً متفجراً فصادرهما. فما كان من المندوب السامي البريطاني إلا أن هرول مسرعاً لعند الفيلد ـ مارشال قائد الثورة لإقناعه بأن السائل ليس متفجراً. وطلب المندوب السامي البريطاني من أحد مرافقيه بأن يفتح سدادة زجاجة ويسكبها على رأسه ليثبت لقائد الحكومة الثورية أن ليس لبريطانيا نوايا عدوانية ضد النظام الزنجباري الجديد. ويقال إن رائحة الكولونيا الإنكليزية ظلت عابقة في مكتب الحكومة الثورية لأيام وأيام، يتندر بها الناس كلما أصدر أوكيللو قراراً ثورياً ما. وهكذا تخلت بريطانيا عن سلاطين زنجبار العرب العمانيين بزجاجتي كولونيا، واشترت بالمقابل نظاماً أفريقياً مجهول الأبعاد.

الاعترافات

ما إن مرّت أيام على النظام الثوري الجديد في زنجبار، حتى توالت الاعترافات به، إنما ببطء. وكأن أولها وأكثرها مجموعة الدول الأفريقية التي استقلت حديثاً. إنما دولياً كان في المقدمة ألمانيا الشرقية وبعدها مباشرة الصين. وما إن انقضت فترة حتى اعترف الاتحاد السوفياتي وباقي دول الكتلة الشرقية. وبعد شهرين من استتباب الأمر للحكومة الزنجبارية، قرر الرئيس عبيد كرومي في شباط/ فبراير ١٩٦٤، طرد المندوب السامي البريطاني والقائم بالأعمال الأميركي في زنجبار من البلاد، لتلكؤ بلادهما في الاعتراف بحكومته.

غادر الأوروبيون والآسيويون وبعض العرب المقيمين في زنجبار الجزيرة بعد الثورة، ولكي يملأ الفراغ الذي تركه هؤلاء، ومعظمهم من المهرة، عمل كرومي على جذب المساعدات الفنية والعسكرية من كوبا والصين، ثم من بلدان الكتلة الشرقية مثل ألمانيا الشرقية وبلغاريا والاتحاد السوفياتي. فقام المهندسون الألمان الشرقيون بتخطيط وبناء المجمعات السكنية في مدينة زنجبار وفي «البلدات الجديدة» في مواقع متفرقة على جزيرتي أونغوجا وبيمبا، شوهت معالم الجزيرة الجميلة، وتعتبر اليوم من الأبنية المضرة بالبيئة.

حرّكت الثورة في زنجبار، مفاصل ضعف معينة في أنظمة الدول التي استقلت حديثاً في شرق أفريقيا. فجرت حركات تمرد للجيش في كل من كينيا وتنغانيكا وأوغندا، في أوقات متقاربة، فتدخلت القوات البريطانية الموجودة في المنطقة لقمعها فوراً، وهذا ما لم تفعله بالنسبة للثورة في زنجبار. وتوالت المواقف الغربية، وخصوصاً بعد التدخل العسكري البريطاني، مظهرة خوفها من التغلغل الشيوعي ـ الصيني والسوفياتي في المنطقة. وكان تصريح السفير الأميركي في نيروبي عن التهديدات الشيوعية لكل الدول الأفريقية التي يشكلها النظام الثوري في زنجبار، بمثابة إنذار بالتدخل العسكري ضد الوضع الجديد في الجزيرة. وشعر كرومي وحكومته بمقدار العداء وموجة الكره التي تحيط بهما، فخاف على استقرار نظامه، وبدأ يبحث حوله عن دعامة له في المنطقة يستطيع التحالف معها لحماية وضعه.

قبل ذلك كانت تنغانيكا قد استقلت أيضاً في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦١، وفي السنة التالية انتخب جوليوس نيريري رئيساً للجمهورية. كان نيريري يعرف كرومي ويدعمه منذ أواسط

الخمسينيات، غير أن ثورة زنجبار خلقت مشاكل في تنغانيكا، إذ ألهمت البعض القيام بمحاولة انقلاب ضده في دار السلام بعد أيام قليلة من قيامها في زنجبار. ولولا أن نيريري تلقى مساعدة بريطانية ممثلة بكتيبة من المغاوير، لكان مصيره مصير السلطان جمشيد.

الاتحاد

وعندما استعاد نيريري سيطرته من جديد، أجرى محادثات مع كرومي لتحقيق وحدة سياسية، فوافق هذا الأخير واتحد البلدان ليشكلا الجمهورية الاتحادية لتنغانيكا وزنجبار، في ٢٤ من نيسان/ أبريل ١٩٦٤. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر من العام نفسه، أطلق على الجمهورية الجديدة (تنغانيكا وزنجبار) اسم تنزانيا. أصبح نيريري رئيس جمهورية تنزانيا وكرومي نائباً للرئيس، وبقيت حكومة زنجبار الثورية تدير الشؤون المحلية على جزيرتي أونغوجا (زنجبار) وبيمبا، بينما الشؤون الخارجية كانت من صلاحيات الحكومة التنزانية. بعد ذلك بأشهر تمّ توقيع اتفاق آخر بتوحيد الحزب الأفرو - شيرازي في زنجبار وحزب الاتحاد الوطني، وهو الحزب الحاكم في تنغانيكا، في حزب جديد عُرف باسم «شاما شاما بيندوزي» كحزب وحيد قانوني حاكم في الجمهورية الجديدة.

الاغتيال

في ٧ نيسان/أبريل ١٩٧٢، اغتيل كرومي بينما كان يلعب الورق في المقر الرئيسي للحزب الأفر - شيرازي في بلدة زنجبار. وأصبح عبود جمبي موريني، الذي كان أحد أعضاء الحزب قبل الاستقلال، الرئيس الجديد لزنجبار، وحكومتها الثورية. كان موريني أقل تشدداً من سلفه كرومي وأكثر تعاطفاً مع نيريري ومع تنزانيا.

بعد التوحيد، بدأ الزعيمان بإدخال العديد من الإصلاحات بتليين سياستهما بخصوص الصناعات المؤممة والسيطرة المالية والسياسة الاشتراكية للدولة. كما أن العلاقات مع بعض الدول الغربية، بما فيها بريطانيا، بدأت بالتحسن ولو بشكل بطيء. وفي تموز/ يوليو ١٩٧٩، قامت الملكة أليزابيث الثانية بزيارة زنجبار، كإشارة على أن تنزانيا بدأت تستعيد بعض الاحترام الدولي[١].

□ □ □

الطبول

«إذا قرعت الطبول في زنجبار، رقصت كل أفريقيا».

قالها محمد فايق[٢]، وهو يروي لي قصة دور الرئيس المصري جمال عبد الناصر ودور بلاده في أحداث شرق أفريقيا وتداعياتها في باقي القارة الأفريقية، أيام كان للعرب دور وسياسة في تلك القارة السوداء.

ومحمد فايق[٣]، كان مديراً لمكتب الرئيس عبد الناصر للشؤون الأفريقية يوم قامت الثورة في زنجبار في ١٢ كانون الثاني/ يناير ١٩٦٤، ووقعت المذبحة الكبرى التي أودت بحياة آلاف العرب. ولما وصلت أخبار الانقلاب الدموي إلى القاهرة طلب منه الرئيس عبد الناصر التوجه فوراً إلى زنجبار، وهو الذي اعترف بالنظام الزنجباري واستقبل سفيره قبل أسبوع واحد من الانقلاب، بهدف وقف المذبحة فوراً، قبل أن تتضح معالم الثورة وأسبابها وأهدافها.

وكان هم محمد فايق أن يصل إلى الجزيرة بأقصى سرعة لوقف تصاعد أعمال القتل ضد العرب. فطار من القاهرة إلى عدن (التي كانت تحت الاستعمار البريطاني)، ومنها أقلته طائرة بريطانية إلى

زنجبار. وصل فايق بعد حوالي ٧٢ ساعة من الثورة، وكان همه الاطمئنان على صديق له ولمصر هو علي بن محسن رئيس وزراء زنجبار، الذي أطاحت به الثورة مع السلطان. وكان الإنكليز قد رحّلوا السلطان جمشيد ليلة قيام الثورة، إنما بقي مصير علي بن محسن غامضاً. ولما وصل فايق كان يحمل طلباً من عبد الناصر بعدم إيذاء محسن. فأكد له عبيد كرومي، رئيس حكومة الثورة، أنه بخير في السجن، وأخذه إلى بيته ليتأكد من وجود عائلته فيه. لكنه لم يقابل محسن (يعيش علي بن محسن اليوم في أبو ظبي).

وشعر فايق عند وصوله إلى زنجبار بفداحة ما حدث خلال الأيام القصيرة الماضية، وأن طبول زنجبار قد دقت فعلاً، وأنه لا بد لأفريقيا، وخاصة شرق أفريقيا، أن يرقص ويتفاعل معها، سلباً كان أم إيجاباً. كذلك شعر فايق أن الثورة لم تكن تعرف في أيامها الأولى أين وكيف ستتجه. وهي ككل ثورات العالم الثالث في الستينيات، لم تكن ناضجة. لذلك أيد فوراً الفكرة التي طرحت عليه هناك بالانضمام إلى تانغانيكا، التي كانت قد استقلت في العام ١٩٦١، والتي لا تبعد يابستها عن شواطىء زنجبار بأكثر من بضعة كيلومترات.

وبالتالي لم يكن شكل الانضمام المرغوب، في وحدة أو اتحاد أو كونفيديرالية، أيضاً واضحاً. الشيء الواضح في ثورة زنجبار في تلك الأيام الأولى، هي شعارات «اليسار» و«الاشتراكية» و«الماركسية» التي طرحتها الثورة، والتأييد والاعتراف الفوري الذي حصلت عليه من ألمانيا الشرقية والصين. وطلب فايق باسم مصر تعهداً من كرومي بوقف المذبحة ضد العرب، حتى لا تأخذ بعداً عرقياً وعنصرياً أكثر مما أخذت، أي الأفارقة ضد العرب.

تجاهلت مصر المذبحة واعتبرت ما حصل ثورة تقدمية قام بها الأفارقة الفقراء أحفاد العبيد، ضد النظام الطبقي السلطاني العربي المحتكر للحكم والسلطة، والذي يمثل تاريخياً ورثة تجار الرقيق.

وعمل محمد فايق بتكليف من الرئيس عبد الناصر على اقناع الرئيس التنغانيكي الدكتور جوليوس نيريري، بقبول نوع من أنواع الوحدة مع زنجبار، حتى لا يستغل الفراغ السياسي الحاصل فيها من قبل الدول الاستعمارية المعادية. وكان نيريري، صاحب نظرية «أوجاما» أي الفلسفة «الديموقراطية الاشتراكية الأفريقية»، يسارياً في مفهوم حكام العالم الثالث وأفريقيا المستقلين حديثاً من الاستعمار البريطاني تحديداً. ولكنه كان مسيحياً كاثوليكياً مؤمناً خريج مدارس الإرساليات التبشيرية الكاثوليكية (خريج جامعة أدنبرة في اسكوتلندا فيما بعد)، يحكم بلداً أكثر من نصف سكانه من المسلمين والعرب ذوي الأصول نفسها التي للعرب الزنجباريين. فخاف من ردود فعل سلبية على أرضه وطلب وقف المذبحة ووافق على انضمام زنجبار إلى تنغانيكا في دولة اتحادية، ذات شكل ما يحدد لاحقاً، لمنع تدخل دول قريبة أو أطراف بعيدة في الوضع الزنجباري القلق، واستقطاب الثورة لغير صالح بلاده.

ألمانيا

ويروي محمد فايق أن أول إشكال سياسي دولي وقعت فيه الثو
في زنجبار، هو اعتراف ألمانيا الشرقية الفوري بالنظام الجد
وإيفادها بعثة من الخبراء الزراعيين والمهندسين إلى الجزيرة. و
نيريري، بشيء من الطرافة، على هذا الوضع، بقوله: «إن المش
في الوحدة مع زنجبار، هي في تقسيم ألمانيا». وكانت تنغانيه
المستعمرة الألمانية القديمة، غير معترفة بألمانيا الشرقية، وتتلة

مساعدات من ألمانيا الغربية. وكان لا بد من تسوية لهذا الإشكال. ولم يكن أحد في كل أفريقيا معترفاً بالنظام الشيوعي في ألمانيا الشرقية. حتى مصر، كانت العلاقة معها على مستوى تمثيل مكتب تجاري في القاهرة. والإشكال الثاني كان اعتراف الصين الشعبية بالثورة. بينما كانت تنغانيكا معترفة فقط بالاتحاد السوڤياتي. وكان نيريري يحتاج إلى وقت كافٍ لحل هذا المأزق.

كانت تلك الأيام، أيام عز الحرب الباردة بين المعسكرين الجبارين، ودول أفريقيا لم تستقل كلها بعد، وتعج بوجود الاستعمار الكولونيالي والاستيطاني والعنصري والعسكري والسياسي والاقتصادي. وكان الخلاف بين الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية في ذروته، ولم يكن أحد من الدول العربية أو الأفريقية قد اعترف بعد بالصين الشعبية. وخلق اعتراف الصين بزنجبار إشكالاً جديداً لنيريري في تنغانيكا، وهو «الاشتراكي» الذي يتمتع بعلاقات ممتازة مع موسكو. وكان دور عبد الناصر وسط تشابك هذه الأزمات، دور المهدىء.

الرقص

مع ازدياد قرع الطبول، من غير نسق، في زنجبار، ازداد الرقص خوفاً في شرق أفريقيا. ووقفت دولها الثلاث الأساسية والمستقلة حديثاً، كينيا وأوغندا وتنغانيكا، مع فكرة اتحاد زنجبار مع تنغانيكا. وكانت هذه الدول الثلاث تشكل «مجموعة دول شرق أفريقيا»، التي خلفها لها الاستعمار البريطاني كنواة تعاون اقتصادي وحدوي، مثلاً في خطوط سكك حديد واحدة وطيران واحد ومرافق واحدة وعملة واحدة هي «شيلين أفريقيا الشرقية». وكانت السياسة المصرية في حينه تعتقد أن في انضمام زنجبار إلى تنغانيكا،

ما يوفر لشعبها من المسلمين وبقايا العرب فرصاً أفضل للتعليم والعمل والتقدم الاقتصادي في دولة أكبر، بينما لن يتوفر لهم هذا النمو لو بقوا في جزيرتهم الصغيرة والفقيرة. إلى جانب أن بانضمامهم إلى دولة أكبر لن يبقوا أقلية إذا اندمجوا مع باقي سكان الساحل في أفريقيا الشرقية. ومما لا شك فيه أن موضوع زنجبار كان ورطة بكل معنى الكلمة لنيريري وبلاده، كما كان ورطة لعبد الناصر.

ويضيف فايق أن شكل ونظام «مجموعة دول شرق أفريقيا» كان نموذجاً يحتذى في حينه، حتى أنه عندما قامت الوحدة الرباعية بين مصر وسورية واليمن وليبيا في الستينيات، أخذت قوانين المجموعة الأفريقية هذه وقلّدتها في دستورها.

عبد الناصر

ويقول محمد فايق إن الموقف العربي لم يكن موحّداً في حينه ولم يكن متماشياً مع موقف مصر من تأييد الثورة في زنجبار. فقد كانت سورية والعراق ضد تأييد الثورة، على أساس أنها قامت ضد العنصر العربي، بذبح الأقلية العربية وإلغاء معالم عروبة دولة أفريقية. لكن موقف مصر من ثورة زنجبار تحديداً، كان موقفاً داعياً إلى دعم ثورات التحرر الوطني في أفريقيا ومعاداة الاستعمار والأحلاف الغربية، وينسجم مع الموقف الذي اتخذته مصر ضد تركيا المسلمة المرتبطة بحلف الأطلسي في قضية قبرص، ومع المطران مكاريوس بطل استقلال قبرص ومحررها من الاستعمار البريطاني وأول رئيس لجمهوريتها. وبذلك وقفت مصر عبد الناصر مع قبرص اليونانية المسيحية ورئيسها الأسقف، ضد السياسيين المسلمين الأتراك المتحالفين مع الأحلاف الغربية. كذلك كان موقف مصر عبد

الناصر من إيران الشاه في حينه ودول إسلامية أخرى كباكستان، كانت معادية لحركات التحرر من الاستعمار ولفكرة الحياد الإيجابي الذي أخذت في الانتشار.

«معلمو»

واستفادت مصر من هذه المواقف، إذ رتبت أول قمة أفريقية عقدت في ٢٥ أيار/ مايو ١٩٦٣ في أديس أبابا، وأسست أول لجنة في أفريقيا للتحرر من الاستعمار، عقدت أول مؤتمر لها في القاهرة في العام ١٩٦٤. وكانت المواجهة مع الاستعمار في أفريقيا هي المعركة الأساسية في تلك المرحلة. فقد كان عبد الناصر في مصر جزءاً من مجموعة زعماء أفارقة يشكلون نواة للتحرر من الاستعمار. كان هناك سيكوتوري في غينيا، ونكروما في غانا، وموديبو كيتا في مالي، وجومو كينياتا في كينيا.

وكان هناك بالطبع جوليوس نيريري في تنزانيا، صاحب أول مشروع اشتراكي في أفريقيا، والمدرّس في مدارس وكليات التربية والتعليم في مختلف انحاء البلاد، قبل أن يتعاطى السياسة، والذي كان يلقب بـ «معلمو» (أي المعلم باللغة السواحيلية) قبل أن يصبح لقبه «حكيم أفريقيا» فيما بعد. وكانت الدعوة إلى الوحدة الأفريقية تحت شعار «هنا والآن» يقودها نكروما، الذي كان قريباً جداً من عبد الناصر. فالمد الوحدوي التحرري المعادي للاستعمار في أفريقيا أخذ يجرف كل ما عداه في القارة. واتخذ هذا المد عملياً شكل لجنة مؤلفة من تسع دول على رأسها مصر ومقرها تنزانيا، للدعم بالسلاح حركات التحرر الوطني في أفريقيا. وكان هذا أول موقف عملي يدعم ثوار أفريقيا بالسلاح أيضاً. وكان الموقف المصري ودور عبد الناصر منسجماً مع مبادىء ثورة يوليو، التي هي في

الأساس ثورة تحرر من الاستعمار. وكان معظم السلاح يتدفق إلى حركات التحرر الأفريقية من مصر، عبر طرق البلدان التسعة الأخرى.

إسرائيل

وكان من بين أسباب الموقف المصري أيضاً، محاربة النفوذ الإسرائيلي في القارة الأفريقية، الذي أخذ بالتعاظم من طريق إعطاء القروض والمساعدات التقنية لبعض الدول الأفريقية التي استقلت حديثاً. وقلقت مصر من التغلغل الإسرائيلي إثر وقوع ثورة زنجبار مباشرة، نتيجة لمذبحة العرب وللطابع الذي أعطي لها، بأنها ثورة الأفارقة المسحوقين ضد العرب الحاكمين الناعمين بالسلطة والمال. هذه السياسة الإسرائيلية في أفريقيا دفعت مصر إلى تقديم قروض مماثلة ومساعدات كبناء مستشفيات ومدارس ومراكز ثقافية لعدد من الدول الأفريقية إلى جانب السلاح. ومع بدايات حركات التحرر وانطلاقاً من القمة الأفريقية الأولى، بدأت فكرة عدم الانحياز تتبلور وتتخذ أبعادها وأهميتها.

مصر

ولما كانت مصر الناصرية دولة وثورة تؤمن بالوحدة، كانت ضد أية حركة من حركات الانفصال في أفريقيا. ولعل تجربة الانفصال في الجمهورية العربية المتحدة في ٢٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٦١، وخروج سورية عن مصر، رسخت لدى عبد الناصر قناعات واضحة ضد الحركات الانفصالية، وما كان أكثرها في أفريقيا.

وتدليلاً على ذلك يقول محمد فايق: قبل إعلان استقلال كينيا،

وبعد إقرار بريطانيا مبدأ الاستقلال، وخروج زعيم كينيا جومو كينياتا من السجن وانتصار ثورة «الماو ـ ماو»، جاء إلى مصر وفد من مسلمي وعرب ساحل كينيا الشرقي يريدون مقابلة عبد الناصر ليستشيروه في رغبتهم في إعلان ساحل كينيا دولة مستقلة عاصمتها مومباسا. وقال الوفد لعبد الناصر إنهم جاءوا لعنده بدعم من الإنكليز وأن بريطانيا موافقة على قيام دولة مستقلة في الساحل، وأنهم يريدون تأييده ودعم مصر لاستقلال مومباسا.

ويذكر فايق أن جواب عبد الناصر كان صريحاً وواضحاً: أنه لا يوافق على ذلك وأن لا مستقبل لدولة مستقلة صغيرة على ساحل المحيط الهندي لا تملك عمقاً استراتيجياً ولا مقومات الدولة الاقتصادية، وإن كانت تملك تجانساً في السكان ذوي الأصول العربية والدين الإسلامي. في الوقت نفسه ستحرم كينيا من منفذ على البحر مما سيجعلها موضع استفزاز دائم للدولة الصغيرة الجديدة، التي ستصبح بحكم ضرورة البقاء والحفاظ على استقلالها، مقراً وممراً للاستعمار الغربي ضد حركات التحرر في أفريقيا. إلى جانب أن لا مستقبل لأهالي الساحل إلاّ بالاندماج الكامل مع أهالي الداخل من الأفارقة، والالتحام معهم في دولة واحدة. وأكد عبد الناصر لوفد الساحل الكيني أن موافقة بريطانيا على الاستقلال لا تعني إلاّ تأكيد مبدأ «فرّق تسد»، وبالتالي ستبقى بريطانيا الدولة الراعية والمسيطرة، ولن يكون الاستقلال إلاّ شكلياً. ودعاهم إلى التفاهم مع جومو كينياتا والتقارب مع حزب «كانو»، الذي يتزعمه، حتى يتسنى لهم أن يلعبوا دوراً أساسياً عند قيام دولة الاستقلال.

الوحدوي

هذا الموقف المصري ـ الوحدوي تكرر عند وقوع انفصال بيافرا عن نيجيريا في العام ١٩٦٧، وكانت مصر قد خرجت لتوها مهزومة في حرب ١٩٦٧. ويقول فايق: أنه عند بداية الحركة الانفصالية في بيافرا، اتصل الجنرال غوان، رئيس نيجيريا في حينه، بالرئيس عبد الناصر، وطلب منه إرسال طيارين مصريين لقيادة طائرات «ميغ ـ ١٩» التي أرسلها الاتحاد السوفياتي كمساعدة، لأنه لا يملك الطيارين النيجيريين المدربين، وأن سماء لاغوس العاصمة مفتوحة أمام طيران بيافرا، المدعوم من جنوب أفريقيا والغرب، والذي يقوم بقصف العاصمة يومياً.

وكان عبد الناصر في أصعب ظروفه. المشير عبد الحكيم عامر يتآمر عليه ويعصى أوامره بعد هزيمة ١٩٦٧. وجاء طلب الجنرال غوان لعبد الناصر في اليوم الذي أعطى الأوامر للمشير محمد فوزي باقتحام مكاتب ومعسكر المشير عامر لإلقاء القبض عليه وإنهاء حالة العصيان. كان ذلك في آب/ أغسطس ١٩٦٧، بعد أقل من شهرين من حرب حزيران/ يونيو. وكان عليه أن يسافر في اليوم التالي إلى الخرطوم لحضور القمة العربية هناك. وهي القمة التي انعقدت بعد هزيمة ١٩٦٧، وعرفت فيما بعد بقمة «اللاءات الثلاثة». وقال الرئيس النيجيري غوان للرئيس عبد الناصر أنه يقدر ظروفه الشديدة الصعوبة، ولكن ليس لديه أي مكان غير مصر ليلجأ إليه لمساعدته في حماية وحدة بلاده نيجيريا.

مرتزقة

واستدعى جمال عبد الناصر محمد فايق، وكان قد أصبح وز

للإعلام، وقال له: لا أريد بسبب نكستنا أن تنتكس أفريقيا. ولا أريد أن تنعكس نكسة مصر على وحدة نيجيريا. أجب طلب غوان وأرسل ما تستطيعه من سلاح وعتاد وطيارين إلى نيجيريا تحت أي غطاء، إلا الغطاء الرسمي ودون أن يعرف أحد. وأعطى عبد الناصر لفايق صلاحيات رئيس الجمهورية للتصرف في موضوع نيجيريا. ويقول فايق إن المشير عامر ومدير مكتبه شمس بدران كانا قد سرحا عدداً كبيراً من الطيارين قبل الحرب، نتيجة لصراع القوى داخل المؤسسة العسكرية المصرية. فاستدعى فايق أحد كبار الطيارين المسرّحين، وأعطاه الأوامر بجمع عدد من الطيارين المصريين المدربين على «الميغ ـ ١٩»، والسفر إلى نيجيريا للعمل تحت غطاء «مرتزقة» في دعم النظام النيجيري الوحدوي ضد الانفصاليين في بيافرا. وكانت التعليمات المشددة للطيارين والضباط المصريين، أنه لا علاقة إطلاقاً للدولة المصرية بوجودهم هناك، وأن دورهم كدور آلاف المرتزقة من مختلف الجنسيات والبلدان، الذين يحاربون مع كل من الفريقين في نيجيريا.

ووصل أول طيار مصري إلى نيجيريا في اليوم الذي وصل فيه عبد الناصر إلى الخرطوم، لحضور القمة الشهيرة. وكان نيريري في تنزانيا هو الذي سهل مرور الطيارين والسلاح عبر بلاده، ومنها إلى باقي أفريقيا، حتى أقصى غربها في نيجيريا. وعندما طارت أول «ميغ ـ ١٩» بقيادة طيار مصري فوق سماء لاغوس، أبرق الجنرال غوان إلى عبد الناصر يقول له: «اليوم أصبحنا في مأمن ولا بد أن تميل كفة الحرب لصالحنا. شكراً». ومن المؤكد أنه لولا سرعة تحرك القاهرة في دعم لاغوس لانتصرت بيافرا. وهكذا انتصرت الوحدة النيجيرية على الانفصال البيافري. وهو انفصال لو تحقق لكان له

لون الصراع بين أقلية مسيحية في بيافرا وأكثرية مسلمة في باقي نيجيريا. وظلت مصر عبد الناصر أمينة على الفكرة الوحدوية في أفريقيا، ولم تدع انتكاساتها تنعكس على مواقفها المبدئية من الصراع ضد الاستعمار والتجزئة في تلك القارة.

(١) اعتمد في هذه الرواية على مجموعة مقابلات مع عدد من الزنجباريين المعاصرين للثورة، من عرب وأفارقة، الذين تكرموا بإعطائي الكثير من وقتهم، وتحملوا الكثير من استفساراتي، وتمنوا عليّ عدم ذكر اسمائهم. إلى جانب مجموعة مصادر تاريخية مذكورة في نهاية الحلقة الأخيرة من هذه السلسلة.

(٢) حديث مع محمد فايق تمّ في الدار البيضاء، بالمغرب، في ٢١ آذار/ مارس ١٩٩٧، بعد عودتي مباشرة من زنجبار.

(٣) محمد فايق، سياسي مصري من ضباط ثورة يوليو، كان مديراً لمكتب الرئيس عبد الناصر ومستشاراً لشؤون أفريقيا، ثم وزير دولة للشؤون الخارجية مسؤولاً عن أفريقيا، ثم وزيراً للإعلام. حالياً، رئيس منظمة حقوق الإنسان في مصر، ومدير دار نشر «المستقبل العربي» في القاهرة.

آخر السلاطين في زنجبار...

كان السلطان جمشيد بن عبد الله البوسعيدي، آخر سلاطين زنجبار، والسلطان الحادي عشر في سلالة الأسرة التي جاءت من مسقط في القرن التاسع عشر، لتقيم أول مُلك عُماني عربي على ساحل أفريقيا الشرقية في المحيط الهندي.

وُلد السلطان جمشيد في زنجبار في العام ١٩٢٩، ودرس في مدرسة خاصة فيها، لأن المعتمد البريطاني في زنجبار أراد ذلك، مقترحاً على أبيه السلطان عبد الله الرضوخ لرغبة ممثل حكومة صاحب الجلالة البريطانية. بعد المدرسة الخاصة في زنجبار، أرسله أبوه السلطان (بناء على توصية المعتمد البريطاني أيضاً) إلى كلية دارتسموث البحرية الملكية، حيث خدم بعدها لمدة قصيرة في البحرية الملكية البريطانية. ولم يكن السلطان جمشيد سعيداً في مدرسة دارتسموث ولا في البحرية البريطانية، كما نقل عنه بعض المقربين منه.

وكوّن جمشيد سمعة شاب لعوب شغوف بالنساء، كانت له عدة مغامرات مع فتيات إنكليزيات في شبابه سواء في إنكلترا أو في زنجبار، إلاّ أنه كان متواضع الشكل على أناقة في المظهر. ويقال إنه عشق امرأة أوروبية متزوجة من تاجر هندي مرموق في زنجبار، ووقعت إثر ذلك فضيحة كبيرة في الجزيرة الصغيرة، ترك بعدها التاجر الهندي تجارته الكبيرة مع زوجته الجميلة وهاجر إلى أرض الله الواسعة التي كان أقربها جنوب أفريقيا. ولما كانت له «ثقافة الملوك» في النساء، كانت له هواية السلاطين المعروفة في ـ الصيد. كان السلطان جمشيد يقضي الوقت في اصطياد الخنازير البرية التي تكثر في الجزيرة، إما بالبندقية أو رمياً بالرماح. ولكن دائماً مشياً على الأقدام.

بعد أن أطاحت به الثورة في العام ١٩٦٤، منحت بريطانيا الدولة المستعمرة التي أعطت الجزيرة استقلالها قبل شهر من قيام الثورة، حق اللجوء السياسي للسلطان جمشيد في بريطانيا. ورحل السلطان جمشيد ومعه حاشية صغيرة لا تتجاوز ٢١ شخصاً، على متن الباخرة «كينيا» التي أبحرت به من دار السلام إلى مرفأ بورتسموث في جنوب إنكلترا، بعد أن كانت الحكومة البريطانية قد ضمنت حياته من حكومة الثورة الجديدة. وكان جمشيد يعرف ذلك الجزء الجنوبي الساحلي من إنكلترا من أيام دراسته هناك في دارتسموث. وكانت بورتسموث المرفأ التاريخي التي ترحل السفن الانكليزية منه إلى زنجبار، وتعود إليه محملة بالتوابل والعاج. وكان للعلاقة التاريخية بين المكانين السبب الرئيسي في اختيار ضواحي هذه المدينة مكان إقامته الدائم في المنفى. وكان من شروط خروجه حياً من زنجبار، أن لا يعود إليها مدى الحياة. ومع مرور السنوات وتغيّر الظروف السياسية الداخلية في زنجبار والظروف الأفريقية والدولية، لم يبد السلطان جمشيد أية رغبة في العودة إلى الجزيرة، لا تلميحاً ولا تصريحاً.

ولم يتزوج جمشيد إلاّ من زنجباريات. الزوجة الأولى طلقها ولها منزل في بورتسموث تتنقل بينه بين منزل آخر في عُمان، حيث يعيش أولادها. زوجته الثانية تعيش معه في ضواحي بورتسموث مع أولادهما. وتزور الزوجة الثانية مع أولادها عُمان بين حين وآخر ولهم منزل فيها. أما جمشيد فلم يزر عُمان قط حتى الآن، ويقال إن من أسباب ذلك أن (ابن عمه) السلطان قابوس لا يرحب به في بلاده. ويعيش جمشيد حياة خاصة جداً مع أولاده وبقايا أفراد حاشيته التي لجأت معه من الذين لم يعودوا لا إلى زنجبار ولا إلى عُمان منذ أكثر من ثلث قرن.

وكان من شروط البريطانيين للسلطان جمشيد، تسليم نفسه

للسلطات البريطانية في زنجبار لترحيله على متن السفينة «كينيا» إلى بريطانيا، والتخلي عن العرش وعدم مقاومته الثورة، وعدم تعريض حياته للخطر. وعقدت الحكومة البريطانية اتفاقاً شخصياً معه، بأن تدفع له سنوياً ١١ ألف جنيه استرليني ما دام مقيماً في بريطانيا. أما إذا ترك بريطانيا إلى أي بلد آخر ليقيم فيه، فتدفع له مبلغاً مقطوعاً قدره ٢٥٠ ألف جنيه استرليني، الذي بدوره ينهي التعاقد بين الطرفين ويرفع أي مسؤولية عن الحكومة البريطانية. والتزم جمشيد بالاتفاق الأول حتى الآن.

وعلى الرغم أن مبلغ الـ ١١ ألف جنيه التي دفعته الحكومة البريطانية في العام ١٩٦٤، يعادل حوالى ١٠٠ ألف جنيه بأسعار عملة اليوم، فإن علينا أن نتذكر أن حاشية السلطان كانت مؤلفة من ٥٠ شخصاً، تبعته إلى المنفى، وبالتالي فإن المبلغ كان قليلاً جداً. لذلك عاش جمشيد إلى اليوم حياة متواضعة إلى حد بعيد. ولاحظ الصحافيون الذين زاروه بعد الثورة في منفاه في بورتسموث في العام ١٩٦٤، مدى التقشف الذي كان يعيشه في السنوات الأولى من خروجه من زنجبار، في منزل إنكليزي متواضع في حي متوسط من أحياء بورتسموث، مقارنة بالقصور والبذخ الذي كان يعيش فيه أيام السلطنة في زنجبار. لقد كان التناقض كبيراً بين الحياتين. لقد أصبحت كناية عن حياة عزيز قوم ذل.

بعد ثلاثين سنة من المنفى تعب السلطان جمشيد من زيارات الصحافيين، التي تضاءلت بتضاؤل اهتمام الناس به وبلاده، فقرر أن يغلق كافة الأبواب على نفسه، ويعيش في زوايا النسيان. وهو يرفض اليوم لقاء الصحافيين أو إجراء مقابلات من أي نوع كان أو استقبال الزوار من الناس الذين لا يعرفهم. كما يرفض أن تؤخذ له أية صورة. والصورة الوحيدة المعروفة لجمشيد، هي الصورة التي أخذت له عند إعلان استقلال زنجبار.

ويقول الذين كانوايعرفونه وشاهدوه مؤخراً، أنه لم يكبر كثيراً ولم يتبدل شكله، منذ أن كان ذلك السلطان الذي غادر جزيرة زنجبار الخضراء الاستوائية قبل ثلاثين سنة إلى شواطىء إنكلترا الأطلسية الباردة. وينقل بعض المقربين منه، قوله إنه لا يريد العودة إلى زنجبار، ولكنه سيعود إذا طلبت بلاده منه ذلك.

أليس هذا ما يقوله كل الملوك والرؤساء والسلاطين المنفيين؟

... وآخر الثوار!

ولد جون أوكيللو في أوغندا عام ١٩٣٧، وليس هناك ما يشير إلى نيله أي قسط من التعليم في صغره. غادر منزله وهو في الخامسة عشرة من العمر، وكان يقوم بأشغال متنوعة أثناء سفره، منها كخادم منزلي وخياط وعامل بناءً. وأخيراً عمل بنّاء في نيروبي، والتحق بمدرسة ليلية حيث تعلم القراءة والكتابة.

في العام ١٩٥٧ حكم عليه بالسجن لمدة سنتين بجريمة جنسية، وبعد إطلاق سراحه سافر إلى مومباسا وقام ببعض الأعمال المتقطعة في البناء. في العام ١٩٥٩، عبر ليلاً على مركب شراعي إلى بيمبا بصورة غير شرعية. وأثناء قيامه بأعمال غير منتظمة، حضر بعض الاجتماعات السياسية للحزب الوطني الزنجباري (الحزب العربي). بعد ذلك انضم إلى الحزب الأفرو ـ شيرازي (الحزب الأفريقي)، حيث شارك مع الحزب في الحملات الانتخابية الثلاث حتى الاستقلال.

بعد الانتخابات الثالثة التي سبقت الاستقلال، انتقل أوكيللو إلى جزيرة زنجبار، حيث كانت حكومة السلطنة العربية الزنجبارية قلقة من كثرة المجنّدين من أفارقة الداخل في قوات الشرطة، وبدأت تستبدلهم بزنجباريين عرب كانت تنقصهم الخبرة. وسط هذا الجو بدأ أوكيللو برسم الخطط لقلب الحكومة، وأخذ يجنّد الأفارقة غير الزنجباريين، ومن ضمنهم رجال شرطة سابقون مستاؤون من النظام، وغيرهم من الذين كانوا يخشون طردهم من وظائفهم من قبل الحكومة العربية.

كان أوكيللو ينذر أتباعه بأنه بعد الاستقلال، سيقتل العرب كافة الأطفال الأفارقة، وأن الأفارقة سيصبحون عبيداً، وأن ثلاثة آلاف أفريقي سيذبحون انتقاماً لمقتل ٦٤ عربياً في اضطرابات العام ١٩٦١. وصدق الأفارقة هذه الإشاعة كما يبدو. في تشرين

الثاني/ نوفمبر أصبح أوكيللو يبصر أحلاماً ورؤى، فأمر رجاله بالامتناع عن ممارسة الجنس إلى ما بعد الثورة، وعن ارتداء ملابس غيرهم من الناس، لكي يحافظوا علي قوتهم. ثم صمّم أوكيللو لنفسه بزة فيلد ـ مارشال وعلماً خاصاً. آخر تعليمات أصدرها إلى أنصاره قبل بدء الثورة، كانت حول الذين ينبغي قتلهم في المعركة: الذكور من العرب بين سني الثامنة عشرة والخامسة والخمسين، والنساء اللواتي يمكن اغتصابهن (منع اغتصاب العذارى وزوجات القتلى والأسرى)، والسلطان جمشيد ورئيس وزرائه وثلاثة آخرين من السياسيين العرب. أما البقية فيتم اعتقالهم. واقترح بعض أتباع أوكيللو أن يوم الاستقلال في ١٠ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٣، سيكون ملائماً للثورة، لكن أوكيللو رأى أنه من المؤسف تخريب احتفالات يوم الاستقلال بالنسبة للزوار العديدين القادمين من الخارج.

قاد أوكيللو الهجوم الحاسم على مركز الشرطة في زيواني في ١٢ كانون الثاني/ يناير ١٩٦٤، فسقطت الحكومة وذهب السلطان إلى المنفى. بعد الانقلاب، أعلن أوكيللو نفسه فيلد ـ مارشال، واتخذ لفترة، لقب قائد الحكومة الثورية.

بعد عودة بعض مظاهر النظام، إلى الجزيرة، اتضح أن أوكيللو يُشكّل عائقاً أمام حكومة الحزب الأفرو ـ شيرازي. وخلال المفاوضات الاتحادية بين زنجبار وتنزانيا، ذهب أوكيللو للقاء الرئيس نيريري. وفي طريق عودته إلى زنجبار في ١١ آذار/مارس ١٩٦٤، أي بعد حوالى ثلاثة أشهر من الثورة، اعتقلته قوات الأمن وأرجعته إلى دار السلام، حيث صدر قرار بطرده من الحزب. ولم يظهر إلى العلن بعد ذلك، ولم يطأ أرض زنجبار إلى اليوم. وعاد إلى استئناف مهنته السابقة متجولاً داخل البر الأفريقي، بعد أن قضى فترة في السجن، مارس في داخله الشعوذة، حتى كاد يقتله بعض السجناء. ويعتقد أنه ما زال حياً إلى اليوم، دون أن يعرف أحد بالضبط أين يقيم.



٩

ثوريون في دولة برأسين

حصلت أول انتخابات رئاسية في زنجبار العام ١٩٨٠، وفاز فيها عبود جمبي مويني. لكن رياح التغيير هبت في العام ١٩٨٤، عندما أجبره الحزب الحاكم (كان في الوقت نفسه نائباً لرئيس جمهورية تنزانيا) على الاستقالة. وانتخب مكانه علي حسن مويني رئيساً، وسيف شريف حمد رئيساً للوزراء. ولم تقف رياح التغيير عند حدود جزيرة زنجبار، بل امتدت إلى البر التنزاني، عندما أعلن جوليوس نيريري في العام ١٩٨٤ أيضاً استقالته من رئاسة الجمهورية، وطلب انتخاب علي حسن مويني لخلافته. وأصبح علي حسن مويني، بعد أقل من سنة على انتخابه رئيساً لزنجبار، رئيساً لجمهورية تنزانيا الاتحادية. عندئذٍ اختار الحزب الحاكم في زنجبار إدريس عبد الوكيل رئيساً لزنجبار، خلفاً لمويني. أدى هذا الاختيار إلى صراع داخل الحزب، أسفر عن إقالة سيف شريف حمد من رئاسة الوزارة، وطرده من الحزب. فانقسم الحزب على أثرها، واعتقل الجناح الحاكم، حمد مع مجموعة من أنصاره، ولفّق له تهمة حيازة أوراق حكومية سرّية. وظل حمد سجيناً لمدة ثلاثين شهراً قبل أن يطلق سراحه ويغادر البلاد.

وفي العام ١٩٩٠، انتخب الدكتور سالمين عمور رئيساً لزنجبار بأغلبية كبيرة. بعدها لم تعد زنجبار دولة الحزب الواحد، إذ سمح بتعدد الأحزاب في العام ١٩٩٢، وجرت أول انتخابات متعددة الأحزاب في تشرين الأول/ أكتوبر من العام نفسه. ولأول مرة واجه أعضاء حزب الثورة الحاكم (شاما شاما بيندوزي) حزب المعارضة الرئيسي (الجبهة المدنية المتحدة) بزعامة سيف شريف حامد (حامد من جزيرة بمبا وليس من زنجبار) للفوز بمقاعدهم. واستمرت رياح التغيير في الهبوب، وإن كانت ضعيفة في أحيان، وبطيئة وحذرة في أحيان أخرى.

عجيبة!

إذا كانت ثورة زنجبار ثورة لا حاجة للتاريخ بها، فإن جمهورية تنزانيا الاتحادية، جمهورية عجيبة. والعلاقة بين زنجبار الجزيرة وتنغانيكا البر، علاقة تدعو دائماً إلى التساؤل. فلا هي وحدة فيديرالية ولا هي دولة وحدوية ولا هي بلد اتحادي. فلزنجبار رئيس دولة، كان حُكماً حتى العام ١٩٩٥، نائباً لرئيس جمهورية تنزانيا. ولها حكومة كاملة ووزراء بكافة الاختصاصات كأي دولة كاملة السيادة، ولها مجلس نواب تمثيلي له صلاحيات تشريعية. وتحتفظ زنجبار بكافة عائداتها من العملة الأجنبية التي تأتيها عن طريق صادراتها، ولا تدفعها أو تشارك بها الحكومة المركزية في دار السلام.

يحتاج المواطنون التنزانيون (سكان البر الأفريقي في تنغانيكا قبل الوحدة) إلى جواز سفر للمجيء إلى زنجبار، ولا يحق لهم التملك العقاري أو الصناعي أو العمل في الجزيرة. في المقابل يستطيع الزنجباريون أن يسافروا إلى البر التنزاني، من غير جواز سفر، ولا

عوائق أمامهم للعمل أو التملك هناك. وعلى الرغم من أن عدد سكان زنجبار يساوي أقل من ٥ بالمائة من مجموع سكان تنزانيا، فإن حصتهم من مقاعد المجلس التشريعي للدولة الإتحادية، تعادل ٣٠ بالمائة. وأدى التقليد المعمول به لتبادل رئاسة الاتحاد التنزاني بين زنجبار وتنغانيكا بين ١٩٨٥ و١٩٩٥ إلى وصول رئيسين للجمهورية التنزانية من زنجبار، بالإضافة إلى منصب النائب الأول لرئيس الجمهورية، الذي احتله زنجباري أكثر من مرة. وزنجبار لم تدفع منذ خمس عشرة سنة ثمن الكهرباء التي تمدها بها محطات الكهرباء في البر التنزاني.

الغبن

على الرغم من هذه المعاملة المميزة لمواطني الجزيرة، والتي يبدي علناً مواطنو البر التنزاني انزعاجاً كبيراً منها، يشعر الزنجباريون بالغبن. فقد أدت السياسة الاشتراكية التي دفع نيريري إليها البلاد منذ العام ١٩٦٧، إلى إفقار زنجبار وتدني مداخيل أهلها. وعلى الرغم من أنهم ورثة ثورة ماركسية الاسم، إلاّ أنهم يعتقدون أنه لولا الحلم الديموقراطي الاشتراكي الأفريقي لـ «معلمو» نيريري، الذي أدى إلى إفقار البلاد، لكانت زنجبار استعادت حيويتها التجارية ودورها الاقتصادي في غرب المحيط الهندي. فقبل الثورة، وقبل الوحدة، كان سكان زنجبار أرقى وأغنى من سكان تنغانيكا، ويتمتعون بدخل أعلى. فأهالي مدينة الحجر القديمة في زنجبار كانوا يتمتعوز بمستوى معيشي أرقى من أهالي دار السلام، بينما أصبحوا اليو يعيشون دون هذا المستوى بكثير.

الحنين

ولو تُرك الزنجباريون ـ كما يقولون ـ يطورون علاقاتهم التاريـ

والثقافية مع «الوطن الأم الأصلي» سلطنة عُمان وباقي دول النفط الخليجية العربية، لكان تم توظيفها في استثمارات إنمائية ومساعدات اقتصادية، تعزز وضع الجزيرة. ويقول الزنجباريون أن سمعة ثورة ١٩٦٤ السيئة، أكان عداؤها للعنصر العربي أو شعاراتها الماركسية، أو سمعة تنزانيا الاشتراكية وسياسة الانغلاق الاقتصادية التي تتبعها، هي السبب. هذه الأسباب مجتمعة جعلت عُمان تُحجم (لأسبابها التاريخية بالدرجة الأولى) عن «تطبيع» علاقاتها الاقتصادية مع جناح السلطنة العُمانية في شرق أفريقيا سابقاً. كذلك فعلت باقي دول مجلس التعاون الخليجي التي لها تحفظات اقتصادية وسياسية على النظام الزنجباري والتنزاني معاً، إلى جانب الجروح التاريخية من جراء الثورة التي لم تندمل بعد.

الشرعية

ولأن تنزانيا جمهورية عجيبة، بدأ الزنجباريون يطرحون أفكاراً عدة، كلها تشكك بشرعية إعلان الاتحاد بين البلدين. فيقولون إن قرار الاتحاد كان قراراً بين شخصين، وصفقة بين زعيمين سياسيين وجدا في ظرف تاريخي معين. الأول (نيريري) تقاعد والثاني (كرومي) اغتيل، وخاصة أن الثاني وصل إلى السلطة من طريق انقلاب غير شرعي، وبالتالي لم يتخذ قرار الاتحاد بين الجزيرة والبر برغبة الشعبين ولا خضع لاستفتاء، ولا يتمتع حتى اليوم بأية شرعية قانونية. ويضيف الزنجباريون أن شرعية الاتحاد، تتطلب تعديلات دستورية في العمق، إذا أريد لجمهورية تنزانيا الاتحادية الاستمرار.

الانفصال

لا شك بأن هذا التفكير يخفي وراءه نوايا وتيارات انفصالية واضحة، يروّج لها مجموعة من السياسيين الزنجباريين في المنفى.

(أغلبهم في عُمان وبعض الدول الاسكندنافية)، والتي تحاول الحكومة التنزانية قمعها من طريق منع نشر أفكارها في الصحف، أو السماح بأي نشاط حزبي أو سياسي يدعو للانفصال. وقد أُقيل رئيس وزراء زنجبار السابق سيف شريف حمد من منصبه، وطرد من البلاد، عندما شعرت الحكومة التنزانية بأنه يتعاطف مع هذه الأفكار.

عندما سمح بتعدد الأحزاب في العام ١٩٩٢، نشأت عدة منظمات سياسية، منها واحدة التفت حول فلول الحزب الأفرو ـ شيرازي القديم. ومن اللافت للنظر سياسياً في البلاد هو غياب العرقية والقبلية كلياً في الحزب الحاكم في تنزانيا. لذلك كانت الحكومة مصممة أنه يجب على أي حزب جديد يتشكل، أن يكون ممثلاً لقاعدة عريضة في المجتمع، ولا يكون ممثلاً لعرق أو طائفة أو قبيلة. ومن شروط تشكيل الأحزاب، أن يضم الحزب على الأقل ممثلين عن ١٣ مقاطعة من أصل ٢٥ مقاطعة في جمهورية تنزانيا الاتحادية، وأن يكون لكل عضو في الحزب عنوان حقيقي مسجل في سجل دائرة الأحزاب السياسية. وكان الهدف من هذا القانون، هو منع التجمع العرقي أو الطائفي في حزب واحد. لكن الهدف الأهم، كان منع أي تيار انفصالي في زنجبار من تأسيس حزب يمكن أن يؤدي مستقبلاً إلى خروج الجزيرة من الاتحاد، مثل الحزب الأفرو ـ شيرازي، الذي ينتمي غالبية أعضائه إلى زنجبار. وبلغ عدد الأحزاب المسجلة حتى الآن ثلاثة عشر حزباً. وكانت الحكومة تخاف من أن يخوض الحزب الأفرو ـ شيرازي الانتخابات بالدعوة لانفصال الجزيرة عن البر، لكن الحزب الوحيد الذي تشكل باسم «الجبهة المدنية المتحدة» هو من طرح هذا الشعار.

الرئاسة

وكان مرشح هذا الحزب لرئاسة زنجبار هو رئيس وزرائها السابق سيف شريف حمد. وكان التأييد لحزب الجبهة المدنية المتحدة يكاد يكون مطلقاً في زنجبار أو بمبا، خارج إطار أعضاء الحزب الحاكم. وجرت انتخابات الرئاسة ومجلس النواب في العام ١٩٩٥، وفاز حمد وحزبه بالرئاسة وأكثرية مقاعد المجلس، إنما بفارق ضئيل جداً. وأعادت اللجنة المشرفة على الانتخابات، التي كان من بينها مراقبون حياديون، الفرز، وادعت وجود أوراق مزورة في صناديق الاقتراع، لصالح الجبهة المدنية. وكان حزب الجبهة المدنية المتحدة قد دعا في حملته الانتخابية إلى مزيد من الاستقلال الذاتي لزنجبار، فاتهم من قبل الحكومة وحزبها بأنه يحرض من طريق هذه الدعوة المفتوحة، على الانفصال.

على الأثر أعلنت اللجنة فوز الرئيس الحالي سالمين عمور بـ ٥٠,٢ بالمائة من الأصوات، بينما نال حمد ٤٩,٨ بالمائة من الأصوات. وتم انتقال مقعدين نيابيين من حزب الجبهة إلى الحزب الحاكم، عند إعادة الفرز. فنال حزب عمور الحاكم ٢٥ مقعداً ونال حزب حمد المعارض ٢٤ مقعداً. وعندها أعلنت الجبهة عن مقاطعتها مجلس النواب. وأخذت تدعو المنظمات الدولية، وجمعيات حقوق الإنسان، إلى ضرورة إعادة الانتخابات بإشرافها الكامل دون أي تدخل حكومي، لأنه على الرغم من وجود مراقبين حياديين في انتخابات ١٩٩٥، إلاّ أنه لم يكن لهؤلاء المراقبين أية سلطة إجرائية أو تنفيذية لمنع التزوير في الانتخابات.

هونغ كونغ

لا شك أن الكثير من الزنجباريين يحلمون بالانفصال، من دون أن

تكون لديهم أفكار تفصيلية واضحة أو خطط عملية لتحقيقه. لكن الكل يتطلع إلى هونغ كونغ، كمثال يحتذى. ويعتقد أن زنجبار، بحكم تاريخها التجاري الطويل وموقعها الجغرافي وتركيبتها الإثنية والعرقية المتعددة، وعلاقاتها الاستعمارية القديمة مع بريطانيا، واستعمالها للغة الإنكليزية إلى جانب السواحيلية، أنها مؤهلة لأن تكون هونغ كونغ أفريقيا، وخصوصاً بعد ضم هونغ كونغ إلى الصين، وتنامي القلق من انحسار دورها التجاري العالمي. فالزنجباريون يعتقدون أنهم يستطيعون أن يصنعوا العجائب اقتصادياً وتجارياً في هذه الجزيرة الصغيرة إذا أتيحت لهم الفرصة مجدداً. ويقال أنه ليس بالضرورة أن تكون هونغ كونغ أفريقيا معادية أو منافسة لتنزانيا أو دول شرق أفريقيا، وخصوصاً إذا تمّ إقامة مجلس تعاون لدول شرق أفريقيا الثلاث، أوغندا، كينيا وتنزانيا، كما يخطط له اليوم. بل على العكس، ستكون زنجبار ـ هونغ كونغ عاملاً مساعداً وربما أساسياً في خدمة القارة الأفريقية تجارياً واقتصادياً في عصر اقتصاديات السوق والتجارة العالمية الحرة والنظام العالمي الجديد، كما خدمت هونغ كونغ آسيا والصين في أيام العهد الاستعماري وبعدها في عهد الحرب الباردة والاقتصاد الواحد.

الطرح العملي لهذا الطموح، ما زال يتم بصوت خافت. والحكومة بدأت تشعر بالتيارات المتعددة لهذه الأفكار، وصارت تخشى عمليات التهريب التي أخذت في الازدياد من الجزيرة إلى البر الأفريقي، وخاصة للبضائع المدعومة والبضائع الممنوع استيرادها. لذلك تحاول تطويق هذا الأمر بسياسة اقتصادية منفتحة.

أما على الصعيد السياسي، فما زال هناك خوف مبطن من طرح

هذا الموضوع بشكل علني، فيفتح «صندوق باندروا» أمام النظام التنزاني الاتحادي في عصر «البلقنة» على ضوء ما يحدث في أوروبا الوسطى وبلاد البلقان الآن، وما يجري من حروب انفصالية في القارة الأفريقية. لكن إلى متى تستطيع الدولة الاتحادية قمع النزعات الانفصالية في نظام متعدد الأحزاب، يدعي البرلمانية (من غير ليبيرالية) ويطالب الدول المانحة في العالم بالاعتراف بمؤسساته الديموقراطية، وتقديم المساعدات الاقتصادية لبلاده؟

لا جواب، ما دام «المعلمو» جوليوس نيريري، «حكيم أفريقيا» حياً، يدير الخيوط السياسية لبلاده من بيته المتواضع في دار السلام، ويمثل القوة الحقيقية التي تقف وراء السلطة أو أي شيء يحدث في تنزانيا.

التوابل

وسط أجواء الصراع هذه في زنجبار، دخلت السياسة لتفسد طعم التوابل في اقتصاد الجزيرة. لقد كان للتوابل دائماً في التاريخ حجم يفوق بكثير أهمية ما تضيفه إلى الطعام، مهما كان الذوق مرهفاً وذواقة الأكل متطلبين. فمنذ أن اكتشف المستعمرون الهولنديون أشجار التوابل في أندونيسيا (وعلى رأسها شجرة كبش القرنفل) وقرروا احتكار تجارتها وزراعتها في العالم. أخذ الفرنسيون يهرّبون بذوراً وشتولاً منها ويزرعونها في جزر موريشوس في المحيط الهندي، بعد أن أدركوا أهميتها في مأكولاتهم وما تضيفه من مزايا إلى عطورهم. ومن موريشوس سرق التجار العرب من المستعمرين الفرنسيين أشجار التوابل وزرعوها في زنجبار. ومن يومها أسسوا أكبر تجارة للتوابل في العالم، وسط جزيرة خضراء في المحيط الهندي، أصبحت مع مرور الزمن، وبحد ذاتها، أسطورة في هذا المجال.

واليوم ونتيجة للشكوك المتراكمة منذ ٣٢ سنة. عادت التوابل لتصبح محور الصراع السياسي الداخلي في زنجبار، بين ما يسمى بالمعارضة والحكومة، أو بين ما يُعرف بالانفصاليين الزنجباريين والاتحاديين التنزانيين. فالقصة بدأت قبل عدة سنوات عندما تمّ نقل بذور وشتول وشجيرات مختلفة من كبش القرنفل والتوابل من الجزيرة وزرعها في مشاتل في مناطق «تانغا» و«نغرو نغورو» شمال البر التنزاني. مع مرور الوقت وصلت الأخبار إلى الجزيرة (عن طريق ما يُعرف عادة في أفريقيا بـ «تلغراف الغابات») بأن هذه المشاتل قد نمت وترعرعت وأن الشجيرات قد بدأت تثمر، وأن الدولة الاتحادية تنوي إنشاء مزارع للتوابل على نطاق واسع في تنزانيا، إلا أن انتاجها مازال قليلاً ومحدوداً، ولا ينافس محصول زنجبار من التوابل، التي تعتبر حتى الآن، الأفضل في العالم.

لكن هذا الموضوع محظور التحدث فيه علناً، كما أوضح لي مسؤول في «مؤسسة دولة زنجبار للتجارة» الرسمية، المصدّر والهيئة الاحتكارية الوحيدة المصدرة للتوابل في زنجبار، طلب عدم ذكر اسمه. ويتساءل هذا المسؤول الزنجباري قائلاً: «لماذا يزرعون في البر التنزاني كبش القرنفل في الوقت الذي فيه فائض في العالم؟ أليس هذا مبرر لإثارة شكوكنا؟».

هذه الشكوك التي أبداها بتحفظ المسؤول الحكومي، تحدث عنها بصراحة نائب الرئيس والناطق باسم حزب «الجبهة المدنية المتحدة». المعارض، نصّور سيف عمور: «إن نوايا البر (تنزانيا) كانت دائماً ضم زنجبار وابتلاعها في الدولة الاتحادية، والتخلي عن النظام السياسي الحالي الذي ينص على وجود حكومتين. لكن ذلك لم يكن سهلاً عندما كنا في زنجبار مستقلين اقتصادياً. كان يعرف

جوليوس نيريري (رئيس تنزانيا الأسبق) أن التوابل من كبش القرنفل وسواها هي مصدرنا الوحيد للعملة الصعبة. وإذا استطاع غيرنا أن يزرع ويصدّر التوابل وينافس إنتاجنا، فيسقط من يدنا ونخسر مداخيلنا ونخر أمامه ساجدين. إنه يريدنا أن نصبح معتمدين على بلاده كلياً، حتى يتم ابتلاعنا».

المخطط

قد يحمل كلام عمور كثيراً من الخوف غير المبرر، الذي يخفي وراءه رغبات انفصالية واضحة، إلى جانب قدر من الواقعية. أما في واقع الأمر، فإن الطلب في العالم اليوم على كبش القرنفل (الذي يستعمل كتوابل للطعام، وفي صناعة الأدوية، وفي معجون الأسنان، وفي الصابون، وفي بعض العطورات، وفي السجائر المعطرة، وغير ذلك) هو أقل بكثير من محصول زنجبار، وبالتالي لا بد من وضع ضوابط عالمية لكبح إنتاج التوابل، إذا أرادت أي دولة منتجة أن تحقق دخلاً مادياً محترماً من هذه التجارة.

انطلاقاً من هذه الواقعية، يقول عبد الرحمن راشد المدير العام لمؤسسة دولة زنجبار للتجارة، بأنه ليس لدى الدولة مخطط للتوسع في زراعة التوابل. بل يؤكد بأن النية تتجه إلى التقليل من أشجار كبش القرنفل المزروعة حالياً، ودفع المزارعين إلى زراعة أنواع أخرى من الأشجار (هناك مشروع بهذا الخصوص تقدمت به بريطانيا)، وتقليص عدد المزارع غير المنتجة والتخلي عن بعضها، وحصر الأمر بعدد معين من المزارع ذات الإنتاج العالي والجودة المتقدمة، مما يخفض الناتج السنوي إلى حوالى خمسة آلاف طن. ويضيف راشد، أن جوهر الموضوع هو حصر الإنتاج بحدود معينة. فلا نعود

إلى إنتاج تسعة آلاف طن في السنة، كما هو الوضع حالياً. لأنه بكل بساطة لن نجد سوقاً لها.

ولما كانت زنجبار تنتج تسعين بالمائة من التوابل في العالم، فقد كانت تتحكم بالشروط والأسعار. كانت الأسعار قد وصلت في العام ١٩٨٠ إلى ٩٨٠٠ دولار للطن الواحد. وكان قطاف الأشجار ومحصولها يجمع ثلاث مرات في السنة، حتى وصل المحصول إلى ٢٠ ألف طن في سنوات الرخاء. وجاءت السنوات العجاف التي يتهم الزنجباريون سياسة نيريري الاشتراكية بأنها المسببة لها، وأنها هي وراء تحطيم الكثير من البُنى الاقتصادية الناجحة في البلاد. من أخطر نماذج هذه السياسة، سياسة التأميم للمزارع التي اتبعت بعد ثورة ١٩٦٤، التي أعطت لكل مزارع ثلاثة هكتارات فقط، واحتفظت الدولة بباقي المزارع وأدارتها بالطريقة السوفياتية. ولما لم يكن هناك أي جدوى اقتصادية من الهكتارات الثلاثة التي لا تنتج ما يسد رمق المزارع، في حين لا تعطيه الدولة أكثر من ٤ بالمائة من سعر التصدير، وعائدات الأرض لا تكفيه، أهمل أكثرهم هذه المزارع، وانقطعوا عن قطف المحصول، وتخلى أكثرهم عن العمل فيها، ونزحوا إلى المدن للبحث عن عمل. وهبطت المحاصيل إلى مجرد ألف طن في السنة بضربة واحدة، ولم يعد للحصاد في زنجبار سوى موسم واحد في السنة.

وبينما كان إنتاج زنجبار يتضاءل، كان محصول دول أخرى كأندونيسيا من التوابل يزداد. فأندونيسيا كانت أول مَنْ زرع كبش القرنفل، وصارت واحدة من أكثر الدول استهلاكاً للتوابل، لذلك أخذت تزيد وتدعم زراعة كبش القرنفل، وبنت مصانع للسجائر

المعطرة، التي تستخدم فيها التوابل. كذلك بدأت مدغشقر والبرازيل في زيادة مزارع القرنفل والتوابل وإنشاء صناعات متفرعة منها. ودفع هذا الفائض في إنتاج التوابل إلى كارثة اقتصادية في هذا المجال، إذ هبط سعر الطن الذي استقر على الألف دولار، إلى ٦٠٠ دولار في العام الماضي.

هذا الوضع الاقتصادي المزري لتجارة التوابل في العالم، دفع زنجبار إلى إعطاء ٥٠ بالمائة من سعر التصدير لمزارعيها بعد أن أصبحت الدولة الرابعة المصدرة للتوابل في العالم، فيما كانت الدولة الأولى، وبعد أن أصبح إنتاجها لا يتعدى ثلاثة آلاف طن في السنة. واكتشفت زنجبار أن أشجارها قد فاق عمرها الستين سنة، فتضاءل إنتاجها، وأصبحت المزارع بحاجة إلى شتول جديدة. وحتى لا تبقى الصورة سوداء داكنة فقط، فإن البرازيل قد اكتشفت أن زراعة التوابل غير مربحة معها، إذ إن سعر الطن في السوق العالمي دون ١٥٠٠ دولار. وبما أن اليد العاملة ما زالت في زنجبار أرخص من أي مكان آخر، فإنها مازالت قادرة على المنافسة في السوق العالمية.

ويقول عبد الرحمن راشد، «إن العالم ما زال بحاجة إلى كمية معقولة من التوابل ذات النوعية الجيدة التي تنتجها زنجبار، إذا استطعنا تجديد مزارعنا وأشجارها واستخدمنا الوسائل الحديثة في الزراعة. فالتحدي اليوم هو مَنْ يستطيع أن ينتج بأرخص ليبيع بأقل الأسعار». وعندما سألته إذا كانت الدولة مصممة على سياسة التأميم واحتكار التصدير، أجاب راشد: «إذا تخلت الدولة عن سيطرتها، وبدأت عمليات الخصخصة، فلن يهتم أحد بالأشجار ولن تبقى المزارع منتجة، ولن يفكر أحد بالمستقبل. فسيحلب

القطاع الخاص البقرة حتى تقع أرضاً، وعندئذٍ تموت أشجار القرنفل في زنجبار، وتكسد تجارة التوابل. الدولة هي الضمان الوحيد».

السياحة

وزنجبار بدأت تلتفت إلى القطاع السياحي كمصدر آخر من مصادر الدخل، لن يحل محل صادرات التوابل، لكن على الأقل يشكل دعماً إضافياً لموارد الدولة، مما ينشط الحركة الاقتصادية في البلاد. وهناك أقاويل في سوق زنجبار، عن وجود نفط في الجزيرة وعن اهتمام بعض الشركات العالمية بالتنقيب عنه. ولكن ليس هناك مصدر رسمي يؤكدها. وقد تكون هذه الأقاويل كلها، بدافع رفع المعنويات لدى «الانفصاليين» في زنجبار الذين سئموا شم رائحة النفط دون لمسه، لعل هذه الشائعة تجلب الثروة والرخاء معها. فإذا استعمل «الانفصاليون» سلاح التوابل ليحاربوا به محاولات الضم الاتحادية، بشيء من النجاح، فكيف إذ جاء النفط وأصبح سلاحاً ماضياً في أيديهم؟ سؤال لا يجيب عنه أحد الآن. فالجميع يتلهون بحساب عدد السياح الذين يزورون الجزيرة، ويفكرون بكيفية استخدامهم في المعركة القادمة مع البر التنزاني. لكن السياح لن يأتوا إذا ماتت أشجار القرنفل وغطت رائحة النفط على رائحة التوابل، ويبست الغابات الاستوائية، فللغنى ثمن باهظ قد تدفعه زنجبار إذا ألغت ماضيها الحضاري وثروتها التاريخية. هذا يعني ضرورة إلغاء الفقر، دون أن يعني ذلك إلغاء تراث الشخصية الزنجبارية وهي تقفز إلى القرن الواحد والعشرين.

على الصعيد الاقتصادي، عانت زنجبار من مشاكل كثيرة، ففي الثمانينيات حصل تراجع كبير في أسعار السوق العالمية للتوابل ليهبط السعر إلى ألف دولار أميركي للطن الواحد، بالمقارنة مع

عشرة أضعاف هذا السعر خلال الستينيات. ولم تعد زنجبار تستطيع دفع مساهمتها السنوية لحكومة تنزانيا، التي لم تكن تقاسمها أصلاً مدخولها من صادرات التوابل عندما كان مرتفعاً. فكان عليها أن تبحث عن وسائل بديلة للمداخيل. وبالتدريج، بدأت حكومة زنجبار بتشجيع عمل القطاع الخاص في الاقتصاد (المسيطر عليه من قبل الدولة).

في العام ١٩٨٩، أدخلت زراعة الأعشاب البحرية على الساحل الشرقي لجزيرة زنجبار، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت هذه الزراعة مربحة جداً. وفي العام ١٩٩١ بلغ قيمة ما صدرته من الأعشاب البحرية المجففة ما بين ٣٠٠ ـ ٥٠٠ ألف دولار، إلى بلدات مثل الفيليبين لاستعماله كمكثف للطعام. وتعتبر إضافة الأعشاب البحرية ذات قيمة لصادرات زنجبار التقليدية من جوز الهند والتوابل.

الاستثمار

في العام ١٩٩٠، تابعت حكومة الدكتور سالمين عمور تشجيع الاستثمار الاقتصادي للقطاع الخاص، وفي العام ١٩٩٢ باشرت العمل بمشروع رئيسي لتحويل المنطقة حول فومبا، التي تقع على بعد عشرين كيلومتراً جنوب مدينة زنجبار، إلى منطقة اقتصادية حرة، حيث ستقام مصانع ومحطّ للسفن في البحر لإدخال المواد الخام إلى الميناء بسهولة. وسيعطى المستثمرون المحتملون سلسلة من الحوافز، منها الإعفاء من رسوم الواردات والصادرات. وسيتم إنتاج بضائع مثل الملابس والأثاث والماكينات للتصدير إلى أفريقيا والخليج وأماكن أخرى في الإقليم. (هناك مخطط آخر لمنطقة اقتصادية حرة في ميشيويني على جزيرة بيمبا). وإذا سارت الأمور

حسب ما هو مخطط لها، فإن التاريخ سيدور دورة كاملة وستعود زنجبار من جديد كلاعب رئيسي في تجارة المحيط الهندي.

كما شهد النصف الأول من التسعينيات تطويراً مثيراً في صناعة السياحة في زنجبار، وعيّنت أفضل المواقع الساحلية لإقامة فنادق ومشاريع أخرى ذات علاقة، من قبل مستثمرين أوروبيين. وفي كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥، كان البناء جارياً لإقامة أكثر من عشرين فندقاً جديداً على الجزر تحتوي على أكثر من ألفي سرير جديد. لكن المراقبين يدّعون أن الاستخدام المتكرر لرمل الشاطىء المالح وللكتل المرجانية في بناء الفنادق ربما أدى إلى مشاكل بنيوية في المستقبل غير البعيد.

أدركت الحكومة أن التطور السريع يمكن أن يتلف الجمال الطبيعي للجزر (ويدمر المصدر الحيوي لدولارات السياحة)، فوضعت سياسة بيئية وطنية لزنجبار في العام ١٩٩٢. وكما قال سالمين عمور، «أن التطور غير المدروس يمكن أن يصبح غير ذي فائدة لشعبنا ولجزرنا الصغيرة». رسمياً، تؤكد الحكومة على أن نوعية الحياة لدى الزنجباريين ينبغي أن لا يساء إليها بتدمير بيئتهم، وأن التنوع الثقافي والبيولوجي يجب صيانته. ومع ذلك، فإن بناء الفنادق والتطوير كان منتشراً بشكل غير مكبوح على مواقع عديدة من شاطىء زنجبار في الوقت الذي وضعت فيه هذه السياسة.

فندق الثورة

شُيّد فندق بوا واني (أو فندق الثورة كما يلقب) العام ١٩٧٢ على قطعة أرض ضيّقة بين البحر والخليج الصغير، على طرف بلدة زنجبار. رغب عبيد كرومي، الذي أصبح رئيس جمهورية زنجبار بعد ثورة ١٩٦٤، ببناء فندق فاخر من تصميمه يخلق انطباعاً حسناً لدى الشخصيات الأجنبية التي تزور البلاد. تقول الرواية المعاصرة أنه بعد تشييد الفندق، أدرك كرومي أنه نسي المطبخ وقاعة الطعام، ولذلك تمّ بناؤهما لاحقاً في مبنى منفصل. (وهذا يفسـر، حسب كلام النزلاء، تأخر طلبات الطعام ووصولها باردة).

كان من المقرر أن يفتتح الفندق في كانون الثاني/ يناير ١٩٧٤، الذكرى العاشرة للثورة، ولكن في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣ لم يكن الفندق أكثر من هيكل من الإسمنت غير المنجز. عندها طلب كرومي من شركة فنادق هندية إتمام بناء الفندق وإدارته. وتمّ افتتاحه في التاريخ المحدد، رغم أنه لم يكن قد أكمل إلاّ جزئياً. أخيراً، تم بناء الفندق في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٦، وامتلأ لأول مرة عندما شغلت غرفه الـ ١٢٥ مجموعات من العلماء والصحافيين والسيّاح الذين توافدوا إلى زنجبار لمراقبة كسوف الشمس التام الذي كان سيحصل بتاريخ ٢٣ تشرين الأول/ أكتوبر من الشهر نفسه. وصل معظم الزوار إلى الفندق وسجلوا أسماءهم. وفي المساء قبل الكسوف، عندما استعد النزلاء في الفندق وأضاءوا الأنوار والمكيّفات، انفجر محوّل الكهرباء الرئيسي الموجود خارج الفندق تحت تمثال ضخم من البرونز لكرومي. وعلا صوت الانفجار وانتشر الدخان وساد الهرج والمرج وضاع منظر الكسوف وتحطم تمثال كرومي وأنقطع النور

ومما زاد الطين بلة أن الضيوف حالما فتحوا نوافذ الغرف للتهوية حاصرهم البعوض الآتي من الخليج الصغير، ومنعهم من النوم. ومن يومها سمي «فندق ثورة النحس».

قصة أخرى عن فندق بوا واني تتعلق بفيلين هنديين، يدعيان انديراني وغوفندون، كانا هدية من حكومة الهند إلى حكومة زنجبار واستخدمهما الفندق في العام ١٩٧٦ لركوب الناس صباح كل يوم. وكان يتقاضى ١٥ شلن عن كل من يركب الفيل ويقوم بجولة، وكان القليل من الزنجباريين قادرين على تحمل كلفة المشوار. ولم يكن هناك سياحة تذكر في الجزيرة ذلك الوقت وكان ثمة مرافقان يقودان الفيلين من الزريبة قرب قصر ماها روبي، إلى مطبخ الفندق ليطعماهما بقايا الطعام. مات الفيلان بعد فترة لقلة الركاب وقلة الطعام.

القرنفل

خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر كانت جزر زنجبار تنتج أكثر من ٩٠ بالمائة من حاجة العالم للقرنفل، وقد ارتكزت قوة وثروة زنجبار أساساً على هذه التجارة. اليوم، يتم تشجيع التنويع في الزراعة، غير أن زنجبار تبقى مصدراً رئيسياً للقرنفل ومنتوجات القرنفل الذي تصل مداخيله إلى ما بين ٥٠ بالمائة و٧٥ بالمائة من قيمة مجمل صادراتها.

كبوش القرنفل هي براعم شجرة القرنفل التي، عندما تجفف، تعطي مذاقاً طيباً ورائحة لطيفة. وفي الأصل، كان زيت القرنفل مقوّماً ثميناً جداً يستخدم في الطبخ وفي حفظ الأشياء، واليوم يستخدم أيضاً في الصناعات التجميلية والصيدلانية.

أدخل القرنفل إلى زنجبار في أوائل القرن التاسع عشر من المستعمرات الفرنسية سيشل وموريشوس. ولقد عرف السلطان سعيد (حكم من ١٨٠٤ إلى ١٨٥٦) قيمة القرنفل وشجع على إقامة مزارعه في زنجبار وبيمبا، والتي بقي العديد منها لغاية اليوم. يأتي ٧٥ بالمائة من إجمالي إنتاج القرنفل من جزيرة بيمبا لأن ظروف الإنتاج هناك أفضل مما هي عليه في جزيرة زنجبار.

تصل أشجار القرنفل (اسمها العلمي يوجينيا أورماتيكا أو يوجينا كاري أوفيلاتا) لعلو ١٠ ــ ١٥ متراً، وتعطي محصولاً على مدى خمسين سنة. في السنوات الثماني الأولى من النمو، لا يتم قطف البراعم التي تتحول إلى أزهار ذات لون أحمر وردي ــ لون قرنفلي. وعندما تنضج الشجرة، تقطف براعمها باليد قبل أن تتفتح (فترة القطاف تكون عادة بين تموز/ يوليو وكانون الثاني/ يناير، مع توقف خلال موسم الشتاء في تشرين الثاني/ نوفمبر)، ثم تفصل السيقان عن البراعم. بعد ذلك يتم تجفيف السيقان

والبراعم تحت الشمس وتنشر على حصر من سعف النخيل أو على مصطبة من الحجر تسمى ساكوفو. عندما تقطف يكون لون كبوش القرنفل أخضر، ولكن خلال عملية التجفيف يتحول لونها إلى بني.

ترسل كبوش القرنفل إلى بلدة زنجبار لكي يتم تصنيفها ويستخرج منها الزيت في معمل التقطير قرب الميناء. يستخدم هذا الزيت، بشكل رئيسي، لإعطاء النكهة للأطعمة مثل الكعك والمخللات واللحم المطبوخ والخليط الجاهز. كما يستخدم في بعض التحاليل المطهّرة مثل سوائل تنظيف الفم ومسكّنات ألم الأسنان. استخدامها الرئيسي الآخر هو في مواد التجميل إذ يضاف عبير التوابل اللطيف لأنواع عديدة مختلفة من العطور.

أما البراعم المجففة الأفضل نوعية، فتحفظ على حدة وتستعمل في الطبخ والكبيس أو في صنع أنواع النبيذ والمشروبات. كما يتم أيضاً تقطير هذه البراعم ويستخرج منها زيت رفيع المستوى يستخدم بشكل خاص في العطور الممتازة. وفي أوساط الصناعة التجميلية، يعتبر زيت براعم القرنفل الزنجباري الأفضل في العالم.

جوز الهند

جوز الهند هو ثاني أهم محاصيل زنجبار بعد القرنفل، وهو ينمو على نوع معين من شجر جوز الهند الذي يزرع عادة حيث لا تعيش أشجار القرنفل، ولكن نظراً لتشجيع التنوع في المزروعات فليس من الغريب أن نشاهد اليوم أشجار جوز الهند والقرنفل في المزرعة ذاتها.

تقطف ثمار جوز الهند طوال السنة، فيتسلق قاطفو الثمار جذوع الشجر مستخدمين أنشوطة قصيرة من الحبال لا غير، ويرمون بحبات جوز الهند على الأرض. تزال القشرة الخارجية لجوز الهند بضرب الحبة على قضيب مروس أو قضيب معدني مثبت في الأرض. وهي أيضاً عملية تحتاج لحذاقة. ثم تقسم جوزة الهند إلى قسمين وتترك لتجف حتى يمكن إزالة اللب عن القشرة. بعدها يتم تجفيف اللب في الشمس لبضعة أيام، أو في فرن خاص. يمكن مشاهدة مجموعات العمال وهم يفصلون القشور الخارجية واللب، وأفران جوز الهند الصغيرة، في مناطق المزارع خارج بلدة زنجبار. عندما يجف اللب تماماً، يصبح اسمه «كوبرا»، وهو يستخدم على نطاق واسع في صناعة الأغذية لإعطاء النكهة، أو من أجل الزينة. كما يستخرج زيت من الكوبرا، ويستعمل في بعض المأكولات ولإنتاج الصابون والشموع وزيوت الشعر. ومادة الكوبرا أساسية لصناعة صابون الحلاقة لإنها تعطي رغوة.

يستفيد المزارعون أيضاً من القشور الخارجية لجوز الهند، فيتم دفنها في رمال الشاطىء لبضعة أشهر من أجل تليين الألياف ونزعها عن باقي القشرة. يجري إخراج القشور دورياً من أماكن دفنها، ثم تضرب على الصخور لإنجاز عملية نزع الألياف التي يعاد دفنها من جديد لشهور قليلة. وهذه الألياف تدعى «ليف جوز الهند»، الذي يستعمل في صناعة الحصر والحبال. وغالباً ما ترى النساء المحليات خارج بلدة زنجبار يعملن على نزع الألياف بهذه الطريقة.

في الأرض والناس

الموقع

تتألف زنجبار من جزيرتين كبيرتين وعدة جزر صغيرة، وتقع على بعد أربعين كلم من ساحل شرق أفريقيا في المحيط الهندي، وست درجات جنوبي خط الإستواء. الجزيرتان الكبيرتان هما أونغوجا (عادة تدعى جزيرة زنجبار) وبيمبا.

الحجم

طول جزيرة زنجبار حوالى ٨٥ كلم وعرضها بين ٢٠ و٣٠ كلم، بمساحة أقل من ١٥٠٠ كلم² بقليل. وطول جزيرة بيمبا ٧٥ كلم وعرضها بين ١٥ و٢٠ كلم، بمساحة حوالى ٨٥٠ كلم².

الطوبوغرافيا

جزر زنجبار هي بشكل عام مسطّحة ومنخفضة. وفي الأجزاء الغربية والوسطى من جزيرة زنجبار توجد بعض التلال غير العالية حيث تصل أعلى نقطة فيها إلى ارتفاع ١٢٠ متراً عن سطح البحر. في بيمبا توجد سلسلة تلال وسطية تقطعها عدة أودية صغيرة، وتبدو أنها تحوي تلالاً أكثر من زنجبار، رغم أن أعلى نقطة

في بيمبا لا تزيد عن ٩٥ متراً عن سطح البحر. تحيط بجزر زنجبار سواحل ذات مداخل صخرية وشواطىء رملية، وتتخللها البحيرات والمستنقعات التي تنمو فيها أشجار المنغروف الاستوائية، إضافة إلى سلاسل الصخور المرجانية وراء خط الشاطىء وبشكل خاص على الطرف الشرقي للجزر الرئيسية.

المناخ

تحكم تحركات الرياح الموسمية في المحيط الهندي مناخ زنجبار الذي يتصف بمواسم رطبة وجافة. تهب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية من تشرين الثاني/ نوفمبر ـ كانون الأول/ ديسمبر وحتى شباط/ فبراير ـ آذار/ مارس، وتهب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية من حزيران/ يونيو حتى أيلول/ سبتمبر ـ تشرين الأول/ أكتوبر. يمتد موسم الأمطار الرئيسي من منتصف آذار/ مارس حتى نهاية أيار/ مايو، إضافة إلى موسم أمطار قصير في تشرين الثاني/ نوفمبر. درجات الرطوبة تكون عادة عالية جداً، رغم أن الرياح ونسيم البحر تعمل على تلطيفها. درجات الحرارة لا تتنوع كثيراً خلال السنة، ومعدلها أثناء النهار حوالى ٢٦ درجة مئوية في زنجبار من حزيران/ يونيو حتى تشرين الأول/ أكتوبر، وحوالى ٢٨ درجة من كانون الأول/ ديسمبر حتى شباط/ فبراير. المناخ في بيمبا أبرد منه في زنجبار، كما أن نسبة الأمطار أكثر بقليل.

الحياة النباتية والزراعة

كانت الجزر في الأصل مكسوّة بالغابات، إلاّ أن سكن البشر نتج عنه إزالة الكثير من الأشجار، مع أن جيوب قليلة معزولة من الغابات الطبيعية لا تزال باقية. محاصيل زنجبار الزراعية الرئيسية هي جوز الهند والقرنفل، إضافة للموز والحمضيات وتوابل أخرى

تنتج تجارياً. أما زراعة الذرة والمنيهوت والخضراوات والحبوب الأخرى، فهي للاستهلاك المحلي.

الحياة البريّة

لا توجد حيوانات متوحشة كبيرة في زنجبار كتلك الموجودة على البر الأفريقي، والغابات هي مأوى السعادين والظباء الصغيرة، أما السنور وأنواع النمس المختلفة فموجودة في كافة أنحاء الجزر. عالم الطيور متنوع ومثير للاهتمام، وهناك أكثر من مئة نوع من الطيور مع أن أعدادها أقل مما هي في مناطق أخرى من شرق أفريقيا. الحياة الطبيعية البحرية في سلاسل الصخور المرجانية التي تحيط بالجزر، هي غنية جداً.

السكان والاستيطان

كان عدد سكان زنجبار حوالى ٦٠٠ ألف نسمة سنة ١٩٨٨، وهو آخر تاريخ توافرت فيه أرقام تقديرية يعتمد عليها. العام ١٩٩٢، قدّر عدد السكان بحوالى ٧٠٠ ألف نسمة بمعدل زيادة سنوية ٣٪. واستناداً على هذه الأرقام يقدر عدد السكان سنة ١٩٩٦ بحوالى ٨٠٠ ألف نسمة. أكبر تجمع سكاني هو بلدة زنجبار (تدعى أحياناً مدينة زنجبار) على جزيرة زنجبار (انغوجا)، التي تضم ١٠٠ ألف نسمة. وهناك بلدات صغيرة على جزيرة زنجبار، بينها شآني، بامبي وماكوندوتشي. خارج هذه البلدات، يعيش معظم الناس في قرى صغيرة ويعملون بالزراعة وصيد السمك. إن هذا النموذج للتوزيع السكاني مشابه لذلك في بيمبا، حيث أكبر بلدة هي تشاكي تشاكي التي يبلغ عدد سكانها عشرة آلاف نسمة، والبلدات الأصغر حجماً هي ويت ومكواني.



المراجع

أسيا الوسطى

- Islamic People of The Soviet Union, Shirin Akiner, Kegan Paul International - London 1983.
- Red Odyssey: A journey through The Soviet Union, Merat Akchurin - Secker and Warburg - London 1992.
- Moslems of the Soviet Empire: A Guide, Aleyandre Bennigsen and S. Enders Wimbush - Indiana University Press - Indianapolis 1986.
- Between Marx and Muhammad: The Changing Face of Central Asia, Dilip Hiro - Harper Collins - London 1994.
- The Great Game, Peter Hopkirk - Oxford University Press - Oxford 1990.
- The Emergence of Modern Turkey, Bernard Lewis - Oxford University Press - Oxford 1961.
- A Peace To End All Peace: Creating the Middle East 1914-1922, David Fromkin - Andrn Deutsch. London, 1989.
- Crescent in Red Sky: The Future of Islam In The Soviet Union, Amir Tahiri - Hutchinson, London 1989.
- Central Asian Survey - vol. 12 - No. 4 - London 1992.

- المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفياتي ـ الكسندر بينيغسون، شانتال لوميدييه كيكلجاي ـ ترجمة عبد القادر ضللي ـ دار الفكر المعاصر ـ بيروت.
- موسوعة «تاريخ القفقاس والجركس» ـ جمع وترتيب محمد جمال صادق أبه زاو ـ دار علاء الدين ـ دمشق ١٩٩٦.

شـرق أفريقيـا

- «عُمان في التاريخ: مجموعة باحثين» ـ دار أمبيل للنشر ـ لندن ـ ١٩٩٥.
- «المؤشرات الحضارية العُمانية في شرق أفريقيا» ـ الدكتور ابراهيم الزين صغيدون ـ جامعة السلطان قابوس ـ مسقط.
- «أضواء على جوانب التأثير الحضاري العُماني في شرق أفريقيا» ـ الدكتور عبد الفتاح حسن أبو علية ـ جامعة الإمام محمد بن سعود ـ الرياض.
- «نشأة الدولة البوسعيدية» ـ الدكتور مصطفى مقبل ـ جامعة قطر ـ الدوحة.
- «صلات عُمان بشرق أفريقيا في العصور الحديثة» ـ الدكتورة سنى محمد الطائي ـ اتحاد المؤرخين العرب ـ بغداد.
- A. Al-Mamary - Oman and East Africa - Lancers - New Delhi 1970.
- Emily Reute (Salmeh Bint Said) - An Arabian Princes Between Two Worlds - Brill - Leiden, Netherland, 1993.
- East Africa Handbook - Micheal Hodd - Footprint - London, 1996.

- E.B. Martin - Zanzibar, Tradition and Revolution - Hamish Hamilton - London 1978.
- David Else and Sarah Chanter - A Short History of Zanzibar - Bradt - London 1995.
- Jaques Baulin - The Arab Role in Africa - Penguin - 1967.
- A. Sherif - Slaves, Spices and Ivory in Zanzibar - Currey - London, 1997.
- Charles Miller - The Lunatic Express - Macmillan - New York, 1971.



كتب صدرت للمؤلف

١ ـ **موت الآخرين** ـ شعر، ١٩٦٢.

٢ ـ **الفترة الحرجة** ـ دراسات نقدية (١٩٦٠ - ١٩٦٥). الطبعة الأولى ١٩٦٥.

الطبعة الثانية مزيدة وليست منقحة، بعنوان فرعي «نقد في أدب الستينات» - ١٩٩٢.

٣ ـ **صراع الواحات والنفط** ـ هموم الخليج العربي. الطبعة الأولى ١٩٧٣، الطبعة الثانية ١٩٧٤.

٤ ـ **البحث عن توفيق صايغ** ـ شعر، ١٩٧٥.

٥ ـ **المسار الصعب** ـ المقاومة الفلسطينية: منظماتها، أشخاصها، علاقاتها. ١٩٨٦ (مع دنيا نحاس) [صدر بالإنكليزية أيضاً].

٦ ـ **ظفار** ـ قصة الصراع السياسي والعسكري في الخليج العربي (١٩٧٠ - ١٩٧٦) - ١٩٧٨.

٧ ـ **الخليج العربي ورياح التغيير** ـ مستقبل الوحدة والقومية والديموقراطية. الطبعة الأولى ١٩٨٦، الطبعة الثانية ١٩٩٠.

٨ ـ **وثائق الخليج العربي** ـ طموحات الوحدة وهموم الاستقلال. الطبعة الأولى ١٩٨٧، الطبعة الثانية ١٩٩٠.

٩ ـ **جواسيس العرب** ـ صراع المخابرات الأجنبية. الطبعة الأولى ١٩٨٧، الطبعة الثانية ١٩٩١.

١٠ ـ **شخصيات عربية من التاريخ**. الطبعة الأولى ١٩٨٧، الطبعة الثانية ١٩٨٩.

١١ ـ **المسيحيون والعروبة** ـ مناقشة في المارونية السياسية والقومية العربية. الطبعة الأولى ١٩٨٨، الطبعة الثانية ١٩٩١.

١٢ ـ **العرب وجيرانهم** ـ الأقليات القومية في الوطن العربي. ١٩٨٩.

١٣ ـ **قبل أن تبهت الألوان** ـ صحافة ثلث قرن. ١٩٩١ .

١٤ ـ **رياح السموم** ـ السعودية ودول الجزيرة بعد حرب الخليج، ١٩٩١ - ١٩٩٤. الطبعة الأولى ١٩٩٤، الطبعة الثانية ١٩٩٥. الطبعة الثالثة ١٩٩٧.

١٥ ـ **أكتب إليكم بغضب** ـ كيف تقول «لا» في عصر «نعم». ١٩٩٦.

١٦ ـ **ثلاثة شعراء وصحافي** ـ رسائل جبرا ابراهيم جبرا، يوسف الخال وتوفيق صايغ إلى رياض نجيب الريس. ١٩٩٦

١٧ ـ **رياح الشمال** ـ السعودية والخليج والعرب في عالم التسعينات. ١٩٩٧. الطبعة الثانية ١٩٩٧.



فهرس عام

ب

س

ش

ص

ط

ع

ن











رياض نجيب الريس

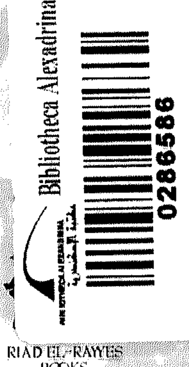
صحافي ومدينتان

رحلة إلى سمرقند وزنجبار

في هذا الكتاب «صحافي ومدينتان» يضطرم الصحافي والكاتب رياض نجيب الريّس بالحمّى الأندلسية. إلا أنها تتوجه إلى أبعد من الأندلس ونحو دائرة أوسع للحنين العربي: آسيا الوسطى (سمرقند) وشرقي أفريقيا (زنجبار).

هكذا نلمس في الكتاب لمس اليد ثمار بساتين بخارى، وتزيغ أبصارنا أمام فسيفساء القيشاني الزرقاء في قباب مساجد وقصور سمرقند. كذلك نتشمم عطر روائح كبش القرنفل في زنجبار. ولا ننفك نشاهد صور الماضي انطلاقاً من الحاضر: عن مدن تهوي وعروش تتحطم. عن ملوك منفيين وأميرات هاربات. عن قوافل العبيد وحذاء المرأة الذي أخّر الفتح. وصولاً إلى الهوية الحائرة لدول آسيا الوسطى، وللجروح البيضاء على وجه أفريقيا الأسود.

وبأسلوبه الذي يجمع بين نَفَس القصة وتقنية أدب الرحلات والتحليل السياسي والاجتماعي، يقودنا المؤلف في هذا الكتاب حاملاً سيف جنكيزخان وهامزاً فرس تيمورلنك صوب تلك الفيافي والقفار والمدن، متطلعاً إلى السماء من مرصد أولوغ بيك، محتسياً في خوارزم الشاي الأسود لا يستساغ، ومبحراً مع أسطول السلطان سعيد من عُماد المحيط الهندي إلى شرق أفريقيا ومتسللاً مع الس برغش وسط الحريم إلى خارج زنجبار. كل ذلك في نبحث فيها عن شبه أندلس عربية انقرضت، وإسلام فقد عروبته.



RIAD EL-RAYYES
BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر


1855132605